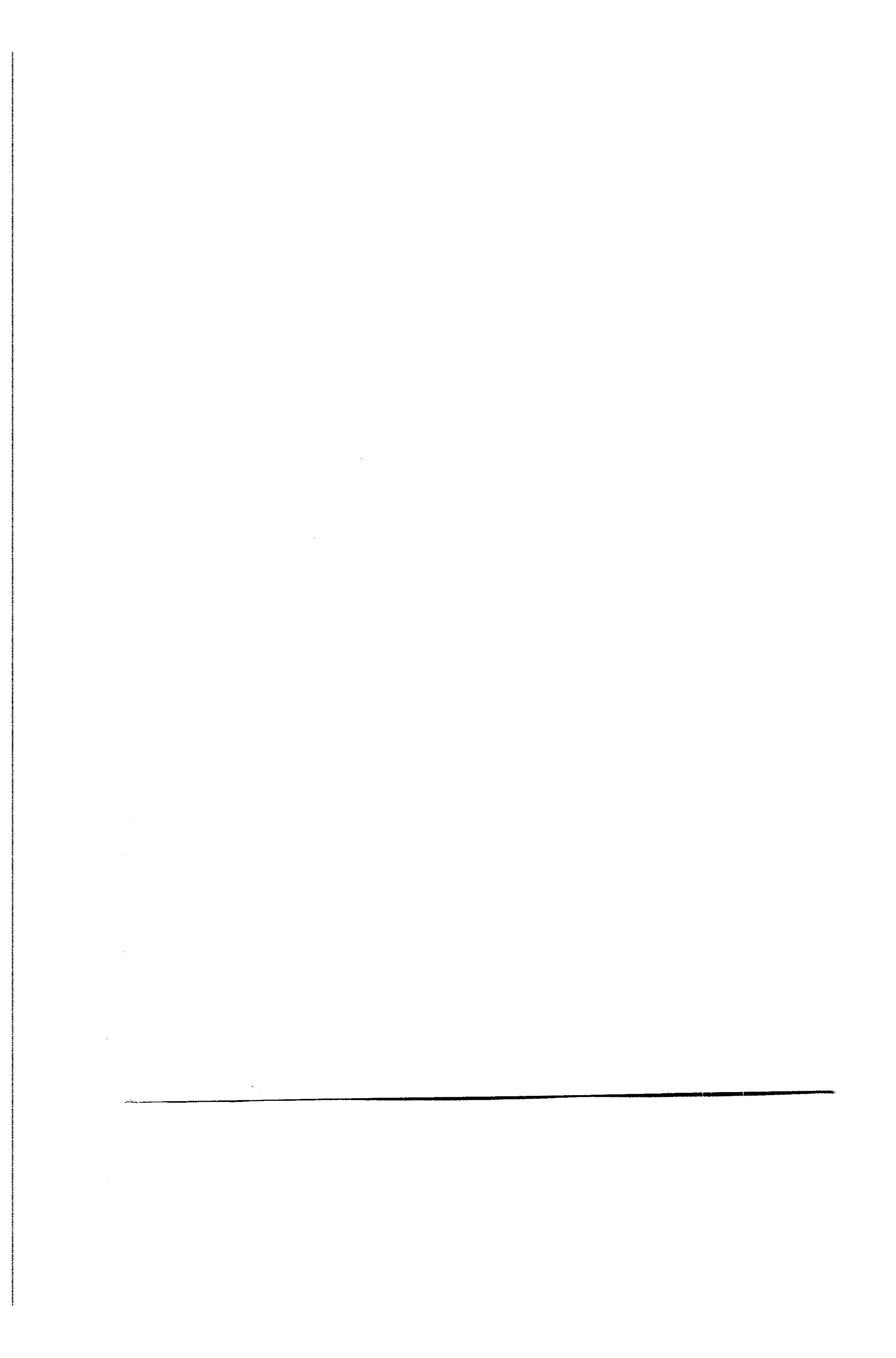
جامعة الزقازيق
كلية التربية
الفرقة الثانية / فلسفة

دراسات
في
تاريخ صدر الاسلام

دكتور
محمد عبد العظيم أبو النصر

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

٢٠٠٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ،

تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله »

« صدق الله العظيم »

٭ ((المقدمـــة)) ٭

إن أعظم نعم الله سبحانه وتعالى علينا أن جعلنا مسلمين ،فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة . ومن تمام نعمته سبحانه أن جعلنا من أمة محمد (ﷺ) خير أمة أخرجت للناس ،ختم الله تعالى بها الأمم وجعلنا شاهدين على الناس . كانت حالة العرب قبل الإسلام تعانى انحدارا كبيرا فى النواحى السياسية حيث لا يوجد نظم سياسى واحد كدولة أو مملكة يجمعهم إنما كان حكم القبيلة والطاعة العمياء لسيدها ،وفى النواحى الدينية عبد العرب الكواكب والشمس والقمر والأصنام والأوثان من دون الله والعياذ بالله ،وكانت أحوالهم الاجتماعية يسودها الطبقية فهناك طبقة الحكام والأحرار ثم طبقة العبيد التى تعمل دون أجر ولا قيمة ... إلى غير ذلك من المفاسد الأخلاقية كشرب الخمر والزنا ووأد البنات وغيرها .

وجاء الإسلام بمبعث محمد (ﷺ) هاديا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله تعالى بإذنه وسراجا منيرا . ليضئ الله تعالى برسالته الطريق أمام هؤلاء العرب ،ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ،ورغم ما نال الرسول عليه الإسلام والصحابة من أذى وتعذيب وتفريق وهجرة إلا أن العرب دخلوا فى دين الله أفواجا ،ونقلوه هم إلى العالم أجمع محققين قول الحق سبحانه وتعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وعندما قبض رسول الله (ﷺ) كان الإسلام قد عم شبه الجزيرة العربية ،وأكمل الله للمؤمنين دينهم وأتم عليهم نعمته وأرتضى لهم الإسلام دينا .

ليكمل الخلفاء الراشدين الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم الدور وينشروا الإسلام فى خارج جزيرة العرب ،ويسقطوا ممالك الفرس والروم والقبط والترك والهنود ،ففتحوا العراق والشام ومصر وأسسوا أول بحرية إسلامية .

وينتقل الحكم إلى بنى أمية سنة ٤١هـ .ليواصلوا مسيرة الفتح ويصلوا بالإسلام إلى أقصى الأرض فى بلاد التركستان والصين والمغرب والأندلس وأوربا وقبرص وردوس بل حاصروا القسطنطينية عاصمة الروم اكثر من مرة وأسسوا صرحاً حضارياً عظيماً أكمله من جاء بعدهم من خلفاء بنو العباس .

وهذه مجموعة محاضرات جمعتها لطلابى بقسم التعليم الأساسى بكليات التربية فى تاريخ أعظم دولة عربية إسلامية أسسها ووضع دستورها رسول الله (ﷺ) ، تظل تؤدى دورها إلى قيام الساعة ونظراً لكثرة المادة العلمية لطول الفترة التاريخية وتفاعل أحداثها وتشوق القارئ إليها ،فهناك الكثير من الاختصارات أثناء إعداد المادة العلمية .

والله الموفق والمستعان .

الفصـــل الأول

⚘⚘ ((أحوال العرب قبل الإسلام)) ⚘⚘

* جغرافية شبة الجزيرة العربية .

* أحوال العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

• **الجـــزيرة العـــربية :-**

تشغل شبة الجزيرة العربية القسم الجنوبى الغربى من قارة آسيا ،وهى شبة جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، البحر الأحمر من الغرب ،والخليج الفارســى ،وبحــر عمان من الشرق ،والمحيط الهندى من الجنوب ،وبادية الشام من الشمال ،ومع ذلك لــم يستطع الجو البحرى أن يخفف من حدة الحرارة فيها ،ويتغلب على جفافها .

ويقسم جغرافيو العرب ،الجزيرة إلى خمسة أقسام هى : تهامة والحجـــاز ونجـد والعروض واليمن .

١) تهامــــة :-

هى المنطقة الضيقة المطلة على البحر الأحمر ،وتسمى فى الجنوب باسم تهامـــة اليمن ،وكان العرب القدامى يسمونها الغــور لانخفاض أرضـــها ،وهـــى أرض رمليـــة شديدة الحرارة .

٢) الحجـــاز :-

الحجاز ما بين نجد وتهامة ،وهو جبل يمتد من اليمن حتى يتصل بالشام وســـمى بهذا الاسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة ،وامتداده بينهما بحذاء الساحل ،ويضم الحجاز من المدن ،المدينة والطائف وخيبر وفدك وتيماء .

٣) نجـــد :-

وهى الهضبة التى تكون قلب الجزيرة وأوسع أقاليمها ،شـــمالها العـــراق والشـــام ،وجنوبها تهامة واليمن ،وغربها إقليم الحجاز .

٤) العـــــروض :-

وهى تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما وقد سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق .

٥) اليمــــن :-

منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض وسميت بذلك الاسم لتيمن العرب إليها ،لأنها أيمن الأرض .

- **احوال العرب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية :-**

أولاً حالة العرب الدينية :-

شهدت جزيرة العرب كثيراً من الاختلاف فى العقائد الدينية ،فكانت الحياة الدينية عند العرب فى مستوى بدائى فقد اعتقدوا كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة المحدودة أن الطبيعة حولهم مشحونة بقوى اعظم من قوة الإنسان ،ولكن بالإمكان تسخيرها لخدمته بطرائق خاصة .

ونستدل من أسماء قبائل العرب على أنهم كانوا قريبى عهد بمذهب الطوطمية ،والطواطم كائنات كانت تحترمها بعض القبائل المتوحشة ،ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسبة بينه وبين واحد منها يسميه طوطمية .وقد يكون الطواطم حيواناً أو نباتاً وهو يحمى صاحبه ويدافع عنه .ولذلك أحترمه صاحبه وقدمه ،فإذا كان حيواناً أبقى عليه ،وإذا كان نباتاً لم يتجرأ على قطعه أو أكله إلا فى أوقات الشدة ،ولذلك كان العرب يتسمون بأسماء الحيوانات مثل : بنو أسد ،وبنو كلب ،وأسماء حيوانات مائية مثل قريش ،أو أسماء نباتات مثل حنظلة ،ثم أن العرب كانوا يقدسون الحيوان ويعبدونه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم ،لذلك كانوا يعتقدون أنه يحمى أهله عند وقوع الخطر .

حتى إذا أرتقى المستوى الدينى عند العرب بعد الشىء ،تمثلوا هذه القوى روحاً بشرية ،ذات طاقات خطيرة ،فأصبحت فى عرفهم شياطين ،ويعتقد العرب أن أهم مواطن الجن الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص مأهولة بالأرواح .

كما عبد العرب الأصنام ،واستعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التى كانوا يعبدونها فى الجاهلية ،هما "أصنام" و "أوثان" ويذكر هشام بن محمد الكلبى أن التمثال إذا محمولاً من خشب أو ذهب أومن فضة صورة إنسان فهو صنم ،وإذا كان من الحجارة فهو وثن .

وكانت أصنام العرب فى الجاهلية على أشكال متنوعة فمنها ما كان على صورة إنسان ،ومنها ما كان على صورة الحيوان ،والأصنام تصنع من مواد مختلفة ،فبعضها يصنع من الخشب ،وبعضها من الحجارة وبعضها الآخر من معادن شتى .

ويذكر المؤرخون أن عمرو بن لحى الخزاعى هو أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ،وذكروا أيضاً أنه مرض مرضاً شديداً ،فرحل إلى البلقاء بالشام ليستشفى فى إحدى حماتها ،فأتاها وأستحم بهذه الحمة فبرأ ،ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها عل العدو ،فسألهم أن يعطوه منها ،ففعلوا .فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .

ومن أشهر هذه الأصنام هبل ،واللات والعزى ومناة والتى ذكرها الله عز وجل فى قوله تعالى : ***"أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ،ألكم الذكر وله الأنثى ،تلك إذا قسمه ضيزى أن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان"*** "سورة النجم" آية١٩-٢٣ . وأيضاً إساف ونائلة وود وذو الخلصة ... ألخ .

وتدل الأساطير التى نسجها العرب حول النصب على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالق البشر أو الكائنات ،لأنه تارة يستقم عنده ،وتارة يسبه ،ومرة ثالثة يأكله فى وقت الشدة ولم يصبح الوثن فى تصور العربى ربا إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد ،عندما

تأثر بالوثنية المجاورة . ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمنية .

أما عبادات عرب الجنوب وما فيها من المظاهر الفلكية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية وتقديم الذبائح والقرابين فإنها تمثل مرحلة من التطور ،قد أدت إليها حالة الاستقرار والتحضر فى المجتمع ،كما يزعم أن عرب الجنوب تأثروا بحضارة بلاد الرافدين وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب ،وقوامها ثالوث كوكبى هو القمر والشمس والزهرة .

كما عرفت اليهودية والنصرانية فى الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام ،فقد ظهرت اليهودية فى بلاد اليمن ،كما هاجرت بعض القبائل اليهودية إلى شمال الجزيرة العربية ،واستقرت هناك وبخاصة فى يثرب وخيبر ووادى القرى وفدك ونيماء وذلك على أثر طرد الرومان لهم من بلاد الشام .

أما المسيحية ،فقد انتشرت فى شمالى بلاد العرب حيث كان الغساسنة خاضعين للروم ،وهم نصارى ،فكان أكثر ربيعة وهم يقيمون فى شمال الجزيرة -يدينون بالمسيحية ،وظلت على مسيحيتها إلى عهد عمر بن الخطاب ،وقد أبو أن يدفعوا الجزية ،فضاعفوا عليهم الخراج .

وقال الجاحظ : "وكانت النصرانية فاشية فى العرب إلا مصر ،فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ولم تفش فيها النصرانية ،إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فأنهم كانوا نصارى ،ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ،وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم وغسان ،والحارث ابن كعب بنجران ،وقضاعة وطى ... ثم ظهرت فى ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس ،وأفناء بكر ،ثم فى آل ذى الجدين خاصة .وبالإضافة إلى العقائد السابقة نجد أن بعض أهل شبه الجزيرة العربية اعتنقوا المجوسية التى نقلها أهل الحيرة عن الفرس .

أدى اختلاط العرب بأصحاب الديانات السماوية إلى ظهور أفراد شكوا فى الوثنية العربية ،فأعتنق بعضهم اليهودية ، ودخل البعض الآخر فى المسيحية واكتفى فريق ثالث بفعل الخير وتجنب الشر ،وأخذ هذا الفريق يبحث عن ديانة إبراهيم عليه السلام ،ولذا يعرفون بالحنفاء نسبة إلى لفظ حنيف وهو دين إبراهيم كما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : "وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ،قل بل مله إبراهيم حنيفاً وما كان من الشركين" وفى قوله تعالى **"ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"** .«سورة. آية ﴿١٣٥﴾ سورة آل عمران آية ﴿٦٧﴾ .

وبذلك يعنى المسلمون بالحنفاء من كانوا على دين إبراهيم من الجاهلين ،فلم يشركوا بربهم أحداً ولم يدخلوا فى يهودية ولا نصرانية ،ولم يقبلوا بعبادة الأصنام ديناً ،بل سفهوا تلك العبادة ،وسفهوا رأى القائلين بها .

فالحنيفية بذلك تدل على الدين التوحيد ،ومن أشهر المتحنفين ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة يدعو المؤمنين إلى عبادة الله الواحد وزيد بن عمر الذى يعتزل الشرك ،وأمية بن أبى الصلت ،وقيس بن ساعدة الأيادى .

وأكثر العرب من قحطان وعدنان كانوا على هذا الدين يعبدون الله جل جلاله وحده ولا ينتقصونه ،حتى جاء عمرو ابن لحى الذى أفسد العرب ونشر بينهم عبادة الأصنام الضالة ،وذلك بما تعلمة من وثنى بلاد الشام حين زارهم ،ووزع الأصنام بين القبائل ودعا إلى عبادتها . وبقى الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل ،إلى دين إبراهيم حنيفا وما كان إبراهيم من المشركين .

ثانيا : الحياة الاجتماعية قبل الإسلام :

← القبيلة :

القبيلة هى الوحدة السياسية عند البدو ،وهى جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك ،والقبيلة هى عماد الحياة فى البادية ،بها يحتمى الأعرابى فى الدفاع عن

نفسه وعن ماله حيث لا حكومة ولا رجال أمن ولا سجون فيها الخارجون على نظام المجتمع .والرابط الذى يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو النسب .وأساس النظام القبلى هو العصبية ،وهى كما قال ابن خلدون :"ولا يصدق دفاعهم وذيادتهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد ،لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ،إذ نعرة كل أحد على نسبة وعصبيته أهم ،وما جعل الله فى قلوب عبادة من الشفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وقربائهم موجودة فى الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم" .

ويتضح من ذلك ،أن العصبية هى شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ،وأنها دافع غريزى فى الإنسان ،قائمة على أساس رابطة الدم ،وفيها عنصر أخلاقى يجعلها قوة اجتماعية وسياسية ،ولها أهمية كبرى إذ أنها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتلهم بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه .

فالعصبية إذا تشبه الشعور القومى فى عصرنا الحاضر ،ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح من الرابطة القومية " لأن العصبية تدعو إلى نصرة الفرد لأبناء قبيلته ظالمين كانوا أم مظلومين ،ثم يقبل تحمل بعض مسئولية أعمال غيره فى دفع الدية للقتلى من القبيلة الأخرى أو الفداء عن الأسرى من قبيلته ،ولهذا فإن روح الديمقراطية والمساواة كانت الأساس الذى يقوم عليه المجتمع القبلى .

● ***والعصبية عند العرب نوعان :***

١) عصبية الدم ،وهى أساس القرابة فى البيت الواحد ،ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة .

٢) عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه .

والقبيلة هى الحكومة الوحيدة التى يفهمها الأعرابى والتى ينضوى فى ظلها وينفذ قرارتها دون نقد أو اعتراض ،وتستوفى كافة مقومات الدولة ،باستثناء الأرض الثابتة

التى تحدد منطقة نفوذها ،ذلك أن القبيلة قلما ثبتت فى مكان واحد مدة طويلة بل تتجول من مكان إلى آخر وراء مصادر الماء والعشب ،وإن كانت فى غالب الأحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول فى نطاقها وهى ما تدعى بالدار ،وقد تنشئ لنفسها حمى أى منطقة ثابتة من الأرض لا يجوز لغيرها النزول بها أو حتى المرور إلا بموافقتها .

وكان النظام القبلى أيضا دعامة الحياة السياسية فى الممالك العربية والإمارات التى قامت فى جنوب جزيرة العرب ،وفى حواضر الحجاز وفى الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق ،فلم تنصهر القبائل التى نزلت فى هذه المدن والحواضر فى شعب واحد ،كالشعب الرومانى أو الشعب الفارسى ،وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلى ،على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها ،بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم .

ولكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم ،يرأسه شيخ يختارونه من بينهم يسمونه الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد ،وكانوا يشترطون فى اختياره أن يكون أشرف رجال القبيلة ،وأشدهم عصبية ،وأكثرهم مالا ،وأكبرهم سنا وأعظمهم نفوذا ،كذلك كان من الضرورى أن تتوافر فيه صفات كالسخاء والنجدة والصبر والحكم والتواضع والبيان.

ويستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضور المجلس والتحدث فيه متى كان مجتمعا ،وليس هناك أوقات معينة لاجتماعه ،والغالب أن يجتمع يوميا فى المساء فى بيت شيخ القبيلة ،وقد يجتمع فى النهار أو قد يرسل مناد ينادى الناس للأجتماع فهو لهم كالبرلمان ويتحدث الناس فيه فى مختلف الشئون الخاصة ويبحثون الأمور والمسائل التى تخص القبيلة ويناقشون الأمور السياسية والخارجية فيه ،ولكل فرد فيه الحق فى إبداء رأيه والدفاع عنه .

وبالنسبة لواجبات شيخ القبيلة ،فعليه أن يعين الضعفاء ويواسى المنكوبين ويفتح بيته للضيوف والوافدين ومندوبى العشائر الأخرى .وعليه أن يدير المناقشات فى المجلس ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الأخرى أو يبدى رأيه ،ولكن ليست له سلطة

قانونية لمنع أحد من الكلام أو إقرار رأى دون آخر أو أن يفرض رأيه إلا بقدر ما له من حجة في الإقناع . وعليه أن يفض المنازعات ويحكم في الخلافات إذا لجأ إليه المتخاصمون ،ولكنه لا يحتكر وظيفة القضاء فقد يلجأ المتنازعون إلى غيره من الحكام والعارفون الذين يشتهرون بدقة الحكم والتمييز والعدالة سواء في العشيرة أو خارجها ،وهو أيضاً يقود العشيرة في أوقات الحرب . ولكنه لا يحتكر هذا فقد يظهر قائد مبارز أو فارس شجاع يقوم بالقيادة .

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق تجمل في : المرباع "وهو ربع الغنيمة" والصفايا وهي الأشياء التي يصطفيها شيخ القبيلة لنفسه من خير ما يغنم ،والحكم وهي أمارة الجند والنشيطة أي ما أصابه الجيش في طريقه قبل أن يصل إلى هدفه "والفضول" وهو ما يفضل من الغنيمة فلا ينقسم" .

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمداً على قوة الإقناع وقوة شخصيته ونفوذه إذ لم تكن له سلطة إلزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته فلم تكن له شرطة لتنفيذ أوامره أو سجون بها من يعصيه . أنه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطاً معنوياً ، وهو الأقدم بين أقرانه له سلطات واسعة ولكن ليست له قوة حاكمة . وهذا لاشك أنه لا يكفي لتسيير الشئون الداخلية أو الخارجية للمجتمع البدوي .

* طبقات المجتمع :

يلاحظ أن المجتمع القبلي بصفة عامة كان يقسم من وجهة النظر الاقتصادية إلى طبقتين

• طبقة أصحاب الأموال من التجار والملاك الزراعيين ،الذين كانوا يشتغلون بالزراعة في أطراف الصحراء العربية في اليمن وفي الحيرة وفي مشارف الشام وفي الواحات الداخلية ،وهي الطبقة التي تتركز في أيديها الثروة وتتحكم رؤوس الأموال في الحياة الاقتصادية .

• وطبقة الفقراء ،وهم يؤلفون سواد العرب ،الذين لم يستطيعوا المشاركة فـــي النشـــاط الجارف في المدن وأماكن الاستقرار ،والذين سدت طبيعة الحياة الزعوبة فـــي مجتمـــع البادية أبواب الثراء في وجوههم .وكانت الفوارق بين هاتين الطبقتين كبـــيرة ،ممـــا أدى إلى اختلال التوازن في المجتمع اختلالا شديدا وهذا الاختلال هو الذى وقف منه القـــرآن موقفا حاسما حين حمل على المرابين المنتشرين في المدن التجارية ،الذين زاد جشـــعهم في الهوة بين الناس ،وحين توعد بالويل والعذاب أولئك الذين يلجئون إلى الغش في البيـــع والشراء وسماهم "المطففين" الذين إذا اكتالوا علـــى النـــاس يستوفون ،وإذا كـــالوهم أو وزنوهم يخسرون ،وحين نعى على الأعراب قسوة قلوبهم وتحجر عواطفهم حتـــى أنـــهم يئدون بناتهم ويقتلون أولادهم خشية الإملاق (الفقر) .

ومن حيث السكان .

• <u>المرأة في المجتمع الجاهلي :</u>

لعبت المرأة العربية دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي في السلم وفي الحرب ،وحظيت بمكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التى تقوم إذ أنها كـــانت تقـــوم بقسط كبير من العمل في البيت وخاصة في ذلك المجتمع البـــدوى القاســـى الـــذى كـــان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعى ،وفـــى الحـــرب كـــانت تصحـــب زوجـــها فـــى الغزو لتشجيعه على القتال واستثارة نخوته ،أو تضميد الجرحـــى ورعايتـــهم وتزويـــد المقاتلين بالزاد والماء .

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانه مرموقة في المجتمع بحيث لم يجد بعض الملـــوك بأسا من الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ،وماء السماء لقـــب أمه ماريه بنت عوف ، لقبت به لجمالها ،وعمرو بن المنذر والمعروف بعمرو بن هنـــد نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر .

وكان العربى يؤثر البنين على البنات ،فكن فى منزلة أدنى وذلك لاعتماد العربى على الذكور فى الصيد والغزو والحروب بجانب المحافظة على النسب ،وقد كان عدد كبير من عرب الجاهلية يكرهون البنات ،وصور القرآن الكريم موقف المجتمع الجاهلى من المرأة أكمل تصوير فقال : "**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ،ظل وجهة مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ،أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون .« سورة النحل آية ٥٨-٥٩ »**

وفى هذا إشارة إلى الوأد ،وأسبابه عديدة منها :

- الخوف على المرأة إذا سبيت ،فقد روى أن بنى تميم كانوا قد منعوا الإتاوة عن النعمان بن المنذر ،فحاربهم وأنتصر عليهم فأسر نساءهم ،ولما أرادوا افتداءهن رفضت بنت قيس ابن عاصم شيخ بنى تميم ، أن تفدى من الأسر وفضلت البقاء مع آسرها ،فقرر مع قبيلته أن يئد كل بنت تولد .
- وهناك من كان يئد من البنات من كانت بها علامة زرقاء (بها علامة قبيحة)، أو برشاء (بها نقط بيضاء) أو كسحاء "قعيدة" وذلك لتشاءم أهلها منها .
- كما كان البعض يئد بناته خشية الفقر والإملاق ،ومنهم نزلت الآيات الكريمة "**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم أن قتلهم كان خطأ كبيرا**" « سورة الإسراء آية ٣١» ،ويقول تعالى أيضا : "**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" .« سورة الأنعام آية ١٥١ »**

ومما لاشك فيه أن العامل الاقتصادى هو أقوى هذه العوامل جميعا وهذا مما دعت إليه البيئة المجدبة ،ومع ذلك فقد وجد أناس كانوا يسعون إلى منع الوأد وذلك بشراء الموؤدة ولكن لم يثبت أن كل القبائل كانت تئد بناتها .

ومهما يكن من أمر فبعض الرجال فى الجاهلية كانوا يهتمون بالمرأة ويعتنون بتنشئة بناتهم كمعن بن أوس مثلا .وأيضا من مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم أن كان

بعضهم يكنى بأسماء بناته ، والنابغة الذبياني كان يكنى بأبي أمامه . كما ملكت بعض النساء الأموال الطائلة وخير مثل على هذا خديجة زوجة النبي (ﷺ) وجليلة بنت المهلهل أم حاتم الطائي والتي كان لها غنم يرعاها أخوها زيد الخيل .

ثالثا: حالة العرب الاقتصادية :

١) التجارة :

عمل بعض سكان الجزيرة العربية بالتجارة وجمعوا ثروة كبيرة مستفيدين من موقع بلادهم بين الأمم التي اشتهرت بالتجارة منذ زمن بعيد فتاجروا بما كانت تنتجه أرضهم وحملوه إلى الأصقاع الشمالية .

وكانت التجارة أيضا الحرفة الرئيسية للعرب قبل الإسلام ، ودليل ذلك ، الدول التي نشأت في جنوب شبه الجزيرة العربية مثل الدولة المعينية والسبئية والحميرية الأولى والثانية وكذا التي نشأت في شمال الجزيرة وأواسطها مثل دولتي الأنباط والتدمرية وإمارتي الغساسنة والمناذرة ، اعتمدت في عمرانها على التجارة .

وبذلك قام أهل الحجاز بعد اليمنيين بنقل تجارة الجزيرة العربية إلى غيرها من الممالك ، وصاروا وحدهم المسيطرون على شئون التجارة .

وإلى جانب ذلك ، كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فعن طريقهم كانت لآلي الخليج الفارسي وحرير الصين وسيوف الهند وتوابلها والعاج والذهب الأثيوبي تصل إلى مصر والشام والعراق .

وبذلك كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجاتهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه مما نتيجة بلادهم.

وكانت اليمن تسيطر على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ، وعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضر موت وظفار ومنتجات الهند إلى شمالي الجزيرة ، وفيما بعد فقدت مركزها التجاري بسبب تغلغل الرومان وسيطرتهم على البحر الأحمر مما دفع

التجار إلى أن يستبدلوا بالطريق البحرى الطريق البرى الذى يبدأ من حضرموت ويسير بحذاء البحر إلى أن يصل إلى مكة ،وقد خلق ذلك من مكة سوقا كبيرة بينها وبين مصر والشام واليمن وعلى ذلك راجت تجارة الحجازيين .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة قريش "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" .

كانت مكة قبل محمد (ﷺ) مركزا من مراكز العالم العربى الدينية ،يقطنها تجار نشيطون أثرياء ،وترسل بانتظام قوافل إلى الخارج ،كما تستقبل قوافل أخرى عائدة .

وكانت أكبر الأسواق الموسمية فى مكة سوق عكاظ الذى كان يقام قرب أيام الحج فى طريق الطائف كما كان هناك سوق ذى المجنة .وهكذا أصبحت قوافل مكة أداة قوية لمضاعفة المبادلات التجارية .

كما أعطى تدهور الأوضاع فى العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها ، فقاموا بدور الوسيط فى نقل التجارة العربية الجنوبية إلى بلاد الشام وبالعكس .

على أن المكيين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممرا للقوافل فقط ،بل ساهموا بأنفسهم فى النشاط التجارى ،ومما يدل على ذلك كثرة التعابير المالية والتجارية التى وردت فى القرآن الكريم كالميزان والقسطاس والمثقال والذرة والحساب ،وبالإضافة إلى موقعها الجغرافى الهام ،ومركزها الدينى الأهم حيث يحج إليها سنويا عدد كبير من العرب يؤمونها من كل حدب وصوب ، بذلك أتاحوا للمكيين سوقا تجاريا للمبادلة والأستهلاك حتى توسعت تجارتهم بعيدا إلى الأقطار العربية الأخرى كالشام والحبشة والعراق واليمن .

وبذلك اشتهر المكيون بالتجارة وتسعة أعشار رزقهم من التجارة ، فمن لم يكن تاجرا لم يكن عندهم بشىء . ولم يبق نوع من التجارة إلا امتهنه أشراف مكة كتجارة الحبوب والأرز والزيت والخمر والأسلحة والخياطة والحياكة والسيوف والنبال.

ومن اهتماماتهم التجارية أيضا أن أصحاب التجارة كانوا يسيرون مع قوافلهم أو يرسلوا شريكا لهم أو أجيرا أو عبدا ،على أن القوافل كانت تنظم بصورة جماعية فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها وكان يمهد لسير القوافل عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تمر فيها حتى لا تنهب أو يعتدى عليها ،وكذلك تجرى اتصالات مع الدول التي تقصدها وتدعى هذه الاتفاقيات بالايلاف ،وقد ذكرها القرآن الكريم كما سبق أن ذكر في سورة خاصة ،ويروى أن أول من اخذ الايلاف هاشم.

كان بعضهم قد أنشأ له فروعا تجارية في البلاد التي كان يتاجر معها ،كما أن بعض أهل تلك البلاد أنشأوا هم في مكة فروعا تجارية مستقلة أو بالاشتراك مع المكيين.

وقد عمل أهل يثرب بالتجارة ،فخرجوا إلى أسواق الشام يتجرون بها ، وكان يهود يثرب يتاجرون أيضا ،ويأتون إلى أهل يثرب بكل ما يحتاجون إليه من تجارات "حاجات" ،كما كان ينزل المدينة قوم سموا الساقطة "الجواسيس" يقدمون الشعير والزيت والتين والقماش ،وما يكون في الشام . ولشراء ما يجدونه هناك .

٢) الزراعة :-

عرفت بلاد اليمن قديما بشهرتها في إنتاج العطور والطيب والمر والصمغ والكافور والزعفران . وكان لهذه المنتجات الزراعية اليمينية سوق رائجة في مصر القديمة ولقد أزدهرت الزراعة في اليمن بوجه خاص في عصر الدولة اليمنية عندما أهتم ملوكها باستصلاح الأراضي للزراعة وحققوا أعظم مشروعات للري في العصر القديم . وكان ذلك بإنشاء شبكة من السدود لحجز مياه الأمطار والسيول والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي ،وقد كثر عدد السدود في اليمن .

وأهم هذه السدود ، سد مأرب الذي أقيم في ٨٥٠ ق.م تقريبا وكان لهذا السد أعظم الأثر في مد الرقع الزراعية بمأرب وزيادة مواردها الزراعية وتحويل الأراضي السبئية إلى جنات يانعة ،جاء ذكرها في القرآن الكريم " **لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين و شمال**" «سورة سباء الآية ١٥»

ولم تكن الزراعة قاصرة على عرب الجنوب وإنما كانت من الحرف الهامة عند عرب الشمال فى بعض الحواضر الحجازية كالطائف ويثرب فى العصر الجاهلى وفى الحيرة فى عصر المناذرة وفى عدة قرى من جنوبى الشام فى عصر الغساسنة .ففى الحجاز ،فقد اختلف أهل الطائف عن أهل مكة ،وعن الأعراب من حيث ميلهم إلى الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الأشجار .وقد عرفت الطائف بكثرة زبيبها وأعنابها واشتهرت بأثمارها .وقد كان أهلها يعنون بزراعة الأشجار المثمرة ويسعون إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة لها ،فقد استوردوا أشجارا من بلاد الشام ومن أماكن أخرى غرسوها ،حتى صارت الطائف تمون مكة وغيرها بالأثمار والخضر .

كما اشتهرت يثرب بخصوبة أرضها وبزراعة الشعير والفواكه كالعنب والرمان والتمر .

وكانت الزراعة أيضا من الحرف الهامة عن أهل الحيرة أملتها عليهم طبيعة المكان ،فوقوع المدينة فى أرض السواد وعلى نهر كافر كان عاملا هاما لتوجيه السكان نحو الزراعة ،وكانت مزارع النخيل والبساتين والجنات تمتد فى نواحيها من النجف حتى الفرات ،كذلك أشتغل الغساسنة بالزراعة ،فاستغلوا مياه حوران التى تتدفق من أعلى الجبال فى الزراعة ،فعمرت القرى والضياع .

٣) **الصناعة** :-

كان العرب يحتقرون الاشتغال بالحرف كالزراعة والصناعة والتجارة ،وكانوا يستهينون بقريش لانكبابها على التجارة وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب ،ومع ذلك فقد اشتغل أهل المدن بهذه الحرف جميعا ،فقد اشتغل رجال مكة بالصناعات والحرف : فاشتغل قوم منهم بالبزازة (الثياب) واشتغل بعض منهم بالخياطة ،كما اشتغل البعض بالحدادة والجزارة ،والتجارة ومعالجة الخيل والإبل والضرب على العود والغناء

واختصت يثرب أيضا بصناعة التحف المعدنية كالحلى وأدوات الزينة والأسلحة والدروع ،وقد احترف اليهود هاتين الصناعتين .

كما اختلف أهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز فى ميلهم إلى الحرف اليدوية مثل دباغة الجلود والنجارة والحدادة ،وهى حرفة مستهجنة فى نظر العربى ،يأنف من الاشتغال بها ،ولكن أهل الطائف احترفوها وربحوا منها ،وشغلوا رقيقهم بها ،وقد استفادوا من خبرة الرقيق ،فتعلموا منهم ما لم يكن معروفا عندهم من أساليب الزراعة وأعمال الحرف ،فجددوا وأضافوا إلى خبرتهم خبرة جديدة .

وفى اليمن اقتصرت الصناعات على صناعة الجلود ،وصناعة المنسوجات ،وصناعة السيوف والرماح ،كما اختصت الحيرة فى عهد المناذرة بعدد من الصناعات مثل صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية ،وكذلك اشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سهام وسيوف ونصال للرماح ،وصناعة التحف المعدنية والحلى والتى كانت من أرقى الصناعات فيها ،فكان الصاغة الحيريون يتفنون ويبدعون فى صناعة أدوات الزينة من ذهب وفضة ويرصعونها بالجواهر واليواقيت ،وكذلك ذاعت شهرة الخزف الحيرى والجلود الحيرية والتحف المصنوعة من العاج .

- **حالة العرب السياسية قبل الإسلام** :-

لم تعرف بلاد العرب قبل الإسلام ،نظام الدولة السياسى ولم يكن بها حكومة مركزية تهيمن على كافة شئونها ،وإنما اكتظت بالوحدات السياسية المستقلة التى عرفت بالقبائل . كما لم تكن الجزيرة العربية قبل الإسلام ،وحدة متماسكة . أى لم تشهد دولة عربية موحدة ،وإنما نشأ بأطرافها بعض الدويلات مثل ممالك اليمن فى الجنوب (معين ، سبأ ، حمير) ،ومدن الحجاز فى وسط العرب ،لكل منها نظام سياسى من أشهرها (مكة ،يثرب ، الطائف) ،كما قامت فى الشمال الشرقى لجزيرة العرب مملكة الحيرة ،وفى الشمال الغربى ،مملكة الغساسنة .

أولا- مدن الحجاز :-

(أ) مكة نشأتها وتطورها :

• **موقعها** : تقع مكة فى منتصف الطريق بين اليمن وبلاد الشام ،وتقوم فى وادى غير ذى زرع ،تحيط بها الجبال من كل جانب إلا من ثلاث منافذ ،يتصل عن طريقها بكل من اليمن وساحل البحر الأحمر وفلسطين .

• **اشتقاق أسمها** : ويختلف المؤرخون فى اشتقاق كلمة "مكة" فذهب فريق إلى أنها سميت كذلك ،لأنها تمك الجبارين ،أى تذهب نخوتهم وذهب فريق ثان إلى أنها تقع بين جبلين مرتفعين عليها ،وهى فى هبطة بمنزلة المكوك ،وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من "أمتك" من قولهم : أمتك الفصيل ضرع أمه ،إذا مصه مصا شديدا ،ولما كانت مكة مكانا مقدسا للعبادة فقد أمتكت الناس أى جذبتهم من جميع الأطراف .

ويطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء ،منها "بكة" لقوله تعالى: "**إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين**" « **سورة آلا عمران آية(٩٦)** ويحاول الأخباريون أن يفرقوا بين بكة ومكة "فبكة" هى موضع البيت ،وما حول البيت مكة .

ومنه أيضا "أم القرى" لقوله تعالى : "**ولتنذر أو القرى ومن حولها**" « **سورة الأنعام آية (٩٢)** ،ولعل هذه التسمية إنما تشير إلى أن مكة إنما هى أعظم مدن الحجاز ،لأن بها البيت لحرام ،والبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ،ومقام إبراهيم عليه السلام ،وأم القرى ،ومخرج النبوة ،ومعدن الرسالة ،ومتبوأ إبراهيم ،ومنشأ إسماعيل ومولد محمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين .

ومن أسماء مكة كذلك "البلد" لقوله تعالى: "**لا أقسم بهذا البلد ،وأنت حل بهذا البلد**" ومنها "البلد الأمين" لقوله تعالى : "**والتين والزيتون وطور سنينَ وهذا البلد الأمين**" ، والبيت العتيق فى قوله تعالى : " **وليطوفوا بالبيت العتيق** " ،وسمى الله تعالى الكعبة البيت الحرام ،فى قوله تعالى : "**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس**" .

وكان العمالقة أول من سكن مكة ،والمعروف أن سيدنا إبراهيم لما قدم مكة مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل ،كان رحل إليها قبيلة يمينية اسمها "جرهم" وصاهرهم إسماعيل ،وبلغتها تكلم ، ثم آل أمر مكة فيما بعد إلى قبيلة يمنية أخرى هاجرت إليها أسمها "خزاعة" وقد انحاز إليها بنو إسماعيل ،ومن اشهر زعمائها عمرو بن لحى الخزاعى ،أول من نصب الأصنام حول الكعبة وأحل الأوثان محل الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

ظلت خزاعة تلى البيت الحرام بمكة نحو ثلاثمائة سنة ،ثم قدم مكة قصى بن كلاب بن مرة ،وهو من قريش وتزوج ابنة زعيم خزاعة الذى كان يلى شئون البيت الحرام بمكة وهو حليل بن حبشية الخزاعى ، فلما مات حليلا تطلع قصى إلى أن يلى أمر مكة والبيت الحرام ،وقد تمكن بمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكة من أيدى خزاعة ،فولى قصى البيت وأمر مكة والحكم ،وجمع قبائل قريش من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة ،وأصبح منذ ذلك الحين ملكا على قومه وأهل بيته ،وقسم قصى مكة أرباعا "أحياء" ووزعها بين بطون قريش ،وأجتمع له ما لم يجتمع لغيره من المناصب فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة ،فحاز شرف قريش كله .

*** الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام :~**

كان قصى شديد العناية بعمارة البيت الحرام ،فقد أعاد بناؤه ،وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ،ثم سقفها بخشب الدوم ،وجريد النخل .

ومن أهم أعمال قصى إنشاؤه "دار الندوة" وكان القريشيون لا يعقدون أمرا ولا يفعلون فعلا إلا فى داره ،مما دعاه إلى إنشاء "دار الندوة" ،التى كانت ملاصقة للمسجد الحرام ،ولعل الغرض من أقامتها قرب الكعبة هو أسباغ شئ من الحرمة عليها ،وفيها كانت قريش تقضى شئونها العامة ، من حرب أو تجارة ،أو مشورة ،كما كانت تجرى فيها عقود الزواج وكثير من المعاملات فهى دار مشورة ودار حكومة فى آن واحد .

ولم تكن دار الندوة من الأبنية العامة ،بل هى ملك خاص لبنى عبد الدار ،توارثوها حتى صارت لعكرمة بن عامر بن هشام الذى باعها لمعاوية بن أبى سفيان بمائة ألف دينار .

ومن أهم أعمال قصي أيضا " وظيفة الحجابة" سدانة الكعبة " وهى خدمة البيت الحرام ،فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ،أى أنه كان يأذن للناس بالدخول فى الكعبة ،وقد أخذها قصى من خزاعة ،ثم صارت من بعده لأبنه عبد الدار ثم لأولاد عبد الدار من بعده ،وقد أرجعها الرسول(ﷺ) إلى بنى عبد الدار فى ولده شيبة ،بعد فتح مكة تطبيقا لحكم الآية التى نزلت فى ذلك "أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" .

وأيضا <u>سقاية الحاج ورفادته</u> : والسقاية هى : التكفل بسقاية الحجاج الماء العذب الذى كان عزيزا بمكة ،عن طريق أحواض من أدم "الجلد" كانت توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفات ،على اعتبار أنهم ضيوف الله وزوار بيته .وقيل أن قصيا قد حفر بئرا سماها "العجول" .

<u>أما الرفادة</u> :هى خرج تنفقه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب الذى كان يصنع طعاما للحجاج ،على طريق الضيافة يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من الذين يحضرون الموسم ،هذا المبلغ الواجب أنفاقه على زوار البيت كان يفرضه قصي على قريش جميعا . أما عن قيمة هذه الضريبة فكانت تصاعدية تبعا لثروة الدافعين حتى أنهم قالوا إنها وصلت إلى مائة دينار .

كانت وظيفة الرفادة لبنى عبد الدار ،ثم أخذها منهم هاشم فكان : "يطعم الناس فى كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ،يشترى بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحجاج فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس فى سنة جدب شديد ،فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ،فأشترى بما اجتمع عنده من ماله الخاص دقيقا وكعكا وقدم به مكة فى الموسم .

- أما اللـــواء :- فكان العلم الذى يحمل فى المعارك ،وتدور حوله المعركـــة ،وكـــان يسند إلى بنى عبد الدار .
- القيـــادة :- هى قيادة أو أمارة الجيش عند الحرب ،يتولاها قصى أو من ينيبه عنه .

كان من أشهر ابناء قصى : عبد الدار وعبد مناف ،ورغم أن عبد الدار كـــان أكـــبر أخوته ،إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة ،وأرفع شأنا ،وأعظم مهابة ،ومن ثـــم فقـــد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة ،فأسند إليه كثيرا من الوظـــائف ليقاوم شخصية أخيه القوية ،وتمضى الأيام ويرث الأبناء الآباء ،ويقوم النزاع بينهم ،حتـــى ينتهى الأمر بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة ،وأن تكون الحجابة (خدمـــة بيـــت الله الحرام) ،واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار .

*** هاشـم وازدهار الحياة بمـكة :-**

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف ،الذى أتصل بره وكرمه بـــأهل مكة ،فيروى المؤرخون أنه كان غياث قومه فى عام المجاعة كما سبق ذكره ،فقد رحـــل إلى الشام حيث أشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة ،فبذل طعامه لكل نازل بـــالبلد المقدس أو وارد عليه ،وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعـــوة الجيـــاع إلـــى قصاعه بدلا من أسمه الأصلى عمرو ،ومما يروى عنه كذلك أنه أول من بين الرحلتيـــن لقريش ،رحلة الشتاء (إلى اليمن) ،والصيف (إلى الشام) ،كما أنه كان يحمى تلك الرحـــلات وينظمها ،فنسب إليه أنه أول من سنها .

كذلك عقد بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية ،ومع أمير غسان معـــاهدة حســـن جوار ومودة ،وحصل من الإمبراطور الرومانى على الأذن لقريش بأن تجوب الشام فـــى أمن وطمأنينة ،وعقد معاهدة تجارية مع النجاشى ،كما عقد ولداه نوفل والمطلب حلفا مـــع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن . وكذلك ازدادت مكة منعه وجـــاه كمـــا ازدادت يسارا ،وبلغ أهلها من المهارة فى التجارة أن اصبحوا لايدانيهم فيها أحد من أهـــل عصرهم ،فكانت القوافل تجئ إليها من كل صوب وتصدر عنـــها فـــى رحلتـــى الشـــتاء

والصيف ،وكانت الأسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجارة فيها . ويتضح من ذلك أن تجارة مكة قد وازدهرت وامتدت إلى مختلف الأطراف ،أن إلى الشام والحبشة واليمن والعراق .

وظل هاشم تتقدم به السن وهو فى مكانته على رياسة مكة لا يفكر احد فى منافسته ،حتى نافسه عليها ابن أخيه أمية بن عبد شمس ،لكنه لم يقدر وغلب على أمره ،وبقى الأمر لهاشم ،وترك أمية مكة إلى الشام عشر سنوات كاملة .

● <u>عبد المطلب</u> :

تزوج هاشم من امرأة يثربية من بنى النجار (سلمى بنت عمرو الخزرجية) ،فولدت له شيبة الذى ولد وترعرع فى المدينة عند أمه ثم أعاده عمه عبد المطلب إلى مكة . ومات هاشم فى غزة بأرض الشام ،أثناء إحدى رحلات الصيف فخلفه أخوه المطلب فى مناصبه ،وكان المطلب أصغر من أخيه عبد شمس ولكنه كان ذا شرف فى القوم وفضل ،وكانت قريش تسميه "الفيض" لسماحته وفضله .

ويرجع سبب تسمية عبد المطلب بأسمه ،ذلك عندما قدم به المطلب عمه من يثرب إلى مكة ،فظنته قريش عبدا له جاء به فتصايحت :عبد المطلب ،قال المطلب :ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم قدمت به من يثرب ،إلا أن هذا اللقب غلب عليه ،فدعى به ونسى الناس أسم شيبه .

وورث عبد المطلب زعامة أبيه هاشم ،فأصبح سيد قريش ،وتولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ،فأقامها الناس ،وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ،وأحبه قومه وعظم خطره فيهم .

وفى الواقع ،فإن عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب وإنما كان عظيما كذلك فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ،ومن ثم فإن المؤرخين يرون أنه قد ذهب إلى اليمن ،بعد أن نجح بمساعدة الفرس فى طرد الأحباش من اليمن . مما يدل على أن الرجل كان ذا مكانه عند ملوك العرب ،تعطيه الحق فى الاتصال بهم ،ثم تهنئتهم بعروشهم . مما

يدل في الوقت نفسه على مكانته عند قريش ،حتى أنه كان رئيسا لوفدها في هذه المهمات العظيمة ،والتي ربما كان من نتائجها ان يأخذ ايلافا (الأمن) لقومه من ملوك اليمن . ومن ثم فقد أصبحت قريش تنظم عيرا إلى اليمن في كل عام .

• **حفر زمزم :**

على أن عبد المطلب قد لقى الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج عندما تولى أمر السقاية والرفادة ،وكذلك بسبب دفن زمزم منذ أيام جرهم ،وزاد الأمر صعوبة أن مكة آنذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الأمطار وجفت مياه الآبار – أو كانت – في وقت كان موسم الحج قد بدت طلائعه ،وهنا رأى عبد المطلب أثناء نومه هاتف يهتف به ويحضه على أن يحفر البئر التي تفجرت تحت أقدام جده إسماعيل وألح الهاتف يدله على مكان وجودها ،وألح هو باحثا عن زمزم حتى أهتدى إليها بين الوثنيين أساف ونائله ،وجعل يحفر مستعينا بابنه الحارث حتى نبع الماء ،ونجح عبد المطلب في حفر زمزم ،غير أن قريشا سرعان ما طالبت بحقها في زمزم ،على أساس أنها بئر أبيهم إسماعيل ،ولكن انتهت الأمور إلى عبد المطلب ،الذي أقام في سقاية الحجيج بعد أن يسرتها زمزم له ،ويعتبر توفيق عبد المطلب في العثور على بئر زمزم ،من العوامل التي رفعت قدره ونشرت ذكره في كل أنحاء شبه جزيرة العرب .

(ب) يثرب :-

حبت الطبيعة المدينة المقدسة ،بمزايا لم تعرفها مكة المكرمة ،من طيب الهواء وجودة التربة ،كما أنها لم تكن على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب ،بل كانت واحة ذات تربة صالحة لزراعة النخيل ،وهو كثير فيها ،ومن ثم فقد أصبحت المدينة واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب .

والمدينة المنورة لم تكن تعرف بهذا الاسم قبل نصرتها للإسلام وهجرة الرسول (ﷺ) ،إليها وإنما كانت تسمى "يثرب" وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى **"وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا " « سورة الأحزاب آية ١٣»** .

وقد اشتهرت بأكثر من أسم عند ظهور الإسلام ثم غلب عليها أسم "المدينة"

ويرى أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق ،ثم اليهود ،ثم العرب من أوس وخزرج" ،وان العماليق إنما كانوا أول من سكن يثرب وزرعوا الزرع واتخذوا بها النخيل ،وعمروا بها الدور والآطام ،واتخذوا الضباع ،وأنهم يرجعون في نسبهم إلى عملاق ابن ارمخشد ابن سام بن نوح عليه السلام .

ثم ما لبث أن تغلب عليهم بعض القبائل اليهودية وأستوطنوا بها ،ويروى الإخباريين ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين ،عن بداية أستيطان اليهود بيثرب ،أن العماليق كانوا قد تفرقوا في البلاد ،وكانوا أهل غزو وبغي شديد ... ملكوا على أنفسهم رجلا يقال له "الأرقم" وكان سبب نزول اليهود المدينة ،أن موسى عليه السلام ،بعد أن أظهره الله على فرعون وطى الشام وأهلك من بها بعث جيشا من بني إسرائيل إلى العماليق وأمرهم أن يقتلوهم جميعا إذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحدا ، فقدم هذا الجيش الحجاز وأظهرهم الله على العماليق . ولم تظهر الهجرة اليهودية بشكل واضح إلا في القرنين الأول و الثاني الميلاديين ،وذلك عل أثر الحرب التي شنها الرومان ضد اليهود ببلاد الشام والتي انتهت بطردهم منها وتشتيتهم في أنحاء متفرقة ،فهاجر منهم بعض القبائل مثل : بنو قينقاع وبنو النضير ،وبنو قريظة إلى الشمال جزيرة العرب وأقاموا بيثرب .

وظل هؤلاء مقيمين بها إلى أن نزح إليهم من بلاد اليمن قبيلتا الأوس والخزرج العربيتين ،على أثر حادث سيل العرم ،وهناك في يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والأغنام والنخيل في أيدى اليهود ،فضلا عن العدد والقوة فأقام الأوس والخزرج مع

اليهود ،وعقدوا معهم حلفاً يأمن به بعضهم إلى بعض ،ويمتنعون به ممن سواهم ومـــا أن يمضى حيناً من الدهـــر ،حتى صار للأوس والخزرج مال وعدد ،حتـــى أن يـــهود بنـــى قريظة والنضير أحسوا أنهم لو تركوهم على حالهم هذا فقد يشكلون خطـــراً ،قـــد يـــهدد مصالحهم فى المدينة ،ومن ثم فقد "تنمروا حتى قطعوا الحلف الذى بينهم" رغبة منهم فـــى الانفراد بخيرات هذا البلد ،واستغلوا كثرتهم وقوتهم فى الأضرار بالعرب والإساءة إليـــهم ، مما حمل الأوس والخزرج على الاستعانة بأقربائهم الغساسنة على اليهود .

وكان لبنى غسان وقتذاك مملكة قوية فى جنوبى بلاد الشام ،فأمدوا لهم يد العـــون ضد اليهود ،مما مكن العرب فى يثرب وجعل لهم السيادة فيها .

على أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأوس والخزرج ،وكان النصر فى أغلـــب الأحيان محالفاً الخزرج ،حتى اضطرت الأوس أن تسعى لمحالفة قريش لتكون عونا لـــها على الخزرج ،لكن قريشا أبت الدخول فى هذا الصراع ،حرصاً منـــها علـــى مصالحـــها التجارية ،وبخاصة وأن يثرب تقع على طريق قوافلها مع بلاد الشام ،وقد استـــغل اليـــهود هذه الفرصة وأعانوا الأوس فى حربها ضد الخزرج تلك الحرب المشهورة فـــى التـــاريخ بيوم "بعاث" وهو حصن بنى قريظة الذى هزمت فيه الخزرج هزيمة كبيرة .

وحاول اليهود إبادة جميع رجال الخزرج ،لولا أن فطن بعض عقلاء الأوس إلـــى ذلك وبادروا بإيقاف القتال فصاح واحد منهم "يا معشـــر الأوس : " أحسنـــوا ولا تـــهلكوا إخوانكم ،فجوارهم خير من جوار الثعالب" وكان يوم بعاث أخر أيام الحروب المشـــهورة بين الأوس والخزرج ،ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة ،واجتمعوا على نصر الإسلام وأهله. بعد أن آخى بينهم الرسول الله (ﷺ).

(ج) <u>الطائـــف</u> :-

اسمها القديم "وج" نسبة إلى وج بن عبد الحى أحد العمالقة الذين سكنوها ،وتقـــع على بعد عشر فرسخاً شرقى مكة على مرتفع من الأرض ،لذلك أصبحت مصيفـــاً لأهـــل

مكة ،وتمتاز بخصوبة تربتها حتى قيل أنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز ،كما اشتهرت ببساتينها وحدائقها الرائعة ،التى كان يزرع بها كثير من الفواكه مما يشابه فواكه الشام ،وهى إلى جانب ذلك طيبة الهواء وبها مياه جارية .

ولما نزلت بها قبيلة "ثقيف" فيما بعد ،وأصبحت فى سعة من العيش ،تطلعت أنظار من حولهم من العرب إليهم وطمعوا فى ممتلكاتهم ،لذلك رأت ثقيف أن تبنى سورا يكون لهم حصنا وأطلقوا عليه أسم "الطائف لأحاطته بهم" وقد عرفت هذه المدينة منذ ذلك باسم الطائف" .

وقد زاد موقع الطائف من أهميتها كمركز تجارى فكان يمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها ،ومن العراق إلى اليمن ،كما ربطها بمكة علاقات تجارية فضلا عن أن الأثرياء من قريش كانوا يمتلكون بساتين بالطائف ويقرضون أهاليها ما يحتاجون إليه من مال .

وقبيلة ثقيف التى كانت تعيش بالطائف عند ظهور الإسلام انقسمت إلى طبقتين قبيل ظهوره ،عرفت الأولى ببنى مالك والثانية بالأحلاف . وقد قامت بينهما حروب أهمها "يوم الطائف" الذى انتصرت فيه الأحلاف . مما جعل بنى مالك على السعى لدى القبائل لمعاونتهم ،فخشى الأحلاف وذهب زعيمهم إلى الأوس بيثرب يطلب مؤازرتهم ،لكن الأوس نصحوه بمهادنة بنى مالك وعلى الرغم من ذلك فقد زودوه بالسلاح والمؤن ،ولم تكن بعد ذلك بينهم حرب تذكر .

ثانيا - الممالك العربية :

- **<u>دول اليمن</u> :**

كانت بلاد اليمن فى الجاهلية أكثر بلاد العرب تحضرا ،وكانت كثيرة الحصون والمسالح والقصور ،وكانت القصور تعرف بالمحافد ،ومحافد اليمن كثيرة ،منها غمدان ،وناعظ ،وصرواح ،وسلحين بمأرب ،وظفار وبينون ،وبراقش ومعين وروثان وعمران . ويعرف صاحب المحفد والقصر بذى ،وجمعها أذواء ،فيقال :ذو غمدان ،وذو صرواح

،وذو معين ،أي صاحب معين ،وإذا تجمع عدد من المحافد والقصور في مقاطعة كبيرة سمى مخلاف ،ويتولى شئون المخلاف أمير يقال له "قيل" جمعها أقيال. واليمن بلد يتميز بمخاليفه ومن أشهرها : مخلاف صنعاء ،ومخلاف شاكر ،ومخلاف نجران ،ومخلاف همدان ،ومخلاف خولان ... ، وقد أحصى اليعقوبي عدد مخاليف اليمن فوجد أنها "٨٤" مخلافا .

وإذا تمكن أحد الأقيال من الاستحواذ على عدد من المخاليف المجاورة . فإنه يكون بذلك قد أقام دولة ويصبح ملكا ثم يتولى الحكم في أبنائه ،ومن هذا التدرج السياسي قامت عدة دول باليمن أهمها معين ،وسبأ ،وحمير .

١) دولة معين (١٣٠٠-٦٥٠ ق.م):-

تعتبر الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في جنوب الجزيرة ،إذ تذكر أرجح الروايات أن نشأتها تمت في ١٣٠٠ ق.م تقريبا في منطقة الجوف بين نجران وحضرموت ،وهي أرض سهلية ،وقد كانت عاصمة تلك الدولة "القرن أو قرن" أو "قرنو" (مكان معين الحالية) .

أما بالنسبة لنظام الحكم والإدارة بالدولة المعينية فقد ورد في النقوش المعينية أن الحكم في هذه الدولة كان ملكيا وراثيا ،ينتقل من الأب إلى الأبن وقد يشترك الأثنان معا . كذلك يستدل من النقوش المعينية أيضا أن هذه الدولة كانت على جانب عظيم من القوة والثروة ،وأن نفوذ المعينيين امتد بفضل نشاطهم التجاري إلى شمال جزيرة العرب .

على أن دولة معين بدأت في الانحلال حين ضعف ملوكها ،وقد ازداد نفوذ جيرانهم السبئيين الذين تمكنوا في النهاية من إخضاع معين لسلطانهم .

٢) دولة سبأ (٨٠٠ ق.م - ١١٥ ق.م):-

السبئيون في الأصل قبائل من البدو وفدت من الشمال وسكنت اليمن إلى جوار المعينيين ،واستغل السبئيون ضعف المعينيين فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب

دولة معين ،فلما قوى أمر السبئيين قضوا على الدولة المعينيـة ،وأقـاموا دولتـهم علـى أنقاضها وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها ،وخلفوهم فى الاشتغال بنقل التجـارة بيـن والهند والحبشة ومصر والشام والعراق ،حتى أصبحوا فى القرون الأولـى قبـل الميـلاد أعظم وسطاء التجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر .

استطاعت دولة سبأ أن تنمو وتزدهر لعظم ثراء شعبها نتيجة لاحترافهم الزراعـة ويتضح ذلك من قول الله تعالى فى سورة سبأ "لقد كان لسبأ فى مسكنهم أية جنتـان عـن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . كما اتخـذوا فـى بادئ أمرهم قلعة صرواح حاضرة لهم .

وقد مرت دول سبأ بمرحلتين ،لم يكن لقب حكامها ثابتا مستقرا بل تعرض للتطور .

- **المرحلة الأولى (٨٠٠-٦٥٠ ق.م):**

وفيه كان حكام سبأ يحملون لقب "مكرب" ذلك اللقب تغلب عليه الصبغـة الدينيـة ،وتقابله فى العربية (مقرب) أى مقرب من الآلهة ،وكان يقوم كذلك بدور الوسـاطة بيـن الآلهة والناس ،وكانت عاصمة الدولة السبئية فى تلك المرحلة مدينة "صرواح" وهى علـى مسيرة يوم من مـأرب .

- **المرحلة الثانيـة (التى تمتد من ٦٥٠ - ١١٥ ق.م) :**

وهى المرحلة التى تجرد فيها الحكام من صفتهم الدينية ، وأصبح يلقبون "ملك سـبأ" ،وكانت عـاصمة الدولة فـى تلك المرحلة "مأرب" شمال صنعاء حيث أستقر الملوك فيها متخذين القصر الذى صار رمز "سبأ" وهو قصر "سلحين" .

تمتعت دولة سبأ بثروة عظيمة ،بسبب عنايتها بالزراعة والتجارة . ومـن دلائـل عنايتها بالزراعة ما أقامته من منشآت وخاصة الخزانات التى منها سد مأرب ،الذى أقيـم بقصد حجز مياه الأمطار والسيول والإفادة منها فى رى مساحات كبيرة مـن الأراضـى ريا منظما .

بدأت دولة سبأ فى الضعف والانهيار منذ القرن الثانى قبل الميلاد بسبب المنافسة التجارية من جانب البطالمة فى مصر .ولحتكارهم للتجارة الشرقية ،ويضاف إلى ذلك منافسة الهمدانيون ورؤساء القبائل للدولة إذ كان ملوك سبأ يهدفون إلى القضاء على استقلال الإمارات ودمجها فى المملكة ولكن عمل رؤساء القبائل على مقاومة هذه السياسة خوفا على مصالحهم الإقطاعية مما أدى إلى تعدد الثروات والإضرار بالحياة الاقتصادية بالبلاد ومكن الدول الأجنبية من التدخل فى شئونها وانتقال السيطرة على التجارة البحرية إلى اليونان والرومان .

على أن زوال هذه الدولة يرجع بصفة أساسية إلى تصدع سد مأرب بسبب أهمال ترميمه من جانب الملوك الذين حكموها فى الفترة الأخيرة من عهدها وحين غمرت المياه المزارع والبلاد المحيطة بهذا السد اضطر كثير من الناس إلى أن يهاجروا من اليمن ،فهاجرت خزاعة إلى مكة ،والأوس والخزرج إلى يثرب وبنو لخم إلى أرض الحيرة وبنو غسان إلى جنوبى بلاد الشام .

٣) دولة حمير (١١٥ ق.م - ٥٢٥م) :

اتخذ الحميريون من "ريدان" مقرا لحكمهم ،وعرفت هذه المدينة فيما بعد باسم "غفار" وهى تقع جنوبى بلاد اليمن على مقربة من المحيط الهندى .وحين تغلب الحميريون على السبئيين حوالى ١١٥ ق.م ،اتخذ كبيرهم لقب "ملك سبأ وذو ريدان" .

ولم تلبث دولة حمير أن وقعت فى دائرة التنافس بين الدولتين الفارسية والرومانية ،فقد حاول الروم بسط سيادتهم عن طريق نشر المسيحية فى بعض البلاد ومنها الحبشة ،كما عملوا على إدخال هذه الديانة فى بلاد اليمن ،وبخاصة فى نجران ،التى شهدت أكبر تجمع مسيحى ببلاد اليمن قبل الإسلام ،وكان الروم يهدفون من وراء ذلك أن يكون لهم نفوذ سياسى واقتصادى فى تلك البلاد ،وأخذوا بالفعل يسيرون تجارتهم بين الخليج العربى والبحر الأحمر مارين ببلاد اليمن "الأمر الذى أغضب اليمنيين ودفعهم إلى مضايقة الروم بالوقوف فى وجه تجارتهم .

أما الفرس فقد لجئوا إلى تشجيع انتشار اليهودية ببلاد اليمن نكاية في الدولة الرومانية ،وقد اشتد ساعد اليهودية فى هذه البلاد حيث أن ملوك الدولة الحميرية كان يهوديا وهو ذو نواس. وقد اشتد الصراع بين أتباع اليهودية والمسيحية في بلاد اليمن وبدأ هذا الصراع باضطهاد ذو نواس للنصارى واتهامهم بالتواطؤ مع الأحباش ،فقام بهجوم عنيف بصفة خاصة وخير أهلها من المسيحيين بين أن يتركوا دينهم أو يحرقهم ،فلما تمسكوا بنصرانيتهم قضى عليهم فى الخنادق التى أعدت لإحراقهم . وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم فى سورة البروج إذ يقول تعالى : " **قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود" الآية (٤ – ٧).**

ولما بلغ إمبراطور الروم ما حل بأهل نجران كتب إلى نجاشى الحبشة يحرضه على غزو بلاد اليمن لنصرة المسيحيين ،فأجاب طلبه وسير جيشا بقيادة أرباط لفتح بلاد اليمن ،فتغلب أرباط على ذى نواس وقبض على زمام الأمور وتمكن من فتح بلاد اليمن ،وظل يحكم هذه البلاد إلى أن أخذ عليه قواده انحيازه إلى فريق منهم فى توزيع العطاء والغنائم ،فاجتمعوا بقيادة ابرهة الذى كان نائبا لقائد الجيش الحبشي الذي فتح اليمن ،وقضوا عليه وبذلك انفرد أبرهة بالقيادة وحده في بلاد حمير بدلا من أرباط .

وقد بذل أبرهة جهده لتثبيت دعائم الحكم الحبشى فى بلاد اليمن كما سعى إلى تحويل النشاط التجارى إليها بدلا من مكة ولتحقيق ذلك إلى بناء كنيسة كبيرة فى صنعاء ،وعنى كثيرا بتزيينها وتجميلها على أمل أن تجتذب العرب وتصرفهم عن الكعبة ولما لم يتحقق له ذلك زحف إلى الحجاز على رأس جيش يضم بعض الفيله وأراد أن يهدم الكعبة ،لكنه منى بالفشل الذريع ،وعاد أبرهة مقهورا إلى اليمن حيث توفى بعد عودته بقليل . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الفشل ،فقال تعالى : " **ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل " .**

كان فشل حملة أبرهة على الحجاز من العوامل التى أضعفت مركز الأحباش وشجعت اليمنيين على مقاومتهم والتخلص من حكمهم ،وكان ذلك على يد سيف بن ذى

يزن الحميرى ،فقد توجه إلى كسرى الفرسى يطلب منه المساعدة ،فأمده بقوة عاونته على طرد الأحباش من اليمن سنة ٥٧٥م ،بقيادة وهرز ،على أن الفرس أخذوا يتدخلون بعد ذلك فى حكم اليمن ،فعينوا حاكما من قبلهم يجمع الضرائب لحسابهم ،ثم واليا فارسيا يشارك فى الحكم بجانب الملك الحميرى ولأخيرا تملك الفرس بلاد اليمن لكن سيطرتهم على البلاد لم تدم طويلا ،فقد أستقلت عنهم حين أعتنق باذان آخر ولاة الفرس الإسلام ودخل فى طاعة الرسول (ﷺ) .

ثالثا الممالك التى قامت فى أطراف جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام :-

١) مملكة الغساسنة :

يرجع أصل الغساسنة إلى قبيلة الأزد اليمنية وقد هاجروا من اليمن على اثر أنهيار سد مأرب إلى جنوبى بلاد الشام وأقاموا هناك حول بئر أسمه غسان فنسبوا إليه . وكانت الزعامة فى هذه المنطقة لقبيلة عربية أخرى ،تعرف بالضجاعمة ،لكن الغساسنة تمكنوا بمضى الوقت من التغلب عليها والإنفراد بالنفوذ .

كانت بلاد الشام وقتذاك خاضعة لحكم الدولة البيزنطية ،وقد رأى أباطرتها أن يستفيدوا من الغساسنة مثلما يستفيد الفرس من اللخميين فى الحيرة فاتفقوا على منح الغساسنة مبلغا من المال سنويا نظير مساعدتهم ضد الفرس واللخميين من جهة ،والتصدى للبدو الذين يهاجمون أملاك البيزنطيين فى الشام من جهة أخرى ،وقد بسط الأمبراطور جستنيان سلطة الحارث بن جبلة الغسانى على جميع القبائل العربية فى بلاد الشام .

قضى الحارث بن جبلة أكثر أيام ملكة يقاتل فى سبيل بيزنطة ويعمل على خدمة مصالحها . ومن أجل ذلك اشتبك مع المنذر الثالث أمير الحيرة فى أكثر من معركة تبادلا فيها الهزيمة والنصر ،وقد انتهت الحرب التى طال أمدها بين هذين الأميريين بوقعة أدت إلى دخول قنسرين (قرب حمص) فى حوزة الحارث بن جبلة ،وتعرف هذه الواقعة بيوم عين أباغ .

توفى الحارث سنة ٥٦٩م ،وبدأت دولة الغساسنة بعد وفاته فى الضعف والإنـهيار فعلى الرغم من أن المنذر بن الحارث قد غزا الحيرة وأنتصر على أهلها سـنة ٥٨٠م. إلا أن الروم تنكروا له واتهموه بالخيانة وعدم الولاء ودبروا مؤامرة للتخلص منـــه ،فـألقوا القبض عليه واقتادوه أسيرا إلى القسطنطينية .

ترتب على موقف البيزنطيين نحو خلفاء الحارث الغسانى أن بدأت الفوضى تـدب فى أرجاء دولة الغساسنة ،وتفرقت كلمة القبائل العربية ببلاد الشام ،وأخـذت كـل منـها تختار رئيسا لها ،ثم أزداد ضعف الغساسنة فى أعقاب تعرضهم لهجوم الفرس على بـلاد الشام سنة ٦١٢م على أن البيزنطيين ما لبثوا أن استردوا بلاد الشام من الفـرس ،وظـهر من الغسانيين جبلة بن الأيهم ،وهو آخر أمراء البيت الغسانى وقد أشترك مع الـروم فـى واقعة اليرموك التى كان النصر فيها حليف المسلمين من العرب .

٢) الحيــرة :-

كان العرب فى العصور القديمة يفدون إلى تخوم جزيرتـهم الشـرقية ،حتـى إذا وصلوا إلى وادى الفرات أقاموا فى ربوعه ،وفى أوائل القرن الثالث الميلادى ،بدأت تفـد قبائل من تنوخ ترجع إلى أصل يمنى . وقد وافق قدومهم قيام الدولة الساسانية فى فـارس ،وكان التنوخيون يعيشون فى بداية أمرهم فى خيام ،ومن ثم أصبح مخيمهم قاعدة تعـرف بالحيرة ،وهى تقع إلى الغرب من نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال جنوب الكوفة ،علـى موضع يقال له النجف .والحيرة معناها المخيم أو المعسكر .

أما عن سكان الحيرة الأصليين ،فكانوا من البدو الرحل مـن العشـائر والقبـائل والبطون العربية ، الذين يستقلون بإبلهم ومواشيهم من مكان لآخر بحثا عن الكلاء ،فكـانوا يسكنون المظال وخيم الشعر ،واستقروا غرب الفرات فيما بن الحيرة والأنبار وما فوقـها .كما سكنها أيضا القبائل التغلبية والبكرية .

وكان سكانها ثلاث طوائف :

- **تنوخ** فهى القبائل التى سكنت بيوت الشعر غرب الفرات فيما بين الحيرة والأنبار وأشتغل بعضهم بالزراعة والبعض الأخر بالرعى .
- **والعباد** فهم نصارى العرب الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بها ،وهم قبائل شتى تجمعهم رابطة الدين .
- **وأما الأحلاف** فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ولم يكونوا فى الأصل لا من تنوخ ولا من العباد .

وإلى جانب هذه الطوائف الثلاث ،كان يقيم فى الحيرة جماعة من الأنباط العراقيين ،وهم بقايا أهل العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين وكانوا يشتغلون بالزراعة ،كذلك كان يقيم بها جماعة من اليهود ،وطائفة من الفرس سادة البلاد الحقيقيين .

ولما دأب عرب الحيرة على غزو أطراف أملاك فارس من حين لآخر وعجز الفرس عن طردهم ،استقر رأيهم على أن يعملوا على ترضيتهم وينتفعوا بهم فى أغراضهم السياسية والحربية ضد الدولة الرومانية الشرقية من ناحية ،وضد البدو من عرب شبه الجزيرة العربية الذين يغيرون على أملاك الفرس من ناحية أخرى ،فأسسوا إمارة الحيرة سنة ٢٤٠م وعينوا عربيا من بنى لخم أميرا عليها . وظلت أسرته تتقلد زمام الحكم بالحيرة حتى دخلت فى حوزة الدولة العربية الإسلامية أثناء خلافة أبى بكر الصديق.

كانت العلاقة بين دولة فارس وإمارة الحيرة قائمة على أساس أن يقدم عرب الحيرة الطاعة الكبرى فارس وهو يولى عليهم أميرا من بينهم ،وعليهم أن يصدوا كل مغير يحاول الإغارة على بلاد الفرس من نواحيهم ،وفى مقابل ذلك يعفون من دفع الإتاوة ساعدت إمارة الحيرة دولة فارس فى حروبها التى أعلنتها على الدولة الرومانية الشرقية ،فلبى أميرها المنذر الثالث بن أمرئ القيس الملقب بابن ماء السماء (٥٠٥-٥٥٤م) دعوة كسرى الفرس وأوقع الهزيمة بالروم ،وأضطر الإمبراطور الرومانى جستنيان إلى عقد الصلح سنة ٥٣٢م ، كان من شروطه أن يدفع الروم مبلغا من المال لملك الفرس

والمنذر،على أن ملوك الفرس من الساسانيين عدلوا فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل القرن السابع عن سياسة استخدام عرب الحيرة فى أداء أغراضهم الحربية والسياسية ،كما عمدوا إلى أزاله استقلال هذه المملكة وصاروا يتدخلون فى تولية أمرائها ،فولى النعمان بن المنذر الحيرة (٥٩٠-٦٠٣م) بمساعدة عدى بن زيد العبادى .

ولى كسرى على الحيرة بعد وفاة النعمان ،أياس بن قبيصة الطائى – وكان من أشراف طيء وفصحائها المشهورين ،وله منزلة عظيمة عند ملك الفرس لبلائه الحسن فى الدفاع عنه ،ولما أداء له من خدمات جليلة – ومع ثقة كسرى أبرويز به – فإنه لم يوله وحده على الحيرة بل جعل إلى جانبه حاكما فارسيا .

وفى فترة حكمه ،تمكنت القبائل العربية برئاسة بكر بن وائل من هزيمة الفرس هزيمة شنعاء سنة (٦١٠م) فى ذى قار ،وهى أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسى ،مما أعطاهم الثقة بأنفسهم ،وقد روي أن النبىﷺ لما سمع بهذا النصر الذى أحرزته قبيلة بكر قال : (هذا أول يوم أنتصف فيه العرب من العجم وبى انتصروا ،كما أعتبر العرب هذا النصر بداية عهد جديد ،فقد مهد السبيل للمجاهدين من العرب فى العهد الإسلامى فأحرزوا انتصارات كبرى على الساسانيين .

وعلى أثر معركة ذى قار أقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة ،وعينوا عليها حاكما فارسيا يحكمها بصورة مباشرة .

ثم تولى إمارة الحيرة بعد أياس بن قبيصة رجلا فارسى ،يقال له أذانبه وهذا يدل على أن الساسانيين ،حينئذ تنكروا لملوك الحيرة وعمدوا إلى القضاء على استقلالهم ،فتدخلوا فى شئونهم الداخلية بتعيينهم حكاما من الفرس على الحيرة وذلك لضمان توطيد سلطانهم عليها ،لكن ما لبث أن أستعاد المناذرة ،سلطانهم على الحيرة فولى إمارتها المنذر بن النعمان سنة (٦٢٨هـ) بعد أن أقصيت أسرته عن الملك . وظل واليا على الحيرة حتى فتحها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

☆ **التمهيد لقبول العرب الدعوة الإسلامية :-**

ولاشك أن أحوال العرب السيئة قبل الإسلام ،كانت السبب في جعل كثيرين منهم يتطلعون إلى تغييرها ،مما مهد لإقبالهم على الدعوة الإسلامية وساعد على نجاحها ،فقد وجد من بين العرب من استنكروا عادة وأد البنات ،فنهضوا إلى محاربتها والتخفيف من آثارها بما بذلوا من مال كثير وسعي حميد .

وكان حلف الفضول الذى تكون برياسة عبد الله بن جدعان لنصرة المظلوم ،ويعتبر هدمها للشعار الجاهلى (أعن أخاك ظالما أو مظلوما) ،هذا فضلا عن أن كثرة تكوين الأحلاف بين القبائل ،وولاء العربى فى البداية لم يكن يخضع بالولاء إلا لقبيلته فقط ،ويضاف إلى ذلك أن اتفاق العرب على تحريم القتال فى الأشهر الحرم . كان يعنى أنهم أدركوا العواقب الوخيمة للقتال المتواصل ،وشرعوا فى وضع الحلول لمعالجة هذا الأمر ولو بصورة جزئية .

وبجانب كل ذلك فإن العرب بصفة عامة ،كانوا على وشك الإحساس بالكيان الواحد ،بدليل فرحتهم جميعا لما فشل أبرهة الحبشى فى هدم الكعبة وانهيال التهانى على سيف بن ذى يزن من كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية حين تغلب على الأحباش ونجح فى طردهم من اليمن ،وزاد الفرح الشامل فى جزيرة العرب كلها عندما هزم الفرس فى يوم ذى قار سنة ٦٠٩م والذى كان انتصارا للعرب جميعا ،وهو أول انتصار للعرب على العجم الذين يفرضون عليهم سلطانهم . وفى هذا الانتصار قال النبى (ﷺ) : هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبى انتصروا.

الفصـل الثـانـي

((عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم))

* أولا من الميلاد إلى البعثة :-

• **نسبة صلى الله عليه وسلم وولادته :**

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة وينتهي نسب الرسول (ﷺ) إلى عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الله عليهما الصلاة والسلام ،وأن الله عز وجل قد أختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب يقول عليه السلام (إن الله أصطفى من ولد إسماعيل كنانة وأصطفى قريش من كنانة وأصطفى بنو هاشم من قريش ،واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار .

• **زواج عبد الله بأمنه : ~**

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه فزوجه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ،وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسبا وموضعا .فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجرا إلى الشام ،فلما وصل المدينة التي بها أخواله من بني النجار أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم .

أما **ولادته** صلى الله عليه وسلم ،فقد كانت في عام الفيل ،أي العام الذي حاول فيه أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم الكعبة ،فرده الله عن ذلك بالآية الباهرة التي وصفها القرآن وكانت على الأرجح يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول .

فقد ولد صلى الله عليه وسلم ،يتيما فعني به جده عبد المطلب وأسترضع له – على عادة العرب إذ ذاك(ليكون أنجب للولد) امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب . ودرت البركات على أهل ذلك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم .

• **حادثـــة شق الصــدر** :-

وكان ذلك أثناء وجوده (ﷺ) فى بادية بنى سعد بأن شق ملكان صـــدر الرســول (ﷺ) وأخرجا حظ الشيطان منه وهى من ارهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إيـاه لأمـر جليل ،فخافت عليه مرضعته حليمة وردته إلى أمه .قال نفر مـــن أصحــاب رسـول الله (ﷺ) (يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ،قال بلى أنا دعوة أبى إبراهيــم ،وبشــرى أخـى إسماعيل ،ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نــور أضـاءت لـها قصـور الشـام واسترضعت فى بنى سعد من بكر ،فبينما أنا مع أخا لى خلف بيوتنا نرعى غنما لنـــا ،إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطسق من ذهب مملوءة ثلجا ،ثم أخذانـى فشـقا بطنـى ،واستخرجا قلبى فشقاه ،فاستخرجا منه علقه سوداء فطر حساها ،ثم غسلا قلبـى وبطنـى بذلك الثلج حتى أنقياه ،ثم قال أحدهما للآخر : زنه بعشرة من أمته فوزننى بهم فوزنتـــهم ،ثم قال زنه بمائة من أمته ،فوزننى بهم فوزنتهم ،ثم قال :زنه بألف من أمته ،فوزننى بهم فوزنتهم ،فقال دعه ، فوالله لو وزنته بأمته كلها لوزنها .

ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة بموضع يقال له الأبواء بيـن مكة والمدينة وهى عائدة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار بالمدينة . فكفله جـده عبد المطلب الذى أحبه وقربه منه وأجلسه بجواره فى مجلسه بجوار الكعبة حتى وافته هو الأخر منيته فمات وقد تم النبى (ﷺ) ثمانى سنوات ،فكفله عمه أبو طالب ،فكان خير كافل ،وكان سيدا شريفا مطاعا مهيبا رغم فقره ،وكثرة أولاده .

✪✪ نشـأته ورحلاتـه ✪✪

• **الرحـلة الأولى إلى الشــام وقصة بحيرا الراهب** :-

ولما تم له صلى الله عليه وسلم من العمر اثنتا عشرة سنة ،أراد عمه أبو طالب أن يخرج يوما فى تجارة له إلى الشام ،ولم يفكر فى اصطحابه خوفا عليه من عنـــاء السفر واجتياز الصحراء ،فأستعظم الرسول(ﷺ) فراقه ،فرق له وأخذه معه وهذه هـى الرحلـة

الأولى ولما نزل الركب "بصرى" فى جنوب الشام ،مروا على راهب هناك يقال له بحيرى وكان عليما بالأنجيل خبيراً بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرى النبى(ﷺ) فجعل يتأمله ويكلمه فرأى فيه أمارات النبوة على ما تدله أنباء النصرانية فألتفت إلى أبى طالب ونصحه ألا يوغلوا به فى بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود أن يعرفوا منه هذه الامارات فينالوه بالأذى . فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة ،حيث رأى بحيرا الراهب خاتم النبوة فى ظهره عليه السلام .

ثم أخذ رسول الله (ﷺ) يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعى للرزق ،وراح يشتغل برعى الغنم ،وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشبان من مظاهر اللهو والعبث

• **حرب الفجار وحلف الفضول :**

ولما بلغ الرسول (ﷺ) حوالى الخامسة عشر ،حضر حرب الفجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين هوزان وقيس عيلان وقد سميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ،إذ تمتنع قبائل العرب عن القتال ويعقدون أسواق تجارتهم بعكاظ بين الطائف ونخلة وبمجنة وذى المجاز على مقربة من عرفات ،لتبادل التجارة والتفاخر والجدل ،وللحج بعد ذلك عند أصنامهم بالكعبة ،وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهرة فيها أنشد أصحاب المعلقات معلقاتهم ،وبها كانت مفاخرة العرب ومهادناتهم ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم .

وسبب حرب الفجار ،إنه لم يحترم البراض بن قيس الكنانى هذه الحرمة حين غافل أثناءها عروة الرحال بن عتبة الهوازنى وقتله ،وسبب ذلك ،أن النعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة ،كان يبعث كل عام قافلة من الحيرة إلى عكاظ تحمل المسك وتجئ بديلاً منه بالجلود والحبال وأنسجة اليمن المزركشة ،فعرض البراض الكنانى نفسه عليه ليقود القافلة فى حمايه قبيلته كنانة ،وعرض عروة الهوازنى نفسه كذلك ،وأن يتخطى إلى الحجاز طريق نجد ،وأختار النعمان عروة ،فأسرها فى نفسه البراض وتربص له حتى إذا خرج بالتجارة قتله غدراً ،ثم أخبر البراض بشراً بن أبى خازم أن هوازن ستأخذ بثأرها

من قريش ،ولحقت هوازن بقريش قبل أن يدخلوا البيت الحرام فاقتتلوا وتراجعت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم ،فأنذرتهم هوازن الحرب بعكاظ العام المقبل ، وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات متتابعة أنتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر ودفعت قريش دية عشرين رجلاً من هوازن ،وقد شهد هذه الحرب ،الرسول(ﷺ) مع أعمامه ،حيث قال عليه الصلاة والسلام : "كنت انبل على أعمامي ،أي أرد عنهم نبل عدوهم ،إذا رموهم بها" .

ولعل الدافع لهذه الحرب ،هو خشية قريش وحليفتها كنانة أن تخرج من يدها التجارة.

وعلى أثر الفجار حدث (حلف الفضول) ،وكان سببه الظاهرى أن العاص بن وائل السهمي ماطل في ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يماني ،فسعى بعض القريشيين لتكوين هذا الحلف ،لنصرة المظلوم ،وقد ،عقد الإجتماع العام له في دار عبد الله بن جدعان واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ،وكونوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم ،وقد حضره الرسول(ﷺ) وروى أنه قال : "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا " ولو أدعى به في الإسلام لأجبت .

☆ رحلة الرسول (ﷺ) إلى الشام المرة الثانية وزواجه من خديجة رضي الله عنها:

كانت خديجه رضى الله عنها امرأة تاجره ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله له منه ، فلما بلغ عن رسول الله (ﷺ) صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق ،أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ،ومعه غلامها ميسرة وقد قبل محمد عليه الصلاة والسلام هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة . فحالفة التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيرها ،وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة ،فأدى إليها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم , ووجد ميسرة من خصائص النبي (ﷺ) وعظيم أخلاقه ما إملاء قلبه دهشة له ، وإعجاباً به حيث رأى غمامة تظلل محمد عليه السلام اينما سار في الحرارة فروى ذلك

لخديجة ،فأعجبت بعظيم أمانته ،ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه ،فعرضت نفسها عليه كزوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منية) فوافق النبي (ﷺ) وكلم فى ذلك أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد ،وتزوجها عليه الصلاة والسلام وله من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون .

• **اشتراكه فى بناء الكعبة** :-

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ،بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت فيها . بناها بوحى من الله تعالى وأمر له بذلك " **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم**" « سورة البقرة » . الآية(١٢٧) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك إلى سيل جارف فصدع جدرانها بعد توهينها من حريق كان أصابها من قبل ،فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها ،حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة .

ولقد شارك الرسول (ﷺ) قبل البعثة ،وكان سنة عليه الصلاة والسلام ،وقتها خمسا وثلاثين سنة ،فى بناء الكعبة وأعادة تشيدها مشاركة فعالة ،ولما أراد وضع الحجر الأسود بمكانه منها اختلفوا فيمن يضعه وقد حكموا الرسول فى ذلك حيث كان قد أتصف بينهم بالصدق والأمانة فحكم بأن يوضع بثوب يشارك فى رفعه رجال من كافة القبائل إلى أن أوصلوه مكانه من الكعبة فرفعه الرسول بيده الشريفة ووضعه مكانه .

- وقد كان لحكم الرسول المتزن أثر كبير فى نفوس الناس ،فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته وحبه وتصديقه .

• **ابتداء نزول الوحى** :-

لما بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال وهو أربعون سنة ،أرسله الله للعالمين بشيرا ونذيرا ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم . فقد آثر العزلة بين الفترة

والأخرى ،وحبب الله إليه الاختلاء فى غار حراء – وحراء جبل يقع فى جانب الشمال الغربى من مكة –فكان يخلو فيه ،ويتعبد فيه الليالى فى أوقات معينة ،للتأمل والتفكير ،ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليل حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى ،وقد لقى المعاونة من زوجته السيدة خديجة ،فكانت تحترم شعوره ،وتعد له الزاد الذى يكفيه أثناء انقطاعه فى الغار للعبادة ،وهكذا إلى أن جاءه الوحى وهو فى إحدى خلواته تلك .

وأول ما بدئ به الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ،فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ،ثم حبب إليه الخلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن إلى الله ،فإن فى العزلة صفاء السريرة ،وكان يخلو بغار حراء فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد ،ويأخذ لذلك زاده فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ،فجاءه الملك "جبريل" فقال له أقرأ ،فقال ما أنا بقارئ ،فأحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله وتكرر ذلك ثلاث مرات ،وقد خاف محمدا أن يخنق مرة أخرى ،فقال ماذا أقرأ ؟ قال جبريل : "**أقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق ،اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** " ،فقرأ النبى هذه الآيات وقد نقشت فى قلبه ،فلما انصرف جبريل ،أسرع إلى البيت فزعا وقص ما حدث على زوجته ،فبشرته بالخير قائلة له : أبشر يا بن العم وأثبت، والذى نفس خديجة بيده أنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ،إنك لتصل الرحم وتكرم الضيف وتعين على نوائب الحق ،والله لا يخزيك الله أبدا ،وزيادة فى إدخال الطمأنينة إلى قلبه ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ،وكان قد تنصر فى الجاهلية ،وأ[illegible]ل الأوثان ،وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب فى الإنجيل فى العبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى . وسألته عن تفسير ما حدث لزوجها فاجاب بأن محمد بنى هذه الأمة لأن ما رآه هو الناموس الأكبر (أى جبريل أو الوحى) الذى نزل على موسى ،ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه السلام قال : ولن أدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا (معضدا) وأدعو الله أن أدرك يومك وقد أخرجك قومك . قال عليه السلام : أو مخرجى هم قال ورقة :ما من بنى آتى بمثل ما

أتيت به إلا وقد أخرجه قومه ثم ما يلبث ورقة أن توفى بعد إسلامه وفتر الوحـــي .وقـــال الكفار أن رب محمدا قد قلاه "أي تركه" ،فأنزل الله قوله « **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ...** » .

ثم عاود محمد (ﷺ)،الذهاب إلى الغار بعد فترة فنزل عليه جـبريل مؤكـدا أنـه رسول الله ،ويلغه آيات كريمة ،تحثه على البدء فى الدعوة للإسلام .

☆ ثانيا من البعثة إلى الهجرة : (المرحلة المكية)

• مراحل الدعوة الإسلامية فى حياة النبى (ﷺ) :

١) الدعـــوة ســرا :-

بدأ النبى (ﷺ) ستجيب لأمر الله ،فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبـذ الأصنـام ،ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرا ،فقد أدرك أن دعوته سوف تواجه معارضة شـديدة مـن جانب قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها ،فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظـهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش ،ولم يكن يدعو إلا أقرب الناس إليه ،فآمنت به السيدة خديجة وابن عمه على بن أبى طالب ،ومولاه زيد بن حارثة ،واستجاب للنبى بعد ذلك أبـو بكر بن أبى قحافة ،وعثمان بن عفان ،والزبير بن العوام ،وسعد بن أبى وقـاص ،وعبـد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وتلا هؤلاء بعض رجال قريش ،كأبى عبيـده بـن الجراح والأرقم أبن أبى الأرقم ،وكان هؤلاء يلتقون بالنبى (ﷺ) سرا ، وكان أحدهمـا إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفى فيها عـن أنظـار قريـش ،وعندما قرب عدد الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين – ما رجل وامرأة – أختار لـهم الرسول (ﷺ) دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزا سريا للدعوة إلى الإسلام وقد أسـلم فيـها كثير من العرب منهم سليطن عمرة ، عياش بن أبى ربيه ،وحاطب بن الحارث ،وعمـار بن ياسر ولهيب الرومى ،وعبد الله بن مجش ، وجعفر بن أبى طالب وأوجه أسماء بنـت عهيس والسائب بن عثمان مظعون وغيرهم .

٢) **الجهـر بالدعوة وموقف قريش منها :-**

ظل الرسول (ﷺ) ثلاث سنين يدعو إلى الإسلام سرا كل من يثق فيـه ويطمئـن إلى استعداده لقبول الإسلام ،حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ،فـأمر الله ورسـوله (ﷺ) أن يظهر ما خفى من أمره وأن يصدع بما جاءه من الحق ،فقال الله لـه : **"فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"** « سورة آية «٩٤» .

وقـال لـه : **"وانذر عشيرتك الاقربين ،وأخفض جناحك لمن أتبعك مـن المؤمنين فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون" « سورة الشعراء الآية«٢١٤-٢١٦»**

وحينئذ بدأ الرسول (ﷺ) بتنفيذ أمر ربه فصعد على الصفا فجعل ينادى ،بطـون قريش داعيا إياهم إلى الله ،فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا ضده ،فـنزل قوله تعالى : **"تبت يدا أبي لهب وتب"** .

ثم نزل الرسول (ﷺ) فاستجاب لقوله تعالى : "وانذر عشيرتك الأقربين" بأن جمع من حوله جميع ذويه وأهل قرابته وعشيرته وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنـو عبد شمس أولاد عبد مناف وحاول أن يحدثهم داعيهم إلى الله ،فـأعرضوا عنـه وهمـوا بتركه ولما جهر الرسول (ﷺ) بالدعوة ،بدأت قريش استياءها بالدعوة إلى وحدانيـة الله ،خشية القضاء على عبادة الأوثان التى كان وجودها مصدرا هاما لثرائها ،فعمـدت إلـى معاداته ومناهضة دعوته ،معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذى ورثوه عـن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم . وحينئذ نبههم الرسـول (ﷺ) إلـى ضـرورة تحريـر أفكارهم وعقولهم من عبودية الاتباع والتقليد واستعمال العقل والمنطق ،وأوضح لـهم أن آلهتهم التى يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئاً . وأن توارث آبائهم وأجدادهـم لعبادتها ليس عذرا فى حقـهم : **"وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ،قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يـهتدون "** «سورة المائدة آية «١٠٤» » .

فلما عاب رسول الله (ﷺ) على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثـــة عـن آبائهم وأجدادهم دون تفكر في مدى صلاحيتها أو فسادها . ودعاهم إلى تحريـــر عقولـــهم من أسر الأتباع الأعمى وعصبية التقاليد التي لا تقوم على شئ من أساس الفكر والمنطـــق فكان أن سخرت منه قريش وأجمعوا على معاداته ومقاومته .

كان من الوسائل التي لجأت إليها قريش لمحاربة الدعوة الإسلامية الضغط علـــى أبي طالب عم النبي (ﷺ) لحمل ابن أخيه على إيقاف دعوته ،لكن أبا طالب حيـن وجـد إصرارهم على إيذائه فبعث إلى محمد فقص عليه رسالة قريش ،ثم قال له : "فـأبق علـى وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق .

فظن الرسول (ﷺ) أن عمه خاذله ،فقال " والله يا عم لو وضعـوا الشـمس فـي يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونــه" ثم بكى وولى هنا لمس أبو طالب حماسة النبي وإصراره على المضـــى قدمـا فـي أداء رسالته فلم يعبأ بهم .

ثم أن قريشا اشتدت في معاداتها لرسول الله (ﷺ) وأصحابه ، أمـا رسـول الله (ﷺ) فقد لاقى من إيذائهم أنواعا كثيرة ،خصوصا إذا ذهب إلى الصـــلاة عنـد البيـت ،وكان من أعظمهم أذى لرسول الله (ﷺ) جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمســتهزئين ،وقـد أنتقم الله منهم وهم الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى " إنا كفيناك المستهزئين" .

من ذلك ،أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ،فـأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ، وقال : " أتقتلون رجلا أن يقول ربـــى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم " .

ومنه أيضا ما كان يروى عن المستهزئين بأنهم كانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحب حتى أنهم نحروا جزورا بالحزورة ورسول الله قائم يصلـــى فـأمروا غلاما لهم فحمل السلى والفرث حتى وضعه بين كتفيه وهو ساجد فانصرف فأتى به أبـا

طالب ،وأعلمه ما صنع به ،فأقبل أبو طالب مشتملا على السيف يتبعه غلامه ،الذى أمره يرمى ذلك السلى والفرث على وجوههم .

ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء والغمز واللمز كلما مشى بينهم أو مر بهم فى طرقاتهم أو نواديهم ،كما عمد بعضهم إلى قبضة من التراب فنثرها على رأسه وهو يسير فى بعض سكك مكة ،وعاد إلى بيته والتراب على رأسه ،فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول الله (ﷺ) يقول لها : يابنية لا تبكى ،فإن الله مانع أباك .

وكان أبو لهب أشد أذى له (ﷺ) ومن المستهزئين أيضا أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى ،قال يوما يا معشر قريش أن محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم . أنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله فإذا سجد صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو أمنعونى فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .

فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله (ﷺ) ينتظره ،وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ،فلما سجد عليه السلام ،أحتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه حتى إذا قرب منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام إليه رجال من قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الأبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى ! فلما ذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) قال : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه .

- **إسلام حمزة سيد الشهداء عم رسول الله (ﷺ) :~**

كان مما لاقاه رسول الله (ﷺ) وأصحابه ،من المشركين من صنوف الإيذاء والتعذيب ،سببا لإسلام حمزة عم رسول الله (ﷺ) ، فقد أدركته الحمية عندما علم بما

أصاب أين أخيه من أذى أبى جهل وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ،والتوهين من أمره ملأه الغضب وذهب إلى الكعبة متوجها إلى أبى جهل غاضبا وسبه وقال : " كيف تسب محمدا وأنا على دينه " ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاما وأشدهم غيرة على المسلمين وأقواهم شكيمة على أعداء الدين .

ولما أصحابه رضوان الله عليهم ،فقد تجرع كل منهم ألوانا من العذاب فلا يزيدهم ذلك إلا صبرا وإمعانا فى الدعوة ،فقد أخذت قريش تعذبهم وتفتنهم عن دينهم ،حتى ألقى أحدهم عبده الحبشى بلالا على الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجرا على صدره وتركه ليموت ،لا لشئ إلا أنه أصر على الإسلام ،ولم يزد بلال وهو فى هذه الحال على أن يكرر كلمة : "أحد أحد" محتملا هذا العذاب فى سبيل دينه ،وقد رآه أبو بكر يوما يعانى هذا العذاب فاشتراه وأعتقه .

ومن الذين أوذوا فى الله ،عمار بن ياسر ،وأبوه وأمه ، كانوا يعذبون بالنار فمر بهم رسول الله (ﷺ) فقال : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة ،فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام عندما شتمت أبو جهل عليه لعنة ،فرماها بحربة فماتت فكانت أول شهيدة فى الإسلام .

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعا بل كلما زادوا المسلمين أذى أزداد يقينهم ثم لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به ،فجربوا سلاح الإغراء أو المفاوضة ،فاجتمعوا للشورى فيما بينهم ،فرغب عتبة بن ربيعة ،وكان من سادات العرب مطاعا فى قومه ، أن يكلم محمدا (ﷺ) وأن يعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فيعطونه أيها شاء ويكف عن دعوته وعن مهاجمة عبادة الأوثان . فعرض عليه الزعامة والمال ،وعرض عليه الطب إن كان هذا الذى يأتيه رئيسا من الجان ،فلما فرغ من قوله تلا محمد (ﷺ) عليه سورة فصلت وعتبة ينصت ويستمع إلى أحسن القول كما قال له رسول الله (ﷺ) ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ،ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ،وأنزل على كتابا وأمرنى أن

أكون بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ،فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ،وإن تردوه على ،أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

غير أن النبى (ﷺ) لم يعبأ بهم فلجئوا إلى إلحاق الأذى بأصحابه وصان الله رسوله بعمه أبى طالب الذى كان مطاعا فى قومه ،فصدهم عنه واستمر الرسول (ﷺ) فى دعوته لا تأخذه فى الله لومه لائم .

● أول هجرة فى الإسلام [الهجرة إلى الحبشة] :-

وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى والتعذيب ورأى رسول الله (ﷺ) ما يصيب أصحابه من البلاء ،وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه ،فأشار عليهم بالهجرة والخروج من الوطن ، ووقع اختياره على الحبشة لما كان يعهده فى ملكها من العدل و التسامح ، حيث قال : "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحدا ،وهى أرض صدق ،حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه" .

وكان فى مقدمة المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ،وتبعه المسلمون من مكة . فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة فى الدين أو فرارا إلى الله بدينهم ،ذلك أن الهجرة إلى أى مكان داخل جزيرة العرب كانت غير مأمونة ،لارتباط قريش مع القبائل بمصاهرات ومحالفات ،وخرجوا فى هجرتين : كانوا فى الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء تسللوا من مكة لواذا ،ثم أقاموا فى خير جوار من النجاشى ،حتى بلغهم إسلام أهل مكة ،كما ترامى إليهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش فرجعوا لما بلغهم ذلك ،حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل ،فلم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوار أو مستخفيا فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ،ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة . فلما لقوا عنت قريش وأذاهم أبلغ مما كان -عادوا إلى الحبشة فى بضعة وثمانون رجلا .

ولما رأت قريش ذلك ،أرسلت إلى النجاشى ،عبد الله ابن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (ولم يكن قد أسلم بعد) ،بهدايا مختلفة كثيرة ،إليه والى حاشيته وبطارقته ،رجاء

أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين في جواره ويسلمهم مرة أخرى إلى أعدائهم . لكنهما رجعا مخذولين مقموصين وبذلك فشلت قريش في مؤامراتها عند النجاشي بالحبشة .

وبذلك كان لهجرة المسلمين إلى الحبشة نتائج هامة ،فقد ذاع بين العرب أن فريقا من القريشيين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبي بمكة ،وبذلك سمع عن الدين الإسلامي من لم يسمع به من قبل ،كما انه كان لخروج هذه الجماعة أثر في تخفيف حدة عداء قومهم لأنهم رأوا فريقا منهم أصبح مضطهدا وأوذي في دينه حتى أضطر إلى أن يهاجر إلى مكان بعيد .

- **إسلام عمر بن الخطاب :~**

كان عمر من أشد قريش أذى للمسلمين ووقيعة فيهم ،فلما رآهم هاجروا إلى الحبشة ورأى النجاشي حماهم ،شعر لفراقهم بوحشة فلان قلبه واطمأنت نفسه ،وقصد إلى مجلس الرسول (ﷺ) ،وأصحابه عند الصفا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ،وأعلن إسلامه ،فوجد المسلمون فيه ،وفي حمزة للإسلام منعة وللمسلمين حمى .

- **القطيعة والشدة التي لقيها النبي (ﷺ)** [أول حصار اقتصادي للمسلمين] : ~

أيقنت قريش أن ما تنال به محمدا (ﷺ) ، وأصحابه من الأذى لن يحول دون إقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة أو بالحبشة أو بمن يقدر على حمايتهم ،فرأوا أن يتخذوا موقفا حاسما فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وعاهدوا أنفسهم على أن يتعاملوا معهم في بيع أو شراء أو زواج ،ولا يجالسوهم ولا يكلموهم ،حتى يسلموا إليهم محمدا ليقتلوه ،وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، وكان أكبر ظنهم أن هذه السياسة السلبية وسياسة التجويع والمقاطعة ستكون أفعل أثرا من سياسة التعذيب والأذى ،فأقاموا على حصار المسلمين وبني المطلب سنتين أو ثلاثة سنوات احتمى محمد وأهله وأصحابه خلالها في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ،يعانون الحرمان ألوانا ،ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون به جوعهم ،ولم يكن يتاح لمحمد (ﷺ) ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث إليهم إلا في الأشهر الحرم

،حين يفد العرب إلى مكة حاجين ،وحين تضع الخصومات أوزارها فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام فى هذه الأشهر ،وكان محمد (ﷺ) ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عقابه ،وكان ما أصاب محمد (ﷺ) من الأذى فى سبيل دعوته شفيعة عند كثيرين ،حتى لقد زادهم ما سمعوا من ذلك ،عليه عطفا وعلى دعوته إقبالا .

على أن حمية القرابة والرحم والرأفة أخذت نفرا من القريشيين فاتفقوا على إعادة بنى هاشم وبنى المطلب إلى مساكنهم التى رحلوا عنها ،وبذلك نقضت صحيفة المقاطعة التى علقوها فى جوف الكعبة ،وعندما أرادوا نزعها وجدوا أن الأرضية قد أكلتها ماعدا (باسم الله) .

● قدوم وفد النصارى من الحبشة على رسول الله (ﷺ) :-

فى غمرة ما كان يلاقيه النبى (ﷺ) وأصحابه من العذاب والإيذاء وفد إلى رسول الله (ﷺ) أول وفد من خارج مكة لفهم شئ عن الإسلام وكانوا عشرين رجلا أو قريبا من ذلك ،فلما جلسوا إلى رسول الله وأطلعوا على صفاته وأحواله وسمعوا ما تلى عليهم من القرآن ،آمنوا كلهم ،فلما علم بذلك أبو جهل أقبل إليهم قائلا : ما رأينا ركبا أحمق منكم ... أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ،فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال .فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ،لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ،لم نأل أنفسنا خيرا .

عام الحزن :-

وهو العام العاشر من بعثته ،فقد توفيت فيه زوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ،وتوفى فيه عمه أبو طالب فحزن عليهما الرسول حزنا شديدا .

وقد كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ،كما قال ابن هشام : وزير صدق على الإسلام ،يشكو الرسول إليها ويجد عندها سلواه لذلك بشرها الله عن طريق جبريل

بأن لها قصر من الذهب لا صخب فيه ولا نصب" أما أبو طالب ،فقد كان عضدا وحرز في أمره ،وكان ناصرا له على قومه .

فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله (ﷺ) من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ،حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا ،ودخل رسول الله (ﷺ) بيته والتراب على رأسه فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ،ورسول الله (ﷺ) يقول لها : لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك .

ولقد أطلق النبي (ﷺ) على هذا العام أسم "عام الحزن" لشدة ما كان فيه من الشدائد في سبيل الدعوة .

• **محاولة بث الدعوة في الطائف :~**

وقد بالغت قريش في أذى الرسول (ﷺ) بعد موت عنه ،مما حمل الرسول على الخروج إلى مدينة الطائف ،والتماس النصرة من أهلها ،ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .

ولما أنتهى رسول الله (ﷺ) إلى الطائف ،عمد إلى نفر من ثقيف وهلس معهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله ،فلم يلق منهم تأييدا وخذلوه ،فرجاهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش. فلم يجيبوه إلى ذلك أيضا . ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى وصل رسول الله (ﷺ) إلى بستان لعتبة بن ربيعة ،فرجع عنه من سفهاء ثقيف ،فعمد عليه الصلاة والسلام وقد انهكه التعب والجراح ،إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب ،فلما أطمأن رفع عليه السلام رأسه يدعو بهذا الدعاء : "اللهم أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ،وهواني على الناس ،يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي .إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتهجمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ،ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك فأعطاه الله تعالى عطيتين : إسلام الجن معه وإيمانهم به عليه السلام . والثانية أنه نزل إليه ملك الجبال فقال له يا محمد لو أردت أن أطبق عليهم الجبلين لفعلت ،فقال له الرسول الكريم " لا على الله أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله الواحد " .

فأنصرف عن الطائف إلى مكة دون أن يستجيب له أى فرد من أهالى هذا البلد ؟

ويتبين مما تقدم أن الطائف لم تكن خيرا من مكة فى تلقيها الدعوة الإسلامية ،لهذا عاد النبى (ﷺ) إلى مكة وفى طريق عودته إليها وصل إلى نخلة (مكان قريب من مكة) فوقف يصلى ،وقد سمعه نفر من الجن فآمنوا به . ولابد أن إيمان الجن بالرسول (ﷺ) ورسالته قد عوض له بعض ما لقيه فى الطائف ،كما شجعه على عدم قصر بث الدعوة على مكة وحدها ،بل إلى محاولة نشرها بين القبائل الأخرى .

• **معجزة الإسراء والمعراج** :-

لقد عانى رسول الله (ﷺ) ألوانا كثيرة من المحن التى لاقاها من قريش . وكان آخرها ما عاناه لدى هجرته إلى الطائف ،ولقد ظهر فى دعائه الذى ناجى به ربه بعد أن جلس يستريح فى بستان أبنى ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور بالضعف والحاجة إلى النصير ،وظهر فى التجائه ذلك شئ من معنى الشكاة إليه سبحانه وتعالى والطمع منه فى عافيته ومعونته .ولعله خشى أن يكون الذى يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله عليه لأمر ما . ولذلك كان من جملة دعائه قوله : "أن لم يكن بك غضب فلا أبالى " .

فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريما من الله تعالى له ،وتجديدا لعزيمته وثباته . ثم جاءت دليلا على أن هذا الذى يلاقيه عليه الصلاة والسلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه أو أنه غضب عليه . وإنما هى سنة الله مع محبيه ومحبوبيه .

ويقصد بالإسراء الرحلة التى أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ،أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وانس وجن ،كل ذلك فى ليلة واحدة (عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) .

والإسراء مذكور فى القرآن الكريم ،قال تعالى فى أول سورة الإسراء : "**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير**" .

ولما كانت صبيحة اليوم التالى وحدث رسول الله (ﷺ) الناس بما شاهد ،لم يصدقوه بل ساورهم بعض الريب واستهزءوا مما قاله محمد (ﷺ) ثم لم يزيدهم ذلك إلا كبرا وعنادا ،حتى قالوا هذا سحر مبين .

أما أبا بكر رضى الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول ،رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه فقال : أن كان قال ذلك لقد صدق ،إنى لأصدقه على ابعد من ذلك وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين ،وهى فى أصلها خمسون صلاة فى اليوم والليلة

- **عرض الدعوة على القبائل وبدء إسلام الأنصار** :-

كان النبى (ﷺ) ،خلال هذه الفترة كلها ،يعرض نفسه فى موسم الحج من كل سنة على القبائل التى تتوافد إلى البيت الحرام ،يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم إلى توحيد الله فلا يستجيب له أحد ومنهم كندة ،وبنى عبد الله (إحدى عشائر كلب) ،وحنيفة وعامر بن صعصعه ،وكل هذه القبائل تقيم فى مناطق بعيدة عن مكة ،فكان بعضهم يرد ردا جميلا وآخرون ردا قبيحا ،وكان من أقبح القبائل ردا بنو حنيفة ،والمهم أن الدعوة لم تلق ترحيبا عندهم حتى لاقى فريقا من بنى الأشهل الخزرجيين القاطنين فى المدينة ،فلقى منهم أذنا صاغية لدعوته .

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على القبائل شأنه فى كل عام فبينما هو عند العقبة (موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة) لقى هرطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا يبلغون الستة ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته فى تبليغ رسالة ربه ، فقال بعضهم لبعض : أنه النبى الذى كانت تعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأمنوا به وصدقوه وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب.

● **بيعة العقبة الأولى :~**

وأنتشر الإسلام خلال تلك السنة فى المدينة ولما كان العام الذى يليه وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى فبايعوا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء (أى لم يبايعهم فيها على الحرب والجهاد) على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه فى معروف فان وفوا فلهم الجنة وان غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله عز وجل أن شاء غفر وإن شاء عذب وهذه هى العقبة الأولى فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير أول سفير فى الإسلام يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين فكان يسمى مقرئ المدينة وكان من نتيجة ذلك ،أن أنتشر الإسلام فى دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام .

● **بيعة العقبة الثانية :~**

عاد مصعب بن عمير إلى مكة فى موسم الحج العام التالى ومعه جمع كبير من مسلمى المدينة خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين ولما قابل وفدهم رسول الله (ﷺ) وأعدوه المقابلة ليلا عند العقبة ،على أن يكتم مسلمو يثرب من منهم من المشركين أمرهم . وتم هذا الاجتماع وكان عددهم خمسة وسبعون مسلما منهم ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان وفيه بايعوا النبى على ان يحموه بكل ما أوتوا من قوة ، كما دعوه للهجرة إلى

بلدهم والإقامة بين ظهرانيهم ،وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية ،وقد مهدت للمسلمين سبيل الهجرة إلى يثرب .

* **الفتـــرة المدينـــة :**

• **هجرة الرسول إلى المدينة وبناء المجتمع الإسلامي :~**

لما علمت قريش بنبأ تحالف الرسول مع عرب يثرب اضطربت اضطرابا شـديدا وأشتد أذاها للمسلمين فأذن الرسول لأتباعه فى مكة بالهجرة إلى المدينة وخرج هؤلاء فى جماعة بعد جماعة حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله وأبو بكر الصديق على بن أبى طالب ومن اعتقله المشركون كرها أو مريض أو ضعيف عن الخروج .

ونتيجة ذلك اجتمع زعماء قريش فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب لاتخاذ قرار حاسم بشأن الدعوة الإسلامية ،وكان قرارهم الذى اتخذوه هو قتل النبى على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا ثم يعطى كل منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه كى لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعها ،لكن الله كشف هذه المؤامرة لنبيه ،ففى الليلة التى اتفقوا فيها على قتله ،خرج الرسول (ﷺ) من داره فى جنح الظلام ،بعد أن أتفق مع على بن أبى طالب على أن ينام فى فراشه كما أمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رسول الله (ﷺ) الودائع التى كانت عنده للناس ،إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شئ يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله لما يعلمون من صدقه وأمانته وذهب إلى بيت أبى بكر الصديق وأخبره بأن الله أذن له فى الهجرة وطلب الصديق أن يصحبه فى هجرته فأجابه إلى ما طلب .

• **التخطيط للهجرة :~**

وكان أبو بكر قد أعد راحلتيه وجهزاهما أحسن الجهاز والطعام ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط ،وكان هاديا ماهرا وهو على دين كفار قريش فأمناه ،يرعاهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . وأمر أبو بكر أبنه عبد الله أن يستمع لهما ما يقوله للناس عنهما فى النهار ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من الأخبار ،وأمر عامر بن فهيرة (مولاه) أن

يرعى غنمه نهاره ،ثم يريحها عليهما إذا أمسى ،إلى النار ليطعما من ألبانها ،فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كي لا يظهر لقدميه أثر . وأمر بنته أسماء أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما في كل مساء .

ولما جاءت الليلة التى هاجر فيها النبى (ﷺ) اجتمع المشركون على باب رسول الله (ﷺ) يتربصون به ليقتلوه ،ولكنه عليه الصلاة والسلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم النوم حتى لم يره أحد ،ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائرا حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه .

أما المشركون فلما علموا بخروج الرسول (ﷺ) وأنهم باتوا يحرسون على بن أبى طالب ،هاجت عواطفهم وانتشروا فى طريق المدينة ،يفتشون عنه فى كل مكان حتى وصلوا إلى غار ثور ،وسمع الرسول وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبي (ﷺ) لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ،فأجابه عليه الصلاة والسلام : "لا تحزن أن الله معنا" (***ما ظن باثنين الله ثالثهما***)

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحسن لأحد منهم التفافه إلى ذلك الغار ،ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله .

ولما أنقطع الطلب عنهما خرجا ،بعد أن جاءهما دليلهما عبد الله بن أريقط ،فسارا متبعين طريق الساحل ،وكان قد جعل مشركو مكة لكل من أتى برسول الله (ﷺ) وأبى بكر رضى الله عنه دية كل منهما ،وفى الطريق لحقهما طالبا ،سراقة بن مالك المدلجى حتى دنا من الرسول (ﷺ) فعثرت به فرسه فخر عنها ،ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قراءة النبى وهو لا يلتفت ،وأبو بكر يكثر الالتفاف فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع فى السماء مثل الدخان . فعلم سراقة أنه ممنوع عن رسول الله ،وداخله رعب عظيم ،فناداهما بالأمان ،فأعتذر للرسول وسأله أن يستغفر له وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئا ،ثم عاد سراقة إلى مكة وهو يصرف أنظار الناس

عن الرسول ومن معه بما يراه من القول .وقد وعده الرسول عليه السلام بأساور وكتب له أبو بكر بذلك ،وقد أسلم سراقة وأبلى بلاء حسنا .

• قدوم الرسول (ﷺ) قباء :-

وصل الرسول قباء ،فأستقبله من فيها ونزل على بنى عمرو بن عوف ،وأقام بقباء ليال أسس فيها مسجد قباء الذى وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم ،وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون وكانت المساجد فى عهد الرسول فى غاية من البساطة ،ليس فيها شئ مما أعتاده بناة المساجد فى القرون الأخيرة ،وفى تلك الأثناء لحق على بن أبى طالب برسول الله (ﷺ) بقباء بعد أن رد الودائع التى كانت عند محمد (ﷺ) لأصحابها من أهل مكة ،ثم اتجه الرسول (ﷺ) إلى المدينة ،وقد أدركته عليه السلام ،صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عـ ـ ،فنزل وصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى فكانت أول صلاة جمعة صلاها مدينة ،ثم واصل سيره إلى المدينة ،والتفت من حوله الأنصار ، كل يسك زمام ر عنه ،يرجون النزول عنده فكان الرسول (ﷺ) يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة ،ثم تزل راحلته تسير فى فجاج المدينة وسككها حتى وصلت إلى مربد لغلامين من بنـ النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى ،فقال النبى (ﷺ) : "ههنا المنزل أن شاء الله وجاء أبو أيوب فأحتمل الرسول إلى بيته ،وخرجت ولاء من بنى النجار – فيما يرو ابن ،شاه – فرحات بمقدم النبى (ﷺ) وجواره لهن ،وتكشف لنا الصورة التى استقبلت بها المدة المنورة رسول الله (ﷺ)،عن مدى المحبة رجالا ونساء وأطفالا .

لقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تـ لفح الشمس ،وصول الرسول (ﷺ) إليهم فلما طلع الرسول (ﷺ) عليهم جاشت رلطف فى صدورهم وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد فرحا لمرآة عليه الصلاة و م ،ومقدمة عليهم . ولقد بادلهم رسول الله المحبة ذاتها . حتى أنه جعل ينظر إلى بنى النجار من حوله . وهن ينشدون ويتغنين بمقدمه قائلا : أتحبننى ؟ والله أن ـ ليحبكن .

☆ ثالثا : الرسول فى المدينة ونشأة الدولة العربية :-

لقد كانت هجرة رسول الله (ﷺ) إلى المدينة ،تعتى أول دار إسلام ،إذ ذاك على وجه الأرض ،وقد كان ذلك إيذانا بظهور الدولة العربية .

ولذا فقد كان أول عمل قام به الرسول (ﷺ) أن أقام الأسس الهامة لهذه الدولة ،ولقد كانت هذه الأسس ممثلة فى هذه الأعمال الثلاثة التالية :

✪ أولا : بنـــاء المسجد .

✪ ثانيا : المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة .

✪ ثالثا : كتابة وثيقة "دستور" حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم ،وأضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة واليهود بصورة خاصة والمؤاخاة بين الأوس والخزرج .

((✪ أولا : بناء المسجد ✪))

وقد شرع عليه الصلاة السلام فى بناء مسجده فى مبرك ناقته أمام محلة بنى النجار وكان محله مربدا للتمر يملكه غلامان يتيمان من الأنصار ،فأمر رسول الله (ﷺ) أن يبنى ذلك الموضع مسجدا ،ودعا الغلامين ... وكانا فى كفالة أسعد بن زرارة رضى الله عنه ،وساومهما الرسول (ﷺ) فيه فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل أبتاعه منهما ، وكان فيه قبور للمشركين ونخل ،فأمر رسول الله (ﷺ) بالقبور فنبشت والنخيل والشجر فقطعت ،وصفت فى قبلة المسجد ،ثم بنوه باللبن وكان رسول الله (ﷺ) يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم الحجارة بنفسه وحمل قبلته فى شماله إلى البيت المقدس وجعل عمده الجذوع وسقفه بالجريد كما بنى مساكنه .

وقد ظل مسجد رسول الله على هذا الشكل دون أى زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ثم زاد فيه عمر رضى الله عنه بعض التحسين ،ولكنه بناه على

بنائه فى عهد النبى (ﷺ) باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا ، ثم غيره عثمان رضى الله عنه ،فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والقصة "الجص" .

((✿ ثانيا : الاخوة بين المسلمين ✿))

كان سكان المدينة حين دخلها الرسول (ﷺ) يتألفون من عدة عناصر :المسلمون من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار ،وبعض مشركى هاتين القبيلتين واليهود ،ثم أنضم إليهم المهاجرون من مكة .

حاول الرسول (ﷺ) تنظيم صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة ،وتوحيد وحدتهم عن طريق تآلفهم ،فأخى بينهم ،على أن يتوارثوا بينهم بعد الممات ،بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية فى ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم ،فجعل جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ،وجعل أبا بكر الصديق وخارجة بن زهير أخوين ،وعمر بن الخطاب وسعد بن الربيع أخوين ... وهكذا ،وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل أثنين: "تآخيا فى الله أخوين أخوين" .

وقد أتخذ رسول الله (ﷺ) من حقيقة التآخى الذى أقامه بين المهاجرين والانصار أساسا لمبادئ العدالة الاجتماعية ،ذلك أن أخوة الإسلام وضعت كلا منهما "المهاجرين والأنصار" أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر والمؤانسة والمؤازرة بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم فى مكة ونزولهم ضمانة لتحقيق هذه المسئولية ،بالإضافة إلى أن يشد أزر بعضهم ببعض ،فلما عز الإسلام وأجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه و تعالى قوله فى سورة الأحزاب :"**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله**" ،يعنى فى الميراث ثم جعل المؤمنين كلهم أخوة فقال : "***إنما المؤمنون أخوة***" يعنى فى التواد وشمول الدعوة .

((✿ ثالثا : كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم ✿))

كذلك حرص الرسول (ﷺ) على أن يضع نظاما للحياة العامة فى المدينة يكون أساسا لتحقيق الوحدة بين أهاليها وتحديد نواة الدولة العربية ،فكتب رسول الله (ﷺ) كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ،وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم وأشترط عليهم ،وأكد الرسول (ﷺ) فى هذا الكتاب أو الوثيقة ،على ضرورة التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية وفتح الطريق للراغبين من اليهود فى الإسلام ،كما تضمن ما يتبع فى فض الخصومات بين أهالى المدينة ،ولاشك أن الرسول (ﷺ) قصد من هذا الدستور تحقيق الأمن والاستقرار بالمدينة والتعاون بين جميع سكانها فى الدفاع عنها ضد أى اعتداء قد يقع عليها . وكان لهذا الدستور أثر بارز فى تحديد نواة الدولة الجديدة .

- **تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة :-**

مكث عليه السلام بالمدينة سبعة عشر شهرا ،يستقبل بيت المقدس فى صلاته ،فأوحى إليه الله يومئذ أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام ،فنزلت الآية " **قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**" .

وكانت هذه الحادثة سببا لأفتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على اعقابهم وقد أكثر اليهودمن التنديد على الإسلام بهذا التحويل ،وبادروا أن لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم « **تفسير آية رقم١٤٢ من سورة البقرة**» .

- **بدأ القتال :-**

لم يلجأ الرسول (ﷺ) إلى القتال طيلة أقامته بمكة ،بل عمد إلى إقناع المشركين بالحجة والبرهان ولكن هؤلاء اشتدوا فى طغيانهم حتى اضطروا المسلمين إلى الهجرة أكثر من مرة ،ولم يكن ثمة دليل على أن المشركين سيكفون عن مواصلة العدوان

ومحاربة الدعوة الإسلامية ،ولذلك أذن الله للمسلمين بالتصدى لـهم للـذود عـن أنفسـهم ،ولتأمين الدعوة الإسلامية ،وصد من يقف فى سبيلها حتى لا يفتن أحد من المسلمين عـن دينة ويرغم على التخلى عنه .

وكان الله سبحانه ينزل على الرسول (ﷺ) من الآيات ما يقويه على الصبر أو مـا كان يلاقيه من أذى قريش ،ومن ذلك قوله فى سورة الأحقاف : "فأصبر كما صبر أولـو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم" .

وكان كثيرا ما يقص الله عليه أنباء أخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاد ،ولمـا أزداد طغيان أهل مكة ألجئوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله فكـانوا هـم البادئين بالعداء على المسلمين ،حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق . فبعد الـهجرة أذن الله تعالى للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة الحـج: **"أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الله على نصرهم لقدير" الذين أخرجوا مـن ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله"** .

وبذلك لم يكن الرسول (ﷺ) يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب .

فلما تمالأ على المسلمين غير أهل من مشركى العرب واتحدوا عليهم مع الأعـداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقولـه فـى سـورة التوبـة **"وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة"**

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث أنهم سـاعدوا المشـركين فـى حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله تعالى فى سورة الأنفال : **" وأما تخافن من قوم خيانة فـأنبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين "** .

وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم

كان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسـبة للمسـلمين بالمدينـة ،فقـد أعطـاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل ،ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمـة العربيـة الإسـلامية

عليهم أن يجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب ولتحقيق هذا الهدف السامى خاضوا غمار كثير من المعارك الحربية بقيادة النبى عليه الصلاة والسلام أطلق عليها أسم الغزوات .

(أ) السرايا هى والتى أخرجها النبى عليه إسلام بقيادة غيره للاستطلاع :-

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها إلى الشام وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عسيرا ، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم ولابد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله (ﷺ) أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة ليكون في ذلك عقاب لمشركى مكة حتى تضعف قوتهم المالية فيكون ذلك أدعى لخذلانهم فى ميدان القتال الذى لابد أن يكون ،لأن قريش لم تكن لتكف عمن سفه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصا وهم قدوة العرب فى الدين .

وقد وضعت مشروعية القتال موضع التنفيذ فى شهر صفر ، على رأس أثنى عشر شهرا من مقدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة ،فقد خرج بنفسه ،وأستعمل عليها سعد بن عبادة وسار إلى الأبواء حتى بلغ ودان يريد قريشا وبنى ضمرة فلم يلق قريشا وحالفتها بنو الضمرة ،وأنه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط يريد قافلة يقودها أمية بن خلف عدتها ألفان وخمسمائة بعير يحميها مائة محارب فلم يدركها ،لأنها اتخذت طريقا غير طريق القوافل المعبد وأنه بعد شهرين أو ثلاثة من عودته من بواط من ناحية رضوى استعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وخرج فى أكثر من مائتين من المسلمين حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الأخرى من السنة الثانية للهجرة (أكتوبر سنة ٦٢٣ م) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته . وكب من رحلته هذه أن وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة . وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليال حتى أغار كرز بن جابر الفهرى ،من المتصلين بمكة وبقريش على أبل المدينة وأغنامها فخرج النبى فى طلبه ،وأستعمل على المدينة زيد بن حارثة وتابع سيره حتى بلغ

واديا يقال له سفوان من ناحية بدر وفاته كـرز فلم يدركه ثم أخرج عليه إسلام سرية عبد الله ابن حجش [سرية النخلة والتى كانت مقدمة لبدر] .

(ب) الغـــزوات :~

* غـزوة بدر الكبـــرى ((٢هـ/٦٢٤م)) :

فكر الرسول (ﷺ) فى الضغط على قريش وتهديدها بتعطيل تجارتها . ولم يكـن فى ذلك متجنيا عليها . لأن عدوانها على المهاجرين كان لم يزل قائما منـذ أن أرغمتـهم على ترك بلدهم .ولذلك ندب النبى (ﷺ) نفرا من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقريش كانت تمر بالقرب من المدينة . لكن أبا سفيان رئيس هذه القافلة لما علـم بمـا اعتزمـه النبى (ﷺ) وأصحابه ،أرسل إلى قريش يستنفرها لحماية تجارتها ،كما لم يتابع سيره فـى الطريق المعتاد ،بل سلك طريقا أخر محاذيا لساحل البحر الأحمر ،وواصل سـيره حتـى جاوز المكان الذى كان المسلمون يترصدون القافلة عنده ،وعاد إلـى مكـة بقافلتـه دون أن يتعرض لها المسلمون .

خرج كثير من القريشيين من مكة لنجدة أبى سفيان ،ولكنه حين تمكن من النجـاة بالقافلة أرسل إليهم يحثهم على العودة فأختلف هؤلاء فيما بينهم ،إذ رأى فريق منهم أنـه لا ضرورة لمواصلة السير وقتال المسلمين بعد نجاة القافلة ،لكن أبا جهل أتهم هؤلاء بـالجبن واستطاع أن يحمل الجميع على المضى لقتال المسلمين .

وفى السابع عشر من رمضان التقى الجمعان عند بئر بدر ، وكان عدد المشـركين يقارب الألف وهذا يعادل ثلاثة أضعاف المسلمين تقريبا ،وعلى الرغم من ذلك فقـد دارت الدائرة على المشركين ،وقتل من رؤسـائهم سـبعون ،كمـا أسـر سـبعون وأستشـهد من المسلمين أربعة عشر ،ولقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالكثير مـن الآيـات والجند والنصر فيها .

وتعتبر غزوة بدر حدثا هاما فى تاريخ الإسلام ،لأنها كانت أول معركة حربية دارت بين المسلمين والمشركين ،انتصر فيها المسلمون رغم قلة عددهم وضعف عدتهم ،وأظهروا من خلالها مدى تمسكهم بدينهم وتفانيهم فى نصرته . وكان لهذا النصر نتائج بعيدة الأثر ،فدخل فى الإسلام كثير من المشركين كما ضعفت شوكة اليهود .

أظهرت قبيلة بنى قينقاع اليهودية التى كانت تسكن بالمدينة ما كانت تخفيه من العداء للمسلمين عقب انتصارهم فى بدر ،فقام شعراؤها برثاء قتلى بدر فى هذه المعركة ،كما أخذوا يقللون من قيمة النصر الذى أحرزه المسلمون فيها ،بل نقضوا العهد الذى عقده الرسول (ﷺ) معهم مما أضطره إلى إجلائهم عن المدينة .

* <u>غزوة أحد</u> ((٣هـ/ ٦٢٥م)) :

أرادت قريش أن تثأر لمن قتل من رجالها فى معركة بدر فرصدت كل مال القافلة التى كانت سببا فى تلك المعركة للتجهيز لحرب أخرى مع المسلمين . وكان هذا المال قد أودع بدار الندوة بعد نجاة القافلة ،وقد طلب أصحابه على أثر عودة المشركين من بدر الاستعانة به على الانتقام من المسلمين .

تجهز أبو سفيان فى ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها وخرج قاصدا المدينة ولما علم بذلك الرسول (ﷺ) استشار أصحابه فيما ينبغى أن يفعله للدفاع عنها .

وكان رأى الشباب لم يشهدوا معركة بدر أن يخرج المسلمون لملاقاة العدو خارج المدينة أما الشيوخ الصحابة فكانوا يرون التحصن بالمدينة وصد العدو عنها ،وكان الرسول يستصوب رأى هؤلاء الشيوخ , ولكنه أخذ بالرأى الأول نزولا على رأى الأغلبية لأن القائلين به كانوا أكثر أهل المدينة ،كما أن البقاء بالمدينة ربما يشعر قريشا بخوف المسلمين من لقائها فتزداد جرأتها ويقوى أملها فى النصر .

خرج النبى (ﷺ) فى ألف من أهل المدينة يوم الجمعة ١٤ شوال من السنة الثالثة للهجرة ،وبعد أن غادر المدينة بقليل ،رجع من هؤلاء ثلاثمائة من المنافقين بزعامة عبدالله

بن أبى سلول فلم يعبأ الرسول (ﷺ) بهم . ومضى الباقين حيث عسكر بسفح جبل أحد (على بعد خمسة أميال من المدينة) وكان جيش قريش قد عسكر بالوادى الذى ينحدر إليه هذا السفح . وقد رتب المسلمون أنفسهم بحيث تكون ظهورهم إلى الجبل ووجوههم نحو المدينة والوادي الذى يعسكر فيه الأعداء .

وخص النبى (ﷺ) خمسين من الرماة بقيادة عبدالله بن جبير وقفوا على مرتفع وراء ظهور جيشه ليمنعوا أيه حركة تطويقية له . وأوصاهم ألا يتركوا مكانهم إلا بناء على أمر منه مهما كانت نتيجة المعركة .

ولما التقى الجمعان رجحت كفة المسلمين أول الأمر ،وشرع المشركون فى التقهقر ،فنزل الرماة فى يجمعون ما تركه العدو من الغنائم فرحا بالنصر ،فأنتهز الكفار هذه الفرصة وأتوا المسلمين من الخلف وصوبوا الرماح فى ظهورهم فاضطربوا لهذه المفاجأة وأختل نظامهم ،وقتل منهم سبعون ،فيهم حمزة بن عبد المطلب كما جرح الرسول (ﷺ) وظن الكفار أنه قتل فقنعوا بهذا الإنتقام ورجعوا إلى مكة ،ولكن الرسول عليه السلام خرج لملاقاتهم بألف وأكثر من المؤمنين خارج المدينة ،فخافوا بعدما علموا بكثرة عدد جيشه .

وتتركز أهمية هذه الموقعة في أنها كشفت عن نوايا المنافقين كما ألقت على المسلمين درسا بالغ الأهمية في وجوب طاعة النبي (ﷺ) فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه وبينت لهم أهمية الاحتياط فى المعارك الحربية مما أفادهم في حروبهم المستقبلية .

* ***غزوة الخندق ((٥هـ/ ٦٢٧م))*** :

كانت العلاقة قد توترت بين الرسول (ﷺ) وقبيلة بنى النضير اليهودية بعد واقعة أحد وعمل على إجلائها عن المدينة بعد أن فطن إلى تآمرها ضده حين قدم إليها يستعين بها فى دفع دية مطلوبة من المسلمين طبقا لما بينهما من عهد فسار بعضهم إلى مكة وأخذوا يحرضون القريشيين ويدفعونهم إلى محاربة المسلمين ولقى هذا التحريض قبولا

من قريش وانضم إليها جماعات من القبائل العربية واليهودية وتعرف هذه القبائل بالأحزاب .

ولما علم الرسول (ﷺ) بخروج قريش وحلفائها إلى المدينة شاور أصحابه فيما يفعل لصد أعدائه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة . فأعجب الرسول (ﷺ) برأيه واشترك بنفسه في حفر الخندق .

ولما بلغت قوات قريش وحلفاؤها المدينة ،فوجئت بوجود الخندق ،لأنها لم تكن تتوقع هذا النوع من وسائل الدفاع التي لم تكن معروفة لدى العرب ، ورأى هؤلاء ألا سبيل إلى اجتياز الخندق ،فاكتفوا بحصار المسلمين والتراشق معهم بالنبال عدة أيام متتابعة بلغت قرابة شهر ،وقد تعب المسلمون كثيرا من شدة وطأة هذا الحصار .

ومما زاد الطين بلة ، أن زعيم بني النضير تمكن من إقناع يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي . ومعنى ذلك أن أطفال المسلمين ونساءهم داخل المدينة صاروا معرضين للفتك بهم في أية لحظة ،لأن رجال المسلمين تركوا هؤلاء داخل المدينة ،(وبجوارهم بنو قريظة) ورابطوا خلف الخندق لصد المهاجمين ،فكان ذلك مما أوقع الزعر في قلوب المسلمين .

على أن شدة إيمان المخلصين من الصحابة ،مكنهم من تحقيق النصر في النهاية ،وقد لجأ النبي إلى الحيلة في تفريق شمل أعدائه ،وبدأ ذلك بالاتصال بزعماء قبيلة غطفان المحالفة لقريش ،يعرض عليهم التخلي عنها مقابل منحهم بعض الأموال والثمار .

كما أحسن الاستفادة من نعيم بن مسعود الغطفاني حين جاءه مسلما ولم يعلم بإسلامه أحد من الأعداء ،فطلب منه أن يعمل على تشكيك الأعداء بعضهم في بعض ،فزين لليهود من بني قريظة أخذ رهائن من قريش وحلفائها ليضمنوا بذلك عدم تخلي الحلفاء عنهم لتسليمها لمحمد (ﷺ) كدليل على وفائهم له . ولما طلب اليهود هذه الرهائن رفض الحلفاء وساءت العلاقة بين الطرفين ،ولم يخامر كل منهما الشك في صحة ما قاله

نعيم ، مما دفع اليأس إلى قلوب قريش وحلفائها ،وبخاصة حين هبت ريح عاتية عصفت بمعسكرهم ،فقرر أبو سفيان رفع الحصار والرحيل عن المدينة .

وهكذا انتهت أخطر حملة وجهت إلى المسلمين دون أن تكلفهم خسائر تذكر في الأرواح ،وقد تحولوا بعدها من موقفهم الدفاعي إلى الهجوم ،ويروى البعض أن النبي (ﷺ) قال أثر رحيل هؤلاء عن المدينة "الآن نغزوهم ولا يغزوننا" أبى عدائه عنوان (صلح الحديبية) ،أمر أصحابه في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة بالمسير إلى مكة لأداء العمرة ،فلبوا دعوته ،وخرج بمن معه من المسلمين الذين بلغ عددهم ألف وأربعمائة قاصدين مكة ،وساق قوم منهم الهدى (الذبائح) ،دلالة على أنهم لا يقصدون حربا ولا يبتغون إلا زيارة البيت الحرام.

وفي أثناء الطريق بلغهم أن قريشا تأهبت لمنعهم من دخول مكة ،ومازال سائرا حتى وصل إلى مكان يقال له "الحديبية" (أسفل مكة على بعد تسعة أميال من مكة) لطمئن إلى الإقامة به . وأوفد الرسول (ﷺ) إلى قريش عثمان بن عفان ليؤكد لها أن المسلمين لم يأتوا لمحاربتهم وإنما لزيارة بيت الله الحرام ،لكن قريشا احتجزت عثمان بن عفان عندها وأشيع بين الناس أنه قتل فبايع المسلمون النبي (ﷺ) على حرب قريش ،ببيعة تعرف ببيعة الرضوان ،وقد نزل في أمر هذه البيعة قول الله تعالى « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ،فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ،ومن أوفى بما عاهد عليه الله ،فسيؤتيه أجرا عظيما . ولما علمت قريش بهذه البيعة خشيت بأس المسلمين ،انتهت السفارات بينهما وبين الرسول (ﷺ) "بعقد الصلح" وكان من أهم شروطه :أن يؤجل المسلمون دخول مكة وأداء العمرة إلى العام القادم . ،وتوقف الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنوات ،وأن يعيد الرسول (ﷺ) من يأتيه من قريش مسلما بدون أذن وليه ،ولا تلزم قريش برد من يأتي من عند محمد (ﷺ) .وأن يعود الرسول عليه السلام ومن معه هذا العام من غير عمرة على أن يعود في العام التالي ،فيدخل الرسول مع أصحابه مكة بعد أن تخرج منها قريش ،ويقيم الرسول ومن معه ثلاثة أيام وليس معه من السلاح

إلا السيوف ف أغمادها ومن أحب الدخول فى حلف مع قريش فله ما أراد ،ومن أراد الدخول فى حلف مع الرسول فله ما أراد .

كان هذا الصلح دليلا على بعد نظر الرسول وحسن سياسته فأصبحت قريش ترى أن المسلمين بزعامة الرسول (ﷺ) وصاروا قوة لها شأنها ولجبة الاحترام ،كما فطن بعض عظمائها إلى أن الإسلام لا محالة منتصر فبادروا بالدخول فيه والهجرة إلى المدينة ،ومن هؤلاء خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

هذا فضلا عن أن الهدنة التى تقررت فى هذا الصلح أتاحت للنبى (ﷺ) أن يتفرغ لمواجهة اليهود وتأمين دعوته من شرهم ،أضف إلى ذلك أنها مكنته من توسيع دائرة الدعوة إلى الإسلام ونقلها إلى كثير من العناصر والأماكن فخاطب النبى (ﷺ) بشأنها الملوك والأمراء ورؤساء القبائل وكان رسله يذهبون ويرجعون وهو آمنون شر قريش وحلفائها .

وهكذا أتاح صلح الحديبية للمسلمين القيام بجهود فعالة لتأمين أنفسهم ونشر دعوتهم داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ،خاصة بعد أن نزل قول الحق تبارك وتعالى (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**) .

* ***غزوة خيبر*** ***((٧هـ/ ٦٢٨م))*** :-

كان الرسول (ﷺ) بعد صلح الحديبية قد آمن شر الأخطار التى تهدد المدينة من ناحية الجنوب حيث تقيم قريش وحلفاؤها ،فأن الخطر ظل يهددها من ناحية الشمال حيث توجد تجمعات يهودية كبيرة تقيم فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى .

وتقع خيبر شمال المدينة ،وهى واحة كبيرة حصينة بها نخل كثير ومزارع واسعة وحصون عالية مقامة بين النخيل والحقول على مرتفعات من الأرض تزيدها حصانة ومناعة ،ولذلك ظن اليهود أن الرسول (ﷺ) لن يستطيع غزوها .ولكنه فاجأهم وحطم مقامتهم قبل أن يلتقوا النجدة من حلفائهم . وتمكن المسلمون من فتح بعض حصونهم عنوة

،كما أخذوا البعض الآخر صلحا ،ووافق الرسول (ﷺ) على أن يبقى أهل خيبر بالأرض يزرعونها مناصفة ،النصف للمسلمين والنصف الآخر لليهود .

لما علم اليهود في القرى المجاورة لخيبر باستسلام إخوانهم وحسن معاملة النبي (ﷺ) لهم بعد هزيمتهم ،وافقوا على الخضوع له بنفس الشروط التي عامل بها يهود خيبر وبذلك آمنت الأخطار من الشمال كما أمنتها من الجنوب على أثر صلح الحديبية .

☆ كتب الرسول إلى الملوك والأمراء داخل جزيرة العرب وخارجها :-

رأى النبي (ﷺ) بعد تأمين المدينة من الأخطار التي كانت تهددها من الجنوب والشمال أن يوجه دعوته إلى الملوك والأمراء المعاصرين له داخل جزيرة العرب وخارجها ،فأوفد رسله إلى مختلف البلاد يحملون كتبا منه إلى هؤلاء الملوك والأمراء يدعوهم فيها لاعتناق الإسلام ،فاستجاب أغلب الأمراء العرب لهذه الدعوة وبخاصة أمراء اليمن والبحرين وعمان . أما الملوك والحكام من غير العرب فقد اختلفت مواقفهم من هذه الكتب ،إذ أظهر بعضهم استياء شديدا مثل كسرى فارس الذي مزق كتاب النبي (ﷺ) فمزق الله ملكه .

أما البعض الآخر مثل : هرقل إمبراطور الروم ،ونجاشي الحبشة والمقوقس حاكم مصر من قبل هرقل فقبلوا كتب الرسول (ﷺ) ولم يظهروا أي استياء لما لمسوه من صدق دعوة النبي (ﷺ) الذي يتضح من النداء الذي وجهه في كتبه إلى كل منهم وهو "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ،إلا نعبد إلا الله ،ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا لبعض أربابا من دون الله ،فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون" .

ولاشك أن مكاتبة النبي (ﷺ) لهؤلاء الملوك والأمراء كانت خطوة على جانب كبير من الأهمية فهي نقطة تحول هامة في تاريخ بلاد العرب ،فبعد أن كانت تلك البلاد مفككة العرى ،وتخضع بعض أطرافها للنفوذ الأجنبي ،استطاع بسياسته التي أتبعها لتعميم الدعوة الإسلامية أن يمهد السبيل لتوحيد بلاد العرب سياسيا ودينيا..

* **غـزوة مـــؤته** ((٨هـ/ ٦٣٠م)) :-

يرجع سبب هذه الغزوة إلى أن النبى (ﷺ) كان قد بعـث رسـولا إلـى حـاكم بصرى بالشام فأعترضه أحد أمراء الغساسنة وقتله . فوجه النبى (ﷺ) إليهم جيشا قوامـه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة مولاه زيد بن حارثة فلقيته جموع إمبراطور الروم عند مؤته وهى قرية فى حدود الشام الجنوبية فظل يقاتل حتى قتل ، فخلفه جعفر بن أبى طالب فى القيـادة ،غير أنه لم يلبث أن قتل ،وخلفه عبد الله بن رواحة فقتل ووقع اختيار المسلمين على خـالد بن الوليد لتولى القيادة ،فقام بمناورة حربية مكنته من الانسحاب إلى المدينة انسحابا منظما وإنقاذ جيشه من هلاك محقق . ولذلك أطلق عليه الرسول (ﷺ) " سيف الله المسلول"

* **فتـح مـكة** ((٨هـ/ ٦٣٠م)) :-

أعان القريشيون حلفاءهم من قبيلة بكر بالسلاح والرجال فتمكنـوا مـن هزيمـة قبيلة "خزاعة" المتحالفة مع المسلمين ،مما حمل الخزاعيين على طلـب المسـاعدة مـن الرسول (ﷺ) وكان هذا الموقف من جانب قريش بعد نقضـا لصلـح الحديبيـة ،فـرأى الرسول (ﷺ) أن ينتهز الفرصة لإخضاع قريش وتحقيق رغبته فى دخول مكة .

حرص الرسول (ﷺ) على أن يتم هذا الفتح دون إراقة دماء ،فأرسل إلـى أهـل البادية وغيرهم من المسلمين يدعوهم إلى المدينة ،وبلغ عدد الذيـن اجتمعـوا إليـه فـى النصف الأول من شهر رمضان سنة ٨هـ عشرة آلاف ، سار بهم قـاصدا مكـة ،وقـد وقعت فى منتصف الطريق أثناء سير النبى (ﷺ) إلى مكة عدة حوادث تدل على رغبـة قادة قريش فى الاستسلام نخص بالذكر منها لقاء الرسول (ﷺ) مع عمه العباس بن عبـد المطلب وأبى سفيان بن حرب الذى أعلن إسلامه ومنحه الرسول (ﷺ) أمانا يتضمـن أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ،ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فـهو آمن . ثم عاد أبو سفيان إلى مكة داعيا قريش إلى الإسلام .

ولما دخل الرسول (ﷺ) مكة ،لم يقع قتال يذكر بين المسلمين والقريشـيين بـل أقتصر الأمر على مناوشات يسيرة ،ثم جاءته قريش واسـلموا بيـن يديـه . وعاملـهم

الرسول (ﷺ) معاملة تنطوى على كثير من التسامح ،فأصدر عفوا عاما عنهم ،كان تغلب المسلمين على قريش وبسط سلطانهم على البيت الحرام الذى يقدسه جميع العرب ،من اهم الأسباب التى عجلت بانضواء جميع سكان شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ،لأن القبائل ترعاهم عناية الله ،فدخل أغلبها فى دين الله أفواجا .

* غزوة حنين ((٨هـ/ ٦٣٠م)) :-

رأت القبائل العربية التى تقيم على مقربة من مكة أن الرسول (ﷺ) لابد أن يفكر فى مهاجمتها بعد أن قضى على مقاومة قريش ،لذلك صممت على محاربتة واتفقت قبيلتا هوازن وثقيف على السير إلى مكة لمهاجمة المسلمين .

ولما علم الرسول بذلك خرج على رأس الجيش الذى فتح مكة ،وأنضم إليه ألفان من القريشيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح ،ولما أنتهى الرسول (ﷺ) إلى حنين واد بينه وبين مكة ثلاثة أميال بالقرب من الطائف) فى ١٠ شوال سنة ٨هـ ،عسكر بها .أما هوازن وثقيف فكمنوا فى شعاب الوادى ولم يلبث المسلمون أن فزعوا وأختل نظامهم حين خرج اليهم العدو وأنقض عليهم ،ففر كثير منهم ثم أعاد الرسول (ﷺ) تنظيم صفوف المسلمين وأستأنف القتال ،فأوقع المسلمون الهزيمة بهوازن وثقيف ولم يلبث أن سعى وفد من زعماؤ هوازن لمقابلة النبى (ﷺ) حيث أعلنوا إسلامهم .

أما قبيلة ثقيف فقد انسحبت إلى الطائف وتحصنت بها فحاصرها جيش المسلمون بقيادة النبى (ﷺ) قرابة شهر لكنه أضطر لرفع الحصار بسبب حلول شهر ذى القعدة ،وهو من الأشهر الحرم التى لا يجوز فيها القتال وعلى الرغم من ذلك فقد رأى زعماء هذه القبيلة أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا واستقر رأيهم فى السنة التاسعة للهجرة على أن يبعثوا إلى الرسول (ﷺ) بالمدينة وفدا لإعلان دخولهم فى الإسلام . وقد فرح الرسول كثيرا حين حضر إليه هذا الوفد وأكرم أعضاءه غاية التكريم وسرعان ما دخل أهل الطائف فى دين الله وأصبحوا بعد إسلامهم من أخلص العرب للدين الإسلامى وأشدهم حرصا للزود عنه .

* **غــزوة تبــوك ((٩هـ/ ٦٣٠م)) :-**

لما عاد النبى (ﷺ) إلى المدينة بعد رفع الحصار عن الطــائف رأى أن يقضــى على الآثار التى خلفتها غزوة مؤته ،ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أى تهديد مــن قبل الروم بخاصة بعد أن بلغه أنهم قاموا بحشد قوات كبيرة وأغروا بعض القبائل العربيــة القاطنة جنوبى الشام بالانضمام إليهم ومهاجمة المسلمين فأستقر رأيه على غزو بلاد الشام الجنوبية المتاخمة لأعالى الحجاز ،لتوطيد نفوذه بتلك المنطقة ودعوة أهلها إلى الإسلام .

قامت عدة عقبات فى سبيل إعداد الجيش الإسلامى لهذه الغزوة مما جعل البعــض يطلقون عليه "جيش العسرة" ومن هذه العقبات : ما تعرض له المسلمون من جدب خــلال الأشهر الأولى من العام التاسع للهجرة ،وشدة حرارة الصيف التى جعلــت مــن الســفر الطويل عبر الصحراء إلى حدود الشام وقتذاك أمرا بالغ المشقة ،هذا فضلا عــن أن كثــير من المنافقين أخذوا يثبطون همم الناس ويخوفونهم من لقاء الروم مذكرين إيــاهم بهزيمــة مؤته . وعلى الرغم من كل هذه الظروف صمم النبى (ﷺ) على الضرورة بالقيام بــهذه الغزوة ،وحث المسلمين على البذل والتضحية ،فتأهب للخروج معه نحى ثلاثين ألفا ،وقــدم كثير من الصحابة تبرعات جليلة لأعداد هذا الجيش ،فأنفق أبو بكر جميع ما بقى عنده من ماله ،وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها ،قيل : كانت ثلاثمائة وألف دينار .

سار النبى (ﷺ) بهذا الجيش حتى وصل قرية تبوك قرب الحدود الشامية فوجــد الروم قد انسحبوا داخل حدودهم ،فمكث بضعة عشر يوما قبل أن يرجــع إلــى المدينــة ،أخضع أثناءها القبائل العربية بهذه المنطقة لسلطانه السياسى حيث دخــل بعضــها فــى الإسلام ووافق البعض الأخر مم لم يرغبوا الدخول فيه على دفع الجزية .

• **تحقيق الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب :-**

ظهور بوادر الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب بعد عودة الرســول (ﷺ) من تبوك فى السنة التاسعة للهجرة ،حيث أخذت القبائل العربية توفد من قبلها فــى هــذه السنة وفودا إلى رسول الله (ﷺ) تعلن ولاءها له ودخولها فى الإسلام عن طوع واختيــار

،وكان عليه السلام يحرص على أن يلبس أحسن ثيابه عند مقابلة أعضـــاء هــذه الوفــود ويأمر أصحابه أن يفعلوا مثله . كما كان يمنحهم بعض الجوائز عند انصرافهم من المدينـة عائدين إلى بلادهم نظرا لما كان يتكبده هؤلاء من نفقات السفر ومشقاته .

وكان أعضاء الوفود العربية الذين يأتون إلى المدينة ليحظـوا بمقابلـة الرســول (ﷺ) يتعلمون من شعائر الإسلام فإذا ما عادوا إلى مواطنهم نشروا الدعوة الإسلامية بين أهاليهم وقاموا بتعليمهم فرائض الإسلام وأحكامه ،وكتان بعــض هــذه الوفــود يعــودون حاملين كتبا من الرسول (ﷺ) مبينا لهم ما يفرضه الإسلام عليهم من واجبات ،وأحيانــــا كان يبعث معهم الرسول (ﷺ) بعض صحابته ليقوموا بتعليم القبائل تعاليم الدين وأحكامه.

- <u>حجة الوداع ووفاة الرسول (ﷺ)</u> :-

لما اطمأن الرسول (ﷺ) إلى انضواء جزيرة العرب تحت لواء الإسلام ،أســـتقر رأيه على الخروج للحج ،فدعا المسلمين إلى أداء هذه الفريضة معه ،فلبوا دعوته .

وفى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة من السنة العاشــــرة للــهجرة ،ســار الرسول (ﷺ) من المدينة فى جمع كبير من المسلمين ،قاصدا مكة .وعند جبل عرفـــات ألقى على المسلمين خطبة تعتبر دستور الإسلام ،ونمن رسالة النبى (ﷺ) وهو بعرفـــات حيث أنزل الله تعالى فى سورة المـــائدة : " **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** " .

ولم يكد يمضى شهران على عودة الرسول (ﷺ) من حجة الوداع حتـــى اعـــتراه المرض لكن ذلك لم يمنعه من أن يسير إلى المسجد ليصلى بالناس . وظل على هذه الحال حتى أشتد به المرض ،فطلب إلى أبى بكر أن يصلى بالناس .فصلى بهم عدة أيـــام ،ولــم يلبث أن توفى الرسول (ﷺ) فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ســنة (١١هـــ) فى الثالثة والستين من عمره بعد أن بلغ رســالة ربه وترك أمته على المجمـــة البيضـــاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

الفصل الثالث

((الدولة العربية الإسلامية عصر الخلفاء الراشدين))

* **تمهيد عن الخليفة والخلافة :~**

أطلق لفظ الخليفة على الصحابي الذى بايعه المسلمون بعد وفاة رسول الله (ﷺ) ليتولى شئونهم ويدير مصالحهم وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه فكان يقال له خليفة رسول الله (ﷺ) ،وعندما بويع عمر بن الخطاب بعده بالخلافة نادوه خليفة خليفة رسول الله (ﷺ) .ثم رأوا أن ذلك سيؤدى إلى طول وثقل عندما يكثر عدد الخلفاء ،فاتفقوا على أن يسمى الخليفة بأمير المؤمنين .

أما لفظ الخلافة فقد تحدث ابن خلدون عن نوع الحكم فى الأمة فقال : "إن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ،والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .

والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها . إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا .

فالخلافة تتعلق بشئون الدين وشئون الدنيا لأن الإسلام جاء لصلاح الدنيا والآخرة

وقد أجمعت الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول (ﷺ) على وجوب إقامة الخليفة ،ولم يشذ عن الإجماع إلا بعض الخوارج وبعض المعتزلة فقالوا بعدم الحاجة إلى وجود خليفة إذا صلحت الأمة وعملت بالكتاب والسنة ،وقال الشيعة بأن الخلافة من المصالح العامة التى لا تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم.

والأصل أن يكون للمسلمين خليفة واحد ،وإن تعددت الخلافة فى بعض فترات التاريخ الإسلامى وكانت عاملا من عوامل التنافس والتباغض بين المسلمين ومكن عدوهم من رقابهم .

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يختار خليفة .

فقال معظم الأنصار من سكان المدينة :إن الأمة تختار من تشاء ليكون خليفة لـها على أن يكون قادرا على حراسة الدين وسياسة الدنيا لا فرق فى ذلك بين القرشى وغيره.

وقال أغلب المهاجرين : أن يكون الخليفة باختيار الأمة على أن يكون من قريش.

وقال أغلب بنى هاشم ومن شايعهم :إن الأولى بها قرابة رسـول (ﷺ) والمقـدم فيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد تولى الخلافة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) أربعة من الصحابة هم : أبـو بكـر الصديق ، عمر بن الخطاب ، عثمان بن عفان ،وعلى بن أبى طالب ،وهم جميعـا مـن قريش وأطلق عليهم لقب الراشدين .

وقد تم انتخابهم جميعا عن طريق الشورى المتمثلة فى الأغلبية سـواء الأغلبيـة العامة كما حدث بالنسبة لأبى بكر أو الأغلبية الخاصة كما حـدث بالنسـبة لعمـر أبـن الخطاب وعثمان بن عفان .

ومتى أتفق المسلمين على واحد بايعوه على السمع والطاعة وعلى العمل بكتـاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) ويجب على المسلمين بذلك طاعته وتنفيذ أوامره ما دامـت لا تخالف كتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) تنفيذا لقول الله تعالى : "يأيها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" . وقول الرسول (ﷺ) " من أطاعنى فقـد أطـاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعـص الأمـير فقـد عصانى" وفى حديث وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه" "بايعنـا رسـول الله (ﷺ) على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ولا ننـازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا" والبواح الظاهر المكشوف الذى لا تأويل فيه .

فطاعة أوامر الخليفة واجبة التنفيذ ما دامت لا تخالف صريح القـرآن ولا السـنة الطاهرة أو أمر الخليفة باجتهاد منه أستند فيه إلى الكتاب والسنة .

أما إذا خالف أمر الخليفة صريح القرآن أو السنة فلا طاعة له لقـــول رســـول الله (ﷺ) " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

وقوله "فإذا أمرت بمعصية فلا سمع ولا طاعة " مثل أن يأمر بشرب خمر أو ترك صلاة فيجب على المسلم ألا ينفذ أمره بل ينفذ أمر الله ولا يخاف لومه لائم .

وعلى الخليفة أن يبذل كل جهده وطاقته في الحرص على مصالح المسلمين الدينيـة والدنيوية ورعايتهم وحمايتهم وألا يفرط في ذلك أو يتوانى فيه وإلا عرضه ذلك لما توعده به رسول الله (ﷺ) في قوله " ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحـــه إلا لـــم يجد رائحة الجنة" وقوله (ﷺ) " من ولى آمر من أمور المسلمين شيئاً ثـــم لـــم يحطـــهم بنصحه كما لم يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار" .

ندعو الله جل علاه ن يأخذ بنواصي ولاة أمورنا إلي الطريق المستقيم وأن يلهمـــهم الرشاد والسداد ويوفقهم للاهتداء بسيرة النبي (ﷺ) والإقتداء بحيـــاة الخلفـــاء الراشـــدين رضوان الله عليهم أجمعين إنه سميع مجيب الدعاء .

((✿ خلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ✿))

إن سلوك الإنسان في حياته والأعمال التي يضطلع بها خلال هذه الحياة والصفات الثابتة التي يتصف بها وتلازمه هي المرآة الصادقة التي يستطيع أولو الألباب أن يحكموا بها على فرد من الأفراد ،وأن يقوموه حق التقويم ،وأن يعرفوا مدى صلاحيته أو عدم صلاحيته عندما يريدون أن يسندوا إليه عملا من الأعمال أو منصبا من المناصب .

ويزداد الإمعان والتحري في اختيار الأصلح عندما يكون المنصب هو رئاسة الدولة وتولي أمورها وتسيير شئونها ،وخاصة في ظروف مملوءة بالاضطراب وتكاتف الأعداء داخليا وخارجيا عليها مما يلزم أولي الألباب فيها بدقة التحري وحسن الاختيار لأن في ذلك السلامة لهم ولغيرهم وتحقيق تأمين الطريق لهم ليواصلوا مسيرتهم لاسيما إذا كانوا ذوي أهداف في حياتهم من أجل خيرهم وخير الإنسانية .

وقد وجد المسلمون الأولون أنفسهم في هذا الموضع عندما توفي الرسول (ﷺ) فاختاروا لخلافته أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

☆ فمن هو أبو بكر الصديق ؟

☆ وما هي الأسباب التي جعلت التي جعلت المسلمين في نهاية المطاف يجمعون على اختياره ؟

☆ وهل أصاب المسلمون في ذلك أم أخطئوا ؟

☆ ثم كيف استطاع أبو بكر أن يحقق للإسلام والمسلمين الآمال التي عقدوها عليه، بل زاد عليها خلال فترة حكمه الوجيزة ؟

تلك بعض الأسئلة والاستفهامات التي ترد سريعا على المخاطر عندما يتصدى الإنسان للحديث عن الصديق ،ونحاول من خلالها أن نستشف اللمحات الصادقة الواقعية لحياة الصديق ومجريات الأمور في عصره رضي الله عنه .

• فأبو بكر الصديق :-

هو عبد الله بن أبى قحافة من قبيلة تيم بن مسرة بن كعب ويلقب بعتيق لعتقه من النار وذكر للقبه تعليلات أخرى ،ويذكر السيوطى أن لقب الصديق كان يلقب به فى الجاهلية لصدقه ثم يعود فيذكر ما يؤدى إطلاقه عليه صبيحة ليلة الإسراء ،وأم أبى بكر هى أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن تيم بن مرة وهى بنت عم أبيه .

وقد ولد أبو بكر بعد الرسول (ﷺ) بسنتين وأشهر نشأ وترعرع بمكة فكان لا يخرج منها إلا للتجارة ،وكان ذا مال وفير قدر بأربعين ألف درهم قبل إسلامه ،وهو ممن أتصل شرفه فى الإسلام بشرفة فى الجاهلية فقد كانت المغارم والديات لتيم ابن مرة فإذا احتملها صدقته قريش واحتملتها معه فآلت إلى أبى بكر فى الجاهلية عندما أشتد ساعده وتولى الزعامة فى قبيلته لما أتصف به من سلامة الطبع ورجاحة العقل ،ولذلك لم يشارك قومه فى كثير من عقائدهم وعاداتهم فقد ذكر أنه لم يكن يشرب خمرا فى جاهلية ولا إسلام مع شيوع ذلك فى الجاهلية وعندما سئل عن ذلك قال : كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى فإن من شرب الخمر كان مضيعا فى عرضه ومروءته وقد أوجز ابن هشام أوصافه بأنه: "كان رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ،وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته" .

ولاشك أن هذه الصفات التى يتحلى بها أبو بكر مع التقارب فى السن والمسكن والاشتراك فى العمل بالتجارة كانت من الأمور التى أقامت مودة ومحبة بين الرسول (ﷺ) وأبى بكر قبل البعثة ومهدت لتؤلف بينهما وتوثق الألفة برباط الصداقة ،فعندما بعث الرسول عليه السلام كان أبو بكر أعلم الناس به فكان أول من آمن وصدق به من الرجال دون شك أو تردد وقد صور الرسول (ﷺ) إسلام أبى بكر وتقبله له بقوله : "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ،إلا أبا بكر ما عتم ،عنه حين ذكرته وما تردد فيه" .

ويتجلى لنا صدق إيمان أبى بكر فى مسارعته إلى نصرة الدين الجديد وجذب العناصر الصالحة لاعتناقه والإيمان به فقد أسلم بدعوة أبى بكر عدد كبير من كبار الصحابة الذين لهم شأن بعد ذلك منهم عثمان بن عفان ،والزبير بن العوام ،وعبد الرحمن بن عوف ،وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من السابقين الأولين إلى الإسلام .

ولم يكتف أبو بكر بأن يدعو إلى الإسلام بلسانه وفكره ويعمل على زيادة الجماعة المؤمنة به فقط بل جاوز ذلك إلى بذل ماله وإنفاقه بسخاء فى سبيل استنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء ،وتخليصهم مما يعانون من آلام جزاء إيمانهم ،فقد ذكر ابن عمر أن أبا بكر يوم أسلم كان فى منزله أربعون ألف درهم فخرج إلى المدينة فى الهجرة وماله غير خمسة آلاف كل ذلك ينفقه فى الرقاب والعون على الإسلام وتذكر عائشة أنه أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله" .

وعندما اشتدت قريش على رسول الله (ﷺ) وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه يكاد أن يخنقه قام أبو بكر يدافع عنه وهو يبكى ويقول :أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ حتى أنصرفوا عنه وقد شرخ رأس أبى بكر وهو يدافع عن رسول الله .

ولما ضاقت مكة على أبى بكر وأصابه فيها الأذى أذن له الرسول فى الهجرة فسار من مكة يوما أو يومين ولكن ابن الدغنه سيد الأحابيش قدر ما يقوم به أبو بكر من فعل المعروف والعون على النوائب فأجاره غير أن قراءة أبى بكر للقرآن فى مسجده بجوار بيته لصوته الرقيق العذب كادت تفتن الصبيان والعبيد والنساء ،فاشتكت قريش إلى ابن الدغنة من أبى بكر ،فطلب منه ابن الدغنة ألا يستعلن بقراءته فرد عليه أبو بكر جواره ورضى بجوار الله .

وصبيحة ليلة الإسراء كان موقف الإيمان العميق الصادق لأبى بكر الذى ثبت كثيرا من المؤمنين والذى تجلى فى قوله لمن جاء يخبره بحديث الإسراء :والله إن كان قاله لقد صدق ،ثم ذهب إلى الرسول وطلب منه أن يصف له بيت المقدس فجعل الرسول

يصفه وأبو بكر يقول :صدقت أشهد أنك رسول الله وعند ذلك سمى الرسول أبا بكر "الصديق" ولنا أن نتصور النتائج التى كانت ستحدث لو كان موقف أبى بكر غير ذلك .

وقد ظل أبو بكر ملازما للرسول قبل هجرته إلى أن كانت الهجرة فكان له شرف مصاحبة رسول الله فى هجرته مع ما يحوط بالهجرة من فداء وتضحية وتعرض للمخاطر والأهوال ،ولكن ذلك هين فى سبيل نصرة الدعوة فشرفه الله بأنه "ثانى أثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا" .

وبعد الهجرة كان أبو بكر الساعد الأيمن للرسول شهد معه بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها وكان ممن ثبت يوم أحد وحنين مع الرسول وقد فر الناس ،وفى غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله دفع الرسول إلى أبى بكر رأيته العظمى وكانت سوداء ،ولعل فى ذلك إشارة إلى إسناد القيادة العسكرية إليه . وبعد عودته وإقبال الوفود على الرسول أمر عليه السلام أبا بكر على الحج فى أول حجة كانت فى الإسلام ،فلما أشتد المرض على رسول الله قال :مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وهكذا تدفع الراية إلى أبى بكر فى أخر غزوة للرسول ،ثم يؤمر على الحج ،ثم يؤمر بإمامة المسلمين فى الصلاة فى حياة الرسول ،وعندما غاب أبو بكر عن إحدى الصلوات وخرج عبد الله بن زمعة من عند رسول الله فقال :قم يا عمر فصل بالناس وكبر عمر فسمعه رسول الله (ﷺ) فقال : أين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ،يأبى الله ذلك والمسلمون .

كل هذه إشارات وتلميحات من الرسول إلى منزلة أبى بكر وسيكون لها وزنها الكبير فى اختيار من يخلف الرسول (ﷺ) فإذا أضفنا إلى ذلك ما أمتاز به أبو بكر من قوة تحمل الحقائق القاسية التى تذهب أشداء الرجال كموت رسول الله ،ثم نظراته البعيدة العميقة إلى المستقبل وما يحمل من أحداث جسام حين يعلن موت الرسول ببيان حقيقة الرسول وحقيقة الدين فيقول : "وما محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله المشركين"

كل هذا يبين لنا أبا بكر هو الرجل الذى يرشحه سلوكه وصفاته وحسن تصرفاته وتقدير رسول الله له ليكون الخليفة الذى يجمع المسلمين على اختياره فكيف تم ذلك ؟

☆ **اختيار ابى بكر خليفة المسلمين** :~

هذا موضوع كثرت فيه الروايات وتعددت واختلفت حتى تضاربت ،زاد بعضها وأوجز بعضها ،وأضاف إلى روايته ما أحب وأرضى رغبته ،وبتطاول الأيام قبل أن تسجل هذه الروايات أزداد البعد بينها حتى تضاربت الآراء فيها فوصل إلينا وقد صار الوصول إلى الحقيقة فى هذا الأمر شاقا وعسيرا .

وقد أتاح التعارض بين الروايات ،والمغالاه فى بعضها ،للمعترضين وأصحاب الهوى ضد الإسلام والحاقدين عليه فى كل عصر ومكان حجة يعتصمون بها ليتنفسوا من خلالها سمومهم ،ويوجهوا سهامهم المسمومة إليه ليوهنوا من أقوى ركيزة فى الإسلام ،وهى الشورى فى اختيار الحاكم الأعلى للدولة لكى يثيروا العصبية القبلية أو النزعة الإقليمية أو اختصاص ذلك بأسرة أو غيرها ... الخ وهم يمنعون فى ذلك مع نص القرآن الكريم صراحة بأن المسلمين أمرهم شورى بينهم ،ومع تطبيق الرسول عليه السلام لهذه القاعدة بعدم النص على من يخلفه .

ولكنا بحمد الله نلتزم روح العصر النبوى الذى هو قمة السمو البشرى لنصل إلى لب الحقيقة من خلال الروايات المختلفة والمتعارضة والتى تؤكد بوضوح وجلاء سيادة روح الشورى فى اختيار الحاكم .

فقد حدث عندما توفى الرسول (ﷺ) أن شغل آل الرسول وبعض المهاجرين بجهازه ،وكان الأنصار هم أسرع من فكر فى اختيار من يخلف الرسول ويتولى شئون المسلمين ،واجتمعوا من أجل اختيار خليفة للمسلمين فى سقيفة بنى ساعدة وبدؤا يبحثون عمن يتولى هذا الأمر ،وكان سعد بن عبادة سيدا للخزرج وكان مريضا فأحضروه إلى اجتماعهم وبدأ يتكلم فيهم مبينا أحقية الأنصار لتولى إمارة المسلمين ،وان عليهم أن يختاروا من بينهم من يخلف الرسول .

وكان مما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا معشر الأنصار لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ،إن محمدا عليه والسلام لبث بضعة عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما أمن به من قومه إلا رجال قليل ،والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ،ولا أن يدفعوا عن أنفسهم حينما عموا به حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ،وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب ،وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس" .

وقد أقتنع الأنصار برأى سعد وصوبوه وقالوا : "توليك هذا الأمر فإنك فينا مقنعه ولصالح المؤمنين رضاء" غير أنهم فكروا بالنسبة لموافقة المهاجرين على ذلك وقالوا فإن أتت مهاجرة قريش وقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعد -وهذا التفكير يدل مع عدم حضور أحد من المهاجرين آنذاك على تمسك الأنصار بالشورى بين المسلمين وإبداء كل واحد لرأيه .

وقد أجاب بعض الأنصار ،ولكن ذلك ليس مستقيما بالنسبة لقيادة الأمة والإدارة الحازمة الرشيدة ،ولذلك قال سعد بن عبادة عندما سمع هذا الرأى : هذا أول الوهن .

هذا ما دار بين الأنصار قبل أن يحضر أحد من المهاجرين ووصل خبر اجتماع الأنصار إلى عمر بن الخطاب فأرسل إلى أبى بكر يطلب منه أن يخرج إليه وكان مشغولا بتجهيز رسول الله مع آل بيته ،فحضر بعد التردد ،وعندما علم باجتماع السقيفة ذهب إليهم مسرعا مع عمر وقابلهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح فأنضم إليهم ،وعندما إجتمعوا مع الأنصار أراد عمر أن يتكلم ولكن أبا بكر بدأ الحديث فذكر البعثة النبوية والرسالة الإسلامية ،وإيمان المهاجرين ،ونصرة الأنصار .

فقد تشهد أبو بكر وقال إن الله جل ثناؤه : "بعث محمد بالهدى ودين الحق فدعا إلى الإسلام فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاما ،والناس لنا فيه تبع ،ونحن عشيرة رسول الله (ﷺ) ونحن مع ذلك أوسط العرب أنسابا ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة . وأنتم أيضا والله الذين أووا ونصروا وزراؤنا في الدين ووزراء رسول الله (ﷺ) ،وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء ،والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه فأنتم لأحب الناس إلينا أكرمهم علينا ،وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمر الله عز وجل ولما ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضي الله عنهم ،وأحق الناس فلا تحسدوهم وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة ،والله مازلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين ،وأنتم المؤثرون على أنفسهم إلا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم ،وأبعد إلا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله إليهم ،وإنما أدعوكم إلي أبي عبيده أو عمر وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر وكلاهما له أهل" .أنتم الوزراء ،نحن الأمراء .

وهنا يبين عمر وأبو عبيدة أحقية أبي بكر لهذا الأمر من دون المسلمين جميعا فيقولا: "ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثاني أثنين ،وأمرك رسول الله (ﷺ) بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر " .

وهنا يقر الأنصار بأحقية أبي بكر إلا أنهم يخافون من المستقبل بأن يولى هذا لكما من ليس له أهل فيقولون: "والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنا لكما وصفت يا أبا بكر والحمد لله ،ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا منكم ،ولا أرضى عندنا ولا أيمن ولكنا نشفق مما بعد اليوم ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم فلو جعلتم اليوم رجلا منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا على أنه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار فإذا هلك اخترنا من المهاجرين أبدا ما بقيت هذه الأمة كان ذلك أجدر أن يعدل في أمة محمد (ﷺ) وأن يكون بعضنا يتبع بعضا فيشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه القرشي".

فيعود أبو بكر ويبين أحقية المـــهاجرين وفضـــل الأنصـــار وأن الأمـــراء مـــن المهاجرين والوزراء من الأنصار :فقد رضيكم الله تعالى أنصارا لدينه ورســـوله وجعـــل إليكم هجرته وفى أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنـــا أحـــد بمـــنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور .

وهنا تذكر الروايات إصرار بعض الأنصار على أن يكون هنا أميران ويقول ســعد بن عباده منا أمير ومنكم أمير فيقول عمر بن الخطاب : يا معشر الأنصار ألستم تعلمـــون أن رسول الله (ﷺ) قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكـــر؟ فقال الأنصار : "نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر" كما يحذر أبا عبيدة من التفرقـــة والاختـــلاف فيقول : يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدل وغير .

وتهز هذه الكلمات بشير بن سعد وكان من سادات الخزرج فيقـــول :يـــا معشـــر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ما أردنـــا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ،والكدح لأنفسنا ،فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلـــك إلا إن محمد من قريش وقومه أحق به وأولى ،وأيم والله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمـــر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

وهنا أغتنم أبو بكر ذلك فقال :هذا عمر وهذا أبو عبيده فأيهما شئتم فبايعوا ،فقـــالا :لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى أثنين إذ هما فـــى الغـــار وخليفة رسول الله على الصلاة والسلام ،والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغـــى لـــه أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ أبسط يدك نبايعك فلما ذهبا ليبايعاه ســـبقهما إليـــه بشير بن سعد فبايعه .

وهكذا تبدو لنا المشاورات التى دارت فى السقيفة فيمن يولـــى ثـــم الترشـــيح ثـــم الاختيار بعد التفضيل ثم البيعة ،وقد تتابع الأنصار بعد ذلك فبايعوا أبا بكر .

وتذكر الروايات الكاذبة بعد ذلك امتناع سعد بن عبادة عن بيعة أبى بكر وتـــهديده بامتشاق الحسام وعدم صلاته وحجة مع المسلمين ،لكن الطبرى يذكر رواية أميـــل إلـــى

الأخذ بها وهى أن سعد ابن عبادة قد بايع أبا بكر فقد روى عن جابر أن سعد بن عبادة قال يومئذ لأبى بكر "إنكم يا معشر المهاجرين حسدتمونى على الإمارة وإنك وقومى أجبرتمونى على البيعة فقالوا : إنا لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت فى سعة ،ولكنا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة فيها لئن نزعت يدا من طاعة أو فرقت جماعة لنضربن الذى فيه عيناك ،كما يذكر الطبرى قبل ذلك أن أبا بكر قال موجها الحديث إلى سعد ،ولقد علمت يا سعد أن رسول الله وأنت قاعد :قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم قال : فقال صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء .

ومن ذلك يتبين لنا الاختيار الحر والشورى الصحيحة التى حدثت من الأنصار فى اختيار أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة يوم توفى رسول الله (ﷺ) .

بقى أمر آخر فى اختيار أبى بكر رضى الله عنه خليفة للمسلمين وهو مبايعة على بن أبى طالب لأبى بكر ،وابن سعد فى الطبقات لا يذكر فى هذا الشأن إلا قول على : "لما قبض النبى (ﷺ) عليه نظرنا فى أمرنا فوجدنا النبى (ﷺ) قد قدم أبا بكر فى الصلاة فرضينا لدنيانا من رضى رسول الله (ﷺ) لديننا فقدمنا أبا بكر ،ولا يذكر ابن سعد شىء عن تخلف ابن أبى طالب غير أن غيره ،يذكرون روايات عن امتناع على وبنى هاشم عن بيعة أبى بكر واستمرار ذلك لمدة ستة أشهر وهى الفترة التى عاشتها فاطمة بعد الرسول (ﷺ) ويذكرون أن السبب فى ذلك هو امتناع أبى بكر عن أن يدفع إلى فاطمة ميراثها فى رسول الله ،وأن ابن أبى طالب كان يطمع فى الخلافة .

ولاشك أن هذه الروايات مدخولة تتنافى مع منزلة صحابة رسول الله ثم تسقطها الروايات الأخرى التى تثبت عدم الاختلاف فى بيعة أبى بكر ،فقد سئل سعيد بن زيد متى بويع أبى بكر ،قال :يوم مات رسول الله (ﷺ) ،كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة ،قال فخالف عليه أحد ؟ قال لا : :إلا مرتد أو من قد كان أن يرتد لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار (قال فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال :لا ،تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .

وكان ذلك فى اليوم التالى لبيعة السقيفة حيث جلس أبو بكر على المنبر وقام عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيى وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله (ﷺ) ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون أخرنا ،وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى أثنين إذ هما فى الغار فقوموا فبايعوا .فبايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة ،وكان ابن أبى طالب آنذاك فى بيته فأتاه من أخبره بجلوس أبى بكر للبيعة فخرج على فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله وألزم مجلسه وهو ما ينفى امتناع أو تخلف أبن أبى طالب عن بيعة أبى بكر . لأن المطالبة بالميراث إنما تكون بعد البيعة كما أن حراسة الأنقاب لا تكون إلا إذا كان قد بايع .

كل ذلك يوضح لنا النتائج التى حققها المسلمون فى مؤتمر السقيفة وبيعة المسجد وهو التطبيق العملى لمبدأ الشورى فى اختيار أول خليفة لرسول الله ثم الاجتهاد والتحرى فى اختيار الأصلح من بينهم لتولى هذا المنصب .

فهل أصاب المسلمون فى اختيار أبى بكر خليفة للرسول عليه السلام ؟ ذلك ما تجيب عنه سياسة أبى بكر التى سار عليها وأعماله التى قام بها .

- **<u>البيئة العامة</u>** :-

أجتمع المسلمون فى اليوم التالى بالمسجد ،ووقف عمر بن الخطاب بين يدى أبى بكر الصديق ،وألقى كلمة أعتذر فيها عما تكلم به بالأمس من أن محمدا (ﷺ) لم يمت وأبان ما قاله لم يكن إلا تعبيرا عن رأيه الشخصى ولم يكن هذا عن توصية من رسول الله (ﷺ) ،أو حثا من أهل بيته ولكنه (أى عمر) كان يرى أن رسول الله(ﷺ) سيظل يدبر أمر المسلمين ويبقى فيهم ليكون أخرهم . ثم أوضح فى كلمته أن الله سبحانه وتعالى أبقى فى هذه الأمة كتابه الكريم الذى أهتدى به الرسول (ﷺ) فإن اعتصمت الأمة به كان

هاديا لها ، كما كان هاديا لرسوله ،ثم قال "إن الله قد جمع أمركم على خـيركم ،صـاحب رسول الله ،وثانى أثنين إذ هما فى الغار ،فقوموا فبايعوا ،وبذلك قام المسـلمون وبـايعوا أبا بكر بالخلافة .

والمقصود بالخلافة هنا الرياسة العامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن رسـول الله (ﷺ) بحيث تكون منزلة الخليفة فى الدولة الإسلامية كمنزلة النبى الرئاسية من المسلمين ،له عليهم الولاية العامة ،والسمع والطاعة وتقع عليه مهمة تنفيذ حدود الشريعة الإسـلامية (دستور الدولة الإسلامية) والقيام على شئون دينهم ،وبالتالى على شئون دنياهم ،لأن زمـام الدولة الإسلامية كلها بين يديه ،وتصريف شئونها مسئولة منه فكل مسألة دينية أو دنيويـة متفرعة عن منصبه ،فهو باختصار الحاكم الزمنى للدولة والزعيم الروحى للأمـة ،وقـد عبر ابن خلدون عن الخلافة بقوله :والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشـرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجحة إليها ،إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عنـد الشـرع إلى اعتبارها مصالح الآخرة ،فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الديـن وسياسة الدنيا .

وقد وضع الفقهاء للخلافة شروطا خمسة هى : العلم ،والعدالة ،والكفاية ،وسـلامة وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل ،والنسب القرشى ،وقـد أختلـف على الشرط الخامس حيث جعلها بعضهم أربعة شروط هى ،أن يكون قرشيا من الصميـم -أى من سلالة النضر بن كنانة وأن يكون على صفة من يصلح قاضيا حرا ،بالغا : عاقلا ،متصفا بالعلم والعدالة ،وأن يكون فيما يأمر الحرب والسياسة وإقامة الحـدود ،لا تلحقـه رأفة فى ذلك ،قادرا على الدفاع والزود عن الأمة ،وأن يكون من أفضلهم فى العلم والديـن وأستدل الفقهاء ببعض الأحاديث النبوية التى لا تقصر الخلافة على قريش ،وإنما قيدتـها بقيود لقوله (ﷺ) "الأئمة من قريش ما حكموا فعدلـوا ،ووعـدوا فوفـوا ،واسـترحموا فرحموا" وإما الذين يجعلونها فى قريش فيستندوا كذلك على بعض أقوال النبى (ﷺ) مثـل : "الملك فى قريش ،والقضاء فى الأنصار ،والأذان فى الحبشة" وإن كان كثير من الفقـهاء

يرون أن هذا الحديث وأفعاله إنما هو مدسوس على الرسول، ونحن نعتقد ذلك بدليل أن الرسول (ﷺ) ترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاءون ليتولى أمرهم، ولم يعين من يخلفه عليهم، وبدليل قوله تعالى : "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وقد تغيرت هذه الشروط الخمسة عندما اتسعت أرجاء الدولة الإسلامية ودخلت عناصر متعددة في الدين الإسلامي، وأصبحت الخلافة حقا لكل عربي حر، وشرطوا لها الإسلام، والعدل وجعلها أئمة المعتزلة والقدرية اختيارا من الأمة لمن يحكمها، وسموا الخلافة إمامة شأنهم في ذلك شأن الشيعة والخوارج .

بعد أن تمت مبايعة أبي بكر الصديق خليفة على المسلمين قام وأعلن سياسته الداخلية في الحكم في الخطبة التي ألقاها في المسجد النبوي الشريف حيث قال : "أيها الناس ؟ إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله" .

*** من هذا العرض التاريخي نستطيع أن نخلص إلى أمرين هامين هما :-**

أولا : العوامل التي رجحت ترشيح أبي بكر الصديق للخلافة :-

١) استناد المهاجرين إلى أحقيتهم في هذا الأمر "إن العرب لا تدين إلا لقريش" واعتمادهم على المهاجرين من منزلة السبق في الإسلام، وما نزل فيهم من آيات القرآن الكريم : "... والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار" واستشهادهم بأحاديث عن رسول الله .

٢) أبو بكر الصديق من خيرة المهاجرين من قريش" التصق بالرسول (ﷺ) في جميع مراحل الدعوة إلى الإسلام وشاركه جهاده في سبيل هذا الدين، والعمل على نشره، وقد

نزلت آيات من القرآن الكريم تتلى فيه مثل قوله تعالى : " إذ أخرجه الذين كفروا ثاني أثنين إذ هما في الغار" وقوله تعالى : " وسيجنبها الأتقى ،الذى يؤتى ماله يتزكى ،وما لأحد عنده من نعمة تجزى ،إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى .

٣) إشادة الرسول (ﷺ) به فى عديد من الأمور وخاصة حينما دعاه (ﷺ) إلى الإسلام فاستجاب أبو بكر دون تردد ولهذا قال الرسول (ﷺ) فى حقه مادحا : "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ،إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم (*أى ما تأخر وما تردد*) عنه حيت ذكرته له وما تردد فيه .

٤) قوة الإيمان البارزة التى تميز بها أبو بكر ،وقوة إرادته ،ومجابهة الأمور بالحزم والصبر ،وبراعته السياسية وحسن نظرته للأمور ،ويبدو ذلك كله فى مواقف عديدة له ،منها أنه لم تخر عزيمته ،ولم يخنه إيمانه حينما تحقق من وفاة الرسول (ﷺ) بل تحمل المسئولية كاملة وجابه المسلمين بالحقيقة فى الوقت الذى لم يستطع عمر بن الخطاب ان يصلب عوده أمام هذه الحقيقة (موت الرسول) ووقع شبه مغشى عليه ومنها كذلك تصميمه على محاربة المرتدين رغم معارضة بعض رجال الصحابة وفيهم عمر نفسه .

٥) أنابه الرسول (ﷺ) عنه ليصلى بالمسلمين عندما اشتدت وطأة المرض عليه ،كما أمره على الحج فى السنة التاسعة للهجرة ،وسلم إليه الراية (علامة القيادة) فى أكبر وآخر معركة حاسمة خاضها الرسول (ﷺ) والمسلمون ضد أعداء الدين الإسلامى وهى معركة تبوك ،وقد أستند غير قليل من المؤرخين إلى هذه الجوانب ،واعتبروها إشارة ولفتا للأنظار من جانب الرسول (ﷺ) إلى منزلة أبى بكر الصديق وتصدره مركز القيادة بعد الرسول وهذا غير صحيح .

ثانيا : النتائج التى ترتبت على اجتماع السقيفة :

١) إقرار مبدأ الشورى الذى نزل به القرآن الكريم ،ووضح ذلك فى عدم موافقة المهاجرين على انفراد الأنصار بتولى شئون المسلمين وعرض الموضوع على بساط

البحث والمناقشة ،وتفوق المهاجرين بعد أن عرضوا حججهم وأسانيدهم وتغلب رأيهم وتمت الموافقة على اختيار أبي بكر الصديق وأعطيت له البيعة . وسوف يظل مبدأ الشورى مبدأ أساسي فى بيعة الخليفة طوال عصر الخلفاء الراشدين ،ولكنه سيتطور فى عصر الخلافة الأموية وما يليها من عصور إسلامية أخرى طبقا للظروف السياسية التى تمر بها كل دولة من هذه الدول . ففى عصر بنى أمية تؤخذ البيعة لخلفاء معاوية ترغيبا أو ترهيبا وتتحول الخلافة إلى ملك عضو وتسير الدولة على النظام الوراثى الذى عرفه الأكاسرة والقياصرة ،ولكنها تتستر بالبيعة ذرا للرماد فى العيون . أما فى عصر الخلافة العباسية فتصبح البيعة مسألة شكلية ،ومظهرا من مظاهر الحكم (الرسميات أو البروتوكول) لتنصيب الخلفاء الذين كانوا يختارون وبموافقة كاملة من جانب الولاة ،أو عن طريق الغلبة والاستبداد .

٢) أنبثق نظام الخلافة فى الدولة الإسلامية ،ذلك النظام الذى يقوم على الأخذ بمبدأ الانتخاب المباشر لاختيار أصلح الموجودين من كبار رجال الصحابة (رجال الدولة) ،وسوف يظل هذا المبدأ معمولا به فى عصر الراشدين ،ولكنه يهمل تماما فى العصور التى تلت ذلك العصر .

● وقد ترتب على مبدأ الانتخاب توكيد مبدأ آخر هو البيعة ،وكانت تعطى فى أول الأمر بالمصافحة ،أو يضرب كف المبايع على كف الخليفة أو الأمير ،ولكنها تطورت فى العصور التالية لعصر الخلفاء الراشدين واتخذت عدة طرق منها تقبيل طرف رداء الأمير ،أو تقبيل الأرض بين يديه ،وهذه محاكاة لما كان يجرى فى بلاد الفرس .

٣) استنت السقيفة الخطبة التى يلقيها الخليفة ،وفيها يعلن برنامجه فى الحكم ،وقد رأينا أن أبا بكر الصديق بعد أن أعطيت له البيعة العامة فى المسجد وقف وألقى خطابا جامعا بين فية منهاجه فى الحكم ،وقد استمرت هذه الخطبة بمفهومها حتى وقتنا الحالى ،وأصبحت نعرف بخطاب العرش فى الدولة الملكية و،بخطاب الحكومة فى الدولة

الجمهورية حيث توضح الحكومة النهج الذى ستسلكه أثناء فترة حكمها ،وطريقة معالجتها لأمور الدولة فى المجالات المختلفة .

- هذه الخطبة لن تكن من ابتداع أبى بكر الصديق ،ولكنها كانت معروفة فى بيزنطة وفارس قبل الإسلام ،وأستحسنها العرب بعد أن بدأ بها أبو بكر الصديق وساروا عليها.

* **موقف على من بيعة أبى بكر** :-

على الرغم من المنزلة العظيمة التى كانت أبى بكر الصديق ،وعلى الرغم من البيعة العامة التى كانت فى مسجد الرسول (ﷺ) ،والتى أعطى المسلمون فيها موافقتهم على إسناد رئاسة الدولة إلى أبى بكر الصديق خليفة النبى (ﷺ) فقد قيل وذكر فى كتب الشيعة تمنع نفرا قليل من بنى هاشم ومن كبار رجال المهاجرين الذى رأوا أن على بن أبى طالب أحق بهذه البيعة ،وأحق بهذا الأمر لقرابته من رسول الله (ﷺ) ،ولملازمته للرسول (ﷺ) ولشجاعته وجهاده فى سبيل الله والدعوة إلى الإسلام فقد وقف العباس عم النبى وابنه الفضل وطلحة ،والزبير بن العوام ،وسلمان الفارسى ،وأبو ذر الغفارى ،وخالد بن سعيد ،والمقداد بن عمرو وقليل غيرهم إلى جانب على يريدون البيعة له ،وأعلن الزبير أنه لن يغمد سفه حتى يبايع على بن أبى طالب بالخلافة .

جمهرة من المؤرخين يذكرون أن عليا ظل ممتنعا عن البيعة أشهر ،وكانت فاطمة رضى الله عنها تؤيده فى موقفه هذا ومعها بعض البيت الهاشمى ،وأنه لم يعط البيعة لأبى بكر الصديق إلا بعد وفاتها ويكاد المؤرخون يجمعون على هذا الرأى ،إلا أننا نجد فى كتب هؤلاء المؤرخين أنفسهم ما يدعو المؤرخ إلى التريث بل إلى التشكك فى هذه الرواية ،أو على الأقل الإشارة إلى علاتها عند ذكرها ،لأنهم يذكرون بأسانيد الرواه أن عليا كان فى بيته يجهز رسول الله للدفن عندما وصلته أنباء بأن أبا بكر الصديق جلس للبيعة ،فخرج مسرعا فى قميص (أى ثوب) دون أن تكتمل الهيئة الخارجية للملبس من إزار ورداء ،لأنه كره أن يتأخر عن إعطاء البيعة أبى بكر الصديق ،وقد أعطى بيعته ثم جلس إليه ،وبعث فى طلب بقية ملابسه الخارجية فلبسها ولزم مجلس أبى بكر .

وقبل أن أتعرض لمناقشة هذه الآراء والرد عليها أود أن أطرح سـؤالا عريضـا يفسح لنا الطريق إلى الدخول في مناقشة ،هذا السؤال هو: هل مكث هؤلاء النفـر الذيـن وقفوا مع على ستة أشهر ممتنعين هم كذلك عن إعطاء البيعة لأبى بكر الصديق ؟

وجوابنا يقينا لا ،فهؤلاء جميعا بايعوا ،منهم من بايع بعد يوم أو يومين أو بعد عدة أيام قليلة ،وآخر رجل منهم وهو خالد بن سعيد أعطى بيعة بعد شهرين ،فهل بقـى علـى ممتنعا بمفرده عن مبايعة أبى بكر؟ الجواب بالتأكيد نفيا ،لأن على بن أبى طالب كان قـد أعطى بيعته أبى بكر بدليل أن خالد بن سعيد لقى عليا وعثمان بن عفان قبـل أن يعطـى بيعته فقال لهما :يا أبا الحسن ،يا بنى عبد مناف أغلبتم عليها ؟يريـد بـهذا إثـارة علـى وعثمان ضد أبى بكر ،ويحرضهما على منازعته في أمر الخلافة .فأجابـه علـى بقولـه :أمغالبه ترى أم خلافة ؟وبهذا الرد حسم على أمر الإثارة والفتنة التى حاول خالد بن سعيد أن يبعثها ،وأعترف على بأن الأمر شورى وهو متروك للمسلمين (أى الأمة) .

هذا الرد القاطع من على بن أبى طالب وفي وجود عثمان دليل قوى على اقتنـاع على بأحقية أبى بكر فى الخلافة ،لأن توليته جاءت بعد مناقشة علنية وعن أختيار الأمة له ومبايعة بالحكم ،وهو كذلك رد قوى على ما يذكره جمهرة المؤرخين من أن عليا تخلـف عن بيعة أبى بكر ستة اشهر وظل ممتنعا فى بيت السيدة فاطمة الزهـراء بنـت النبـى محمد (ﷺ) ،لأنه لو صح ما يقولون ،كيف نفسر مقابلة خالد بن سعد لعلى وعثمان بعـد مبايعة الناس لأبى بكر الصديق بشهرين فقط ؟وبماذا نفسر إجابة على له ؟ أليس في هـذه الإجابة م يؤكد أن على بن أبى طالب أعطى بيعته لأبى بكر قبل مضى هذين الشـهرين؟ نحن نعتقد ذلك والأدلة التالية تؤيدنا .

١) إذا كان على يريد البيعة لنفسه ليخلف الرسول (ﷺ) فى تولى أمور المسلمين فلمـاذا رفض أن يطلب ذلك من رسول الله (ﷺ) حينما طلب إليه العباس أن يدخل إلى النبـى (ﷺ) وهو على فراش الموت ويسأله فيمن يكون هذا الأمر ؟ فإن كان فى بنى هاشم فقد علموه وإن كان فى غيرهم أمر به فأوصى ببنى هاشم .لقد رفض على أن يسأل رسـول

الله (ﷺ) وأجاب العباس بقوله :" والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا ،والله لا أسألها رسول الله أبدا" .

٢) ثم أن النووى يذكر لنا عن على بن أبى طالب أنه قال : "قدم رسول الله (ﷺ) أبا بكر يصلى بالناس وأنا حاضر غير غائب وصحيح غير مريض ولو شاء أن يقدمنى لقدمنى ،فرضينا لديننا من رضى الله ورسوله (ﷺ) لديننا .

٣) وكذلك يروى البيهقى فى دلائل النبوة عن عمرو بن سفيان أنه قال :لما أنتصر على يوم الجمل قال :"يأيها الناس ،إن رسول الله (ﷺ) لم يعهد إلينا فى هذه الإمارة شيئا ،حتى رأينا من الرأى أن نستخلف أبا بكر فأقام واستقام حتى مضى لسبيله ،ثم إن أقواما طلبوا الدنيا فكانت أمور يقضى الله فيها" .

* والمتأمل فى هذا النص يجد اعترافا صريحا من على بأنه شارك مشاركة حقيقية فى استخلاف أبى بكر ،أنه بايعه ووافق على بيعته ،بدليل قوله :حتى رأينا من الرأى أن نستخلف أبا بكر :بل اكثر من ذلك فهو يقرر أن أبا بكر التزم حدود البيعة وأدى حقها ،وكان نعم الخلف لخير سلف ،بدليل قوله "فأقام واستقام" .

٤) دليل آخر يتمثل فى موقف على بن أبى طالب الصلب من تحريض أبى سفيان له وللعباس عم الرسول (ﷺ) ،وسبه لهما حين ذكرهما بقوله :أين المستضعفان ؟أين الأذلان على والعباس ؟ يريد أن تكون البيعة لأحدهما . ولعلى بالذات ،ويطلب أبو سفيان من على أن يبسط يده ليعطيه البيعة ،فيأبى على بن أبى طالب هذا الأمر على أبى سفيان ويزجره ويرده ردا حازما بقوله : "إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرا ،لا حاجة لنا فى نصحك " ،وفى رواية السيوطى "لطالما عاديت الإسلام وأهله يا أبا سفيان فلم يضره شيئا ،إنا وجدنا أبا بكر أهلا لها .

٥) دليل أخر يبدو واضحا ،فعندما برز أبا بكر الصديق ،وأستوى على راحلته ،يريد الخروج لحرب المرتدين أخذ على بن أبى طالب بزمامها وقال : "إلى أين يا خليفة

رسول الله ؟ أقول لك ما قاله لك رسول الله يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك ،وأرجع إلى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدا .

☆ فإذا علم لنا أن أبا بكر لم يعقد الألوية لمحاربة المرتدين إلا بعد عودة جيش أسامة بن زيد ،الذى عاد من حملته بعد سبعين يوما على أكثر التقديرات ،كما تجمع معظم المراجع التاريخية ،فمعنى هذا أن على أبن أبى طالب كان قد أعطى البيعة قبل هذه المدة . وإلا لما أمسك بزمام راحلة الخليفة أبى بكر وخرج معه وقال له ما قال ،وهذا ينفى القول بأن عليا ظل ممتنعا فى بيت زوجته السيدة فاطمة بنت رسول الله ستة أشهر ولم يخرج إلى أبى بكر إلا بعد وفاتها .

☆ ثم أن شخصية على بن أبى طالب نفسه لم تكن لتسمح له بأن يتأخر عن إعطاء البيعة ،ويظهر أمام خاصة المسلمين وعامتهم بأنه الوحيد الذى خرج على هذا الإجماع فى بيعة الصديق ،لأنه يعرف تماما أن هذا الأمر متروك للشورى ،ولإجماع المسلمين .

☆ ثم أن رسول الله كان لديه إحساس بأن المؤمنين لن تختلف كلمتهم على أبى بكر الصديق ،ويظهر ذلك جليا فيما حدثت به أم المؤمنين عائشة قالت ،قال رسول الله فى مرضه الذى مات فيه : "أدع لى عبد الرحمن بن أبى بكر أكتب كتابا أبى بكر لا يختلف عليه أحد بعدى ثم راح فى غشية ،فلما أفاق قال :معاذ الله أن يختلف المؤمنين فى أبى بكر" .

بل تذكر المراجع المغالية والروايات الباطلة أن أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى بيت فاطمة بنت رسول الله ليخرج عليا ومن معه للبيعة ،وحمل عمر معه شيئا من النار ليضرم به البيت إن رفض على ومن معه الخروج "فقابلته فاطمة وقالت له :" أجئت لتحرق دارنا" ؟ قال : نعم ،أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة ،فخرج على حتى أتى أبا بكر فأعطاه البيعة ،ومما يؤكد صحة هذه الرواية ما ذكره اليعقوبى وهو شيعى من أن أبا بكر الصديق تحدث فى مرضه الذى توفى فيه مع عبد الرحمن أبن عوف عن أشياء فعلها

وتمنى أنه لم يعملها ،ومن ضمن ما قاله : "ليتنى لم أفتش بيت فاطمة بنت رسول الله ،وأدخله الرجال ،ولو كان أغلق على حرب " .

هذه الفقرة تعطينا دليلا على أن عمر بن الخطاب ذهب إلى بيت فاطمة الزهراء ،واخرج عليا ومن معه من بنى هاشم وأجبرهم على الدخول فيما دخل فيه الناس ،وإعطاء البيعة لأبى بكر ،بعد أن هددهم بحرق البيت إن لم يستجيبوا إلى إجماع المسلمين ومعاذ الله أن يفعل عمر ذلك .

ويذكرون فى أسباب امتناع العباس وبعض بنى هاشم عن إعطاء بيعتهم لأبى بكر الصديق لم يكن مردها إنكار فضل أبى بكر ،أو عدم أحقيته فى هذا الأمر بعد أن اجتمع عليه رأى المسلمين ،ولكن مرده إلى موقف أبى بكر الصديق من السيدة فاطمة الزهراء والعباس حينما أتيا إليه يطالبانه بميراثهما فيما ترك رسول الله من أرض فى فدك وسهم فى خيبر ،فرفض أبو بكر الصديق وقال : إنى سمعت رسول الله يقول : "نحن معشر الأنبياء لا نورث ،ما تركنا فهو صدقة ،إنما يأكل آل محمد من هذا المال" ،فانصرفت فاطمة والعباس وهما فى حالة من الغضب ،وهجرت فاطمة والعباس وهما فى حالة من الغضب،وهجرت فاطمة أبا بكر ولم تكلمه فى ذلك حتى توفيت . وكان من الطبيعى أن يراعى على بن أبى طالب وهو زوجها شعورها ،وينضم إليها ،ويتخذ موقفا سلبيا يعلن به التخفيف عنها بسبب ما قاله أبو بكر لها .

من هذا العرض التاريخى نستطيع القول مطمئنين إلى أن على بن أبى طالب قد أعطى البيعة لأبى بكر الصديق سواء حينما خرج إليه مسرعا وهو فى المسجد ،أو حينما أحضره عمر بن الخطاب من بين فاطمة ،وهذا غير صحيح .

• العرب عند وفاة الرسول (ﷺ) :-

قبل أن نتحدث عن الأعمال التى قام بها المسلمون فى عهد أبى بكر الصديق علينا أن نلقى لمحة سريعة على المسلمين عند وفاة الرسول ،فذلك يوضح لنا الجهد الكبير

الشاق الذى قام به أبو بكر والمسلمون معه آنذاك ،كما يوضح لنا توفيق المسلمين فى اختيارهم لأبى بكر ليتولى شئونهم .

فقد بدأت حركة المتنبئين قبل وفاة الرسول بادعاء الأسود العنسى (عنس بطن من مذحج) فى جنوب الجزيرة العربية النبوة فى حياة الرسول وطلب الرسول من المسلمين هناك مقاتلته مصادمة أو غيلة ،كما أدعى النبوة مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى ،وكان لموت الرسول أثر فى استطالة شر هؤلاء وهؤلاء ،فقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة فى كل قبيلة ونجم النفاق اشرأبت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم (ﷺ) وقلتهم وكثرة عدوهم .

ولم يثبت على إسلامه بعد وفاة الرسول سوى المدينة ومكة والطائف وبعض القبائل المقيمة بين مكة والمدينة كمزينة و غفار وجهينة وأشجع وأسلم وأفراد متفرقين فى كل قبيلة تعرضوا لتمسكهم بالإسلام لغدر من أرتد من قبائلهم كما أبت بعض القبائل القريبة من المدينة كعبس وذبيان وغطفان وكنانة إيتاء الزكاة .

فى هذا الموضع المضطرب وجد أبو بكر نفسه مسئولا عن تولى شئون المسلمين وتثبيت أركان الدين وهو وضع لا يحسده عليه أحد فماذا يصنع أبو بكر ليعيد المياه إلى مجاريها ولترتفع كلمة الله فى إنحاء الجزيرة العربية كما كانت ؟

حملة أسامة بن زيد :-

هنا تتجلى عبقرية أبى بكر الإسلامية وعمق إيمانه حيث يبدأ بتنفيذ أمر الرسول عليه السلام فيقول بعد أن تمت بيعته :ليتم بعث أسامة وهو الجيش الذى كان الرسول قد شرع فى توجيهه من أهل المدينة ومن حولهم إلى قضاعة وآبل فى مشارف الشام فتأخر خروجه لوفاة الرسول .

وتردد الآراء من بعض الصحابة تشير بأن يبقى الجيش إلى جوار أبى بكر فى تلك الظروف الخطيرة التى ارتدت فيها العرب خوفا على الخليفة والمسلمين فى المدينة ،ولكن الخليفة الذى يرى نفسه جيشا كاملا يقول :والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت

أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر الرسول الله (ﷺ) ولــــو لــم يبــق فــي القرى غيري لأنفذته .

وعندما طلب إلى أبي بكر استبدال أسامة بمن هو أسن منه غضب وقال :لمن بلغه ذلك :أستعمله رسول الله (ﷺ) وتأمرني أن أنزعه .

ثم أعطى أبو بكر للجند درسا في طاعة القائد فخرج يوصي الجيش ثــم يودعــه ماشيا وأسامة القائد راكبا ويأبى أبو بكر أن يركب أو أن ينزل أسامة ويقول : ما على أن أغبر قدمي في سبيل طاعة الله ساعة ثم يضرب المثل الأعلى في حفظ حقـــوق القــائد بالنسبة لمن هم تحت أمرته بحيث لا تتدخل سلطة عليا في سلطانه إلا باســـتئذان فيقــول لأسامة :إن رأيت أن تعينني بعمر فأفعل فيأذن له أسامة .

ويخرج الجيش في هذه الظروف القاسية المحيطة بالمسلمين إلى وجهته فينفذ مـــا أمره رسول الله من بث الخيول في قبائل قضاعة والغارة على آبل ويعود ســالما غانمــا خلال نحو شهرين بعد أن أعطى العرب وغيرهم صورة فعلية عن القوة التي يتمتع بـــها المسلمون بعد وفاة الرسول ،فكان إنفاذه أعظم الأمور نفعا للمسلمين فإن العرب قالوا :لــو لم يكن لهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ،وتجلى في ذلك حسن سياسة وقيادة أبي بكر الصديق .

حروب الردة

* **أسبـــابها** :~

كانت الانتصارات المتتالية للمسلمين في حياة الرسول (ﷺ) دافعا القبائل العربيــة البعيدة عن المدينة إلى الدخول في الإسلام ،بعضها دخل فيه إعجابا بالانتصار وبعضـــها دخل طمعا في ألا يفوته خير يمكن أن يناله وبعضها أو أفراد دخل في الإسلام عن اقتنــاع وبصيرة ،ومعنى ذلك أن كثيرا منها لم يتخلص من رواسب الجاهلية وخاصة السلوكية بما

يتعلق بالعصبية والفخر بها بما يثير الحمية الجاهلية ويؤدى إلى إجابتها عندما يذر قرنها حيث لم تتمكن العقيدة الصحيحة للإسلام فى القلوب نتيجة لفكر ثاقب وفهم عميق« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم» . الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر إلا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله" .

ولذلك ترى عينيه بن حصن الذى ارتدت غطفان تبعا له يقول « نبى من الحليفيين يعنى أسدا وغطفان أحب إلينا من نبى من قريش » .

وقد وجدت هذه العصبية بغيتها فى أفراد فهموا روح القبيلة ودرسوا مشاعرها فاستغلوا ذلك وأعلنوا نبوتهم ليكسبوا لأنفسهم ولقبائلهم فخرا ومنزلة لا تقل عما يرون قريشا قد اكتسبته عندما رأوا الإسلام يعلوا سلطانه فى حياة الرسول عليه السلام ،وذلك ناشئ عن عدم فهم للإسلام الذى يسوى بين قريش وغيرها ولو كان غير عربى وهو لا يجعل الزكاة ضريبة تدفع لقريش كما يتصورون وإنما هى مشاركة من الأغنياء فى محاربة الفقر وسد حاجة المحتاجين فى أى قبيلة .

ولذلك بدأ الأسود العنسى يدعى النبوة فى قبيلة مذحج فى اليمن وأيده بعض بنى قومه وبدأ يغير عمال الرسول حتى أستولى على صنعاء ،كما أدعى مسيلمة الكذاب النبوة فى بنى حنيفة ،وطليحة الأسدى النبوة فى بنى أسد ثم ادعت سجاح النبوة فى بنى تميم .

ولاشك أن هذه الدعاوى الكاذبة قد عضدها بطريق أو بأخر كل أعداء المسلمين ممن فقدوا سلطانهم ومانتهم ومن لم ترقهم تعاليم الإسلام وأخلاقياته فى الداخل ،ومن أضير من اليهود عندما نكثوا عهودهم ،وكذلك عضيد هذه الدعوى الدول المجاورة التى بدأت تشعر ببزوغ قوة المسلمين على مسرح الحوادث على الروم والفرس فى الخارج ،ووجدوا فى إثارة الفتن فى دلخل الجزيرة ما يقضى على هذه القوة الناشئة التى ستهدد الروم والفرس فى يوم قريب .

ثم كانت وفاة الرسول عليه السلام مشجعا لأولئك المتنبئين ومن دار فى ملكهم ممن يعيشون بعيدا عن المدينة ليزدادوا تمسكا بدعاواهم الكاذبة ويقدموا فى سبيل ذلك

الدماء والأرواح ،أما القبائل القريبة من المدينة كعبس وذبيان وغطفان فقد اكتفت في ردتها بأن طالبت بإسقاط الزكاة التي يرون أنها ضريبة تدفع لقريش .

* هزيمة مانعي الزكاة ورد عدوانهم عن المدينة :~

تجمعت القبائل من مرة وعبس وثعلبة بن سعد وكنانة ونزلوا بالأبرق وذي القصة قريبا من المدينة ثم أرسلوا إلى أبي بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم أبو بكر وقال : « لو منعوني عقالا – أو عناقا – كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ﷺ) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله فقال أبو بكر ولأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ،وقد قال إلى بحقها قال عمر :فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق

عرف رسل مانعي الزكاة قلة في المدينة من الجند فلما عادوا إلى قبائلهم أغروهم بمهاجمة المدينة لحمل أبي بكر على عدم المطالبة بالزكاة ،وقد أحس أبو بكر الغدر في وجوههم ولذلك أخذ حذره فجعل على أنقاب المدينة لحراستها :عليا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود ،وأمر أهل المدينة بحضور المسجد وقال لهم : إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أن نهارا وأدناهم منكم على بريد فاستعدوا وأعدوا .

وبعد ثلاثة أيام أغار مانعوا الزكاة على المدينة ليلا فتصدى لهم من بالأنقاب وأخبر أبو بكر فخرج إليهم في أهل المسجد على الإبل حيث ردهم عن المدينة وتبعهم حتى بلغوا ذا حي غير أن جموع مانعي تمكنوا بحيلة صنعوها لإبل المسلمين من حملها بمن عليها على العودة إلى المدينة .

ظن مانعوا الزكاة بالمسلمين الوهن وأرسلوا إلى من بذي القصة يخبرونهم بذلك لكي يجتمعوا ويعاودوا الكرة على المدينة غير أن أبا بكر لم يضيع الوقت هباء بل قضى الليل يعبئ المسلمين وجعل لهم ميمنة وميسرة وساقه ثم أخذ السير ليلا فما طلع الفجر إلا

والمسلمون قد وصلوا إلى عدوهم الغادر فوضعوا فيهم السيوف وأمعنوا فيهم القتل حتى ولوا الأدبار وتبعهم أبو بكر حتى نزلوا بذى القصة وهم يفرون أمامه .

وقد أزداد المسلمون فى المدينة وفى كل قبيلة بهذا الانتصار عـزا وثباتـا علـى دينهم ،وأقبل كثير من وفود القبائل تؤدى زكاتها إلى خليفة رسول الله معلنيـن التزامـهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .وتجلى للمسلمين منزلة أبى بكر وحسن اختيارهم له حتى قـال عبد الله بن مسعود :لقد قمنا بعد رسول الله (ﷺ) مقاما كدنا نهلك فيه لـولا أن الله مـن علينا بأبى بكر اجمعنا ألا نقاتل على أبنه مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقيـن فعزم الله لأبى بكر على قتالهم فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية

لقد تقدم أبو بكر الصفوف عندما طرق العدو المدينة وقال له المسلمون ننشـدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد علـى العدو فأبعث رجلا فإن أصيب أمرت أخر فقال :لا والله لا أفعل ولا لواسينكم بنفسى .

وهكذا يضرب أبو بكر المثل الأعلى فى أن يكون فى أول الصفوف دفاعـا عـن الإسلام والمسلمين مع غيبة جيش أسامة عن المدينة .

- **محاربة المرتدين وتطهير الجزيرة من الردة :~**

عاد جيش أسامة منتصرا بعد أن نفذ ما أمر به وبعد فترة قصيرة من الاسـتجمام وضع أبو بكر خطة للقضاء على الردة فى أنحاء الجزيرة العربية بعـد أن هـزم مـانعى الزكاة الذين حاولوا الإغارة على المدينة .

← وقد سلك أبو بكر إلى تحقيق ذلك الطريق السلمى والحربى مـعا :~

فبالنسبة للطريق السلمى : عمل على دعوة المرتدين إلى العـودة إلـى الإسـلام والدخول فيه والإقلاع عما ترددوا فيه وأرسل إليهم جميعا كتابا واحدا ذكـر فيـه دعـوة الرسول ووفاته بعد أبلغ ما أمر الله أن يبلغه للناس ثم ذكر ردة العرب بعد ذلك وإضـلال الشيطان لهم ثم قال لهم :وإن بعثت إليكم فلانا فى جيـش مـن المـهاجرين والأنصـار

والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله وأن يسبى النساء والذرارى ،ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن أتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الآذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يأذنوا عاجلوهم وإن أذنوا اسألوهم ما عليهم فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل عنهم وحملهم على ما ينبغى لهم .

• أما بالنسبة للطريق الحربى :-

فقد عقد أبو بكر أحد عشر لواء وجهها إلى المرتدين فى أنحاء الجزيرة للقضاء عليهم دفعة واحدة ،فعقد لخالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة بن خويلد فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح ،ولعكرمة بن أبى جهل وأمره بمسيلمة ،وللمهاجر بن أبى أمية وأمره بجنود العنسى وقيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن ثم يمضى إلى كندة بحضر موت ،ولخالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى الحمقتين من مشارف الشام ،ولعمرو بن العاص ووجهة إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث ،ولحذيفة بن محصن الغلفانى وأمره بأهل دبا ،ولعجرفة بن هرثمة وأمره بمهرة ،وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهم فى عمله على صاحبه وبعث شرحبيل بن حسنة فى أثر عكرمة بن أبى جهل ،ولطريفة بن حاجز وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن ،ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن وللعلاء بن الخضرمى وأمره بالبحرين .

وقد كتب أبا بكر إلى كل قائد عهدا أمره بأن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سرة وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ،ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم ،فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن وأن لم يجيبوه شن غاراته عليهم حتى يقروا له . ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى

أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ،وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ،وكان الله حسيبه فيما أستشر به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ،لا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وإن يمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ،لا يكونوا عيونا ،ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

أهم حروب الردة

تلك هي الجيوش وقوادها والجهات التي عينها أبو بكر لكي تتجه إليها وتقضي على الردة فيها بعد أن سلك الطريق السلمي لحمل المرتدين على العودة إلى الإسلام بإرسال الرسل بالكتب إليهم ،ولا نريد أن نتحدث عن كل المعارك التي خاضها المسلمون للقضاء على الردة في أنحاء الجزيرة العربية وحمل العرب على العودة إلى الإسلام وتوحيد صفوفهم والذي استغرق من هذه الجيوش الكثيرة سنة كاملة ولكننا سنكتفي بالحديث عن أهم هذه المعارك ،وتتمثل في الحروب التي خاضها الجيش الذي يقوده خالد بن الوليد بطل الردة ،فقد تمكن من القضاء على المتنبئين وتقليم أظافر أتباعهم بعد معارك عنيفة شرسة ومع ذلك فقد خاض غيره معارك ضارية حتى قضى على الردة في جزيرة العرب قضاء مبرما وعاد العرب إلى دين الله أفواجا ولم تحدث أحد منهم نفسه بعد ذلك بالارتداد عن الإسلام .

وقد وجه أبو بكر خالدا إلى طليحة الأسدي حيث ألتقى به .

طليحة الأسدي في البـــزاخة

أدعى طليحة الأسدى النبوة فى حياة الرسول عليه السلام وشجع الناس بالأكـــاذيب فكان يأمرهم بترك السجود فى الصلاة ويقول : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيـح أدباركم شيئا اذكروا الله أعفه قياما » ويقول « والحمام واليمام والصرد الصوام قد صمـــن قبلكم بـــأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام» .

وقد أرسل إليه النبى ضرار بن الأزور ليقضى عليه بمن بقى مسلما فى بنى أســـد فشغب عليه حتى ضعف أمره وكاد يقضى عليه ولكن أمره عظم بعد وفاة الرسول (ﷺ) حيث أنضم إليه وهو بالبزاخة قبيلة عبس وذبيان بعد أن هزمهم أبو بكـــر بـــذى القصـــة وانضم إليه ناس من طئ وجديلة وعيينه بن حصن الفزازى الذى قام فى غطفـــان وقـــال «إنى لمجدد الحلف الذى بين غطفان وأسد فى القديم ومتابع طلحة ،والله لأن نتبع نبيا مـــن الحلفيين حب إلينا من أن نبيا من قريش وقد مات محمد وبقى طليحة فطابقوه على رأيه »

وقد أشتد بذلك سلطان طليحة وكبرت قوة المرتدين معه فأرسل إليه أبو بكر خـــالد بن الوليد فى أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان .

وقد تمكن عدى بن حاتم الطائى الذى كان فى جيش خالد بن الوليد أن يثنى قبيلـــة طئ ،وجديلة عن إتباعهم لطليحة وتمكن من أعادتهم إلى الإسلام وانضموا إلى جيش خـالد الذى ألتقى مع طليحة ومن معه من المرتدين فى البزاخة حيث دارت معركة حامية أشـــتد وطيسها وقاتل الجيشان فيها قتالا ضاريا ظهر فيه إيمان المسلمين ،وعندما رأى عيينه بـــن حصن شدة القتال تردد على طليحة ليعرف ما يوحى به إليه فتبين له كذبه فنادى فى بنـــى فزارة أن انصرفوا فهذا والله كذاب فانصرفوا وأنهزم الناس وذهب بعضهم إلـــى طليحـــة يقولون ماذا نفعل ؟

وكان طليحة قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيرا لامرأته فوثب علـــى فرَسـه وحمـــل امرأته ثم نجا بها وهو يقول : «من استطاع منكم أن يفعـــل مثـــل مـــا فعلـــت وينجـــو بأهله فليفعل » وفر إلى الشام حيث رجع بعد ذلك إلى الإسلام وحسن إسلامه وعادت بنـــو

أسد والقبائل المجاورة لها إلى الإسلام ،وقد أمر عيينه بن حصـــن وأرسـله خـالد إلـى أبى بكر فعفا عنه .

وعاقب خالد الذين اعتدوا على المسلمين أثناء ردتهم ولم تأخذه فيـــهم رحمــة أو شفقة وقد أيده أبو بكر فى ذلك فكتب إليه ،ليزدك ما انعم الله به عليك خيراً واتق الله فـــى أمرك فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون جد فى أمر الله ولا تليـــن ،ولا تظفـــرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ومن أصبت ممن حاد الله أو صد عنه ممـــن ترى أن فى قتله صلاحاً فاقتله .

وهكذا طبق خالد القصاص على من عاث فى الأرض فساداً حتى انتـــهت بذلـك فتنة المتنبى الكاذب.ودخل بنو أسد ومن معهم فى الإسلام وبـــايعوا علـــى أقـام الصـــلاة وإيتاء الزكاة .

مالك بن نويــــرة فى البطــاح

توجه خالد بعد ذلك إلى البطاح قاصداً مالك بن نويرة أحد زعماء بنى تميم الـــذى كان قد وادع سجاح بنت الحارث المتنبئة وثناها عن غزو المدينة وحملها على غزو أحياء من بنى تميم ، وبعد أن رجعت سجاح إلى الجزيرة ندم وتحير وحذر قومه من مناوأة قـوم صنع لهم ،ولم يخرج زكاة ويقابل إليها خالدا كما فعل وكيع وصماعة من زعماء بني تميم وإنما أمر بنى يربوع بالتفرق في ديارهم .

وعندما وصل خالد إلى البطاح بث سراياه وأمرهم بداعية الإسلام ،فجاءته ســـرية بمالك بن نويرة ومعه نفر من بنى يربوع ،واختلفت السرية فيهم بين أنهم أذنوا أم لا ،فلما اختلفت السرية فى ذلك أمر بهم خالد فحبسوا وكانت ليلة بـــاردة فـأمر مناديــة فنـادى «ادفئوا أسراكم» وكان فى لغة كنانة معناها القتل فظن القوم أنه يريد قتلهم فقتلوهم ،وسمع خالد الداعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال :«إذا أراد الله أمرا أصابه» .

وقد أثار قتل مالك الشبهة حول خالد وأنه تزوج أم تميم امرأة مالك بعد قتله مما جعل أبا بكر يستدعيه إلى المدينة ليستوضح منه جليل الأمر وبين له خالد وجهة نظره فعذره أبو بكر في القتل وعنفه في زواجه بليلى الذى كانت العرب تعيبه أيام الحرب ورد السبي على قومه وقال لعمر : هيه يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد فإني لا أشيم سيفاً سلة الله على الكافرين وهذه رواية دخيلة ليس لها من صحة .

ولاشك أن أبا بكر قد أقتنع بالحجج التي أبداها خالد فإن المؤرخين يجمعون على اختلاف السرية التي أتت به في آذانهم ثم إن مالك قد وادع سجاح قبل ذلك ثم تردد فلم يخرج الزكاة ويقابل بها خالداً مثلما فعل وكيع وسماعة من زعماء بني تميم .

وبعد هذه المساءلة عاد خالد إلى جيشه ليتأهب لقتاله أشد المتنبئين في شبه الجزيرة مكراً وخداعاً وخطراً وهو :

مسيلمة الكذاب

أدعى مسيلمة الكذاب النبوة في بني حنيفة في حياة النبي عليه السلام ،وكان مسيلمة يصانع كل ما يتابعه ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح فكان يقول : «إن بني تميم قوم طهر لقاح لا مكروه عليهم ولا إتاوة تجاورهم ما حيينا بإحسان نمنعهم من كل إنسان فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن .

وقد ساعد مسيلمة على فريته (نهار الرجال بن عنفوة) الذى هاجر إلى النبي عليه السلام وقرأ القرآن وفقه في الدين فبعثه معلماً لأهل اليمامة ومحذراً مسيلمة ويشد من أمر المسلمين ،فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة شهد له أنه سمع محمد يقول : «إنه أشرك معه فصدقوه واستجابوا له» ..

ثم كانت وفاة الرسول عليه السلام مع تصديق (نهار الرجال) الذى فسق عن أمر الله – له مما أدى إلى زيادة شره وكثر أتباعه مع إقناعهم بكذبه حتى أن طلحة النمرى جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة قالوا :إنه رسول الله فقال : لا حتى أراه فلما جاءه قال :

أنت مسيلمة ؟ قال نعم قال من يأتيك ؟ قال : رحمن قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال في ظلمة فقال : اشهد أنك كذاب وأن محمد صادق ،ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

● موقعة اليمامة :-

وقد وجه أبو بكر عكرمة بن أبي جهل في جيش إلى مسيلمة وأردفه بلواء شرحبيل بن حسنة ،إلا أن عكرمة أسرع لملاقاة مسيلمة فهزم ،فوجه أبو بكر إليه خالد بن الوليد في جيش بلغ ثلاثة عشر ألفا فيه كثير من خيرة المهاجرين والأنصار وخرج مسيلمة لملاقاة خالد وعسكر بعقرباء وهي طرف اليمامة دون الأموال وريف اليمامة وراء ظهورهم – وقد بلغ جيشه أربعين ألفا آثار فيهم شرحبيل بن مسيلمة النخوة فقال : يابني حنيفة اليوم يوم الغيرة اليوم إن هزمتهم تسترق النساء سبيات وينكحن غير حظيات فقاتلوا عن أحسابكم وأمنوا عن أحسابكم ولمنعوا نسائكم .

والتقى المسلمون والمرتدون في حرب شرسة لم تقم حرب مثلها من حروب العرب وقد اشتدت وطأة على المسلمين في بداية المعركة ،فثار الإيمان في قلوبهم فانطلق زيد بن الخطاب قائلا ،لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي عضوا على أضراسكم أيها الناس وأضربوا في عدوكم وأمضوا قدما فقاتلوا وصاح ثابت بن قيس ،يامعشر المسلمين :أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان والعزة لله ورسوله ولأحزابه أروني كما أريكم ثم جلد فيهم حتى جاوزهم ،وقال أبو حنيفة يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال .

واستمر القتل في بني حنيفة فلم تحفل بمن قتل منها فبرز خالد حتى كان أمام الصف ودعا إلى البراز وقال :أنا أبن الوليد العود ،أنا أبن عامر وزيد ونادى بشعار المسلمين يومئذ ،يامحمداه ! فكان لا يبرز له أحد إلا قتله ،حتى دنا من مسيلمة ورآه ثابتا ورحاهم تدور عليه وعرف أنها لا تزول إلا بزواله فدعاه خالد وأرهقه فأدبر وعلاهم المسلمون فكانت هزيمتهم وقال الناس لمسيلمة أين ما كنت تعدنا ؟قال قاتلوا عن أحسابكم

ثم لجئوا إلى حديقة الموت حيث تمت هزيمتهم وقتل مسيلمة بعد أن فقدت بنو حنيفة أكثر من عشرين ألف قتيل .

وقدم المسلمون ألفا ومئتين من خيرة شهدائهم من المهاجرين والأنصار منهم نحو خمسمائة من القراء وعدد من الصحابة ذكر أسماءهم ابن الأثير وصالح خالد من في حصون بنى حنيفة على الذهب والفضة ونصف السبى والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يسلموا .

وتتابع بنو حنيفة فبايعوا على الإسلام والبراءة مما كانوا عليه .ويعتبر النصر على مسيلمة قضاء على الردة إلى الأبد حيث تم انتصار بقية القواد فى الجهات التى وجهوا إليها فى أنحاء الجزيرة العربية واستغرق ذلك عاما من عهد ابى بكر (رضى الله عنه) .

وقد تحقق الانتصار على المرتدين بعوامل عدة أهمها :

١) ثبات الإيمان ورسوخ العقيدة فى نفوس المسلمين وتقديمهم لأرواحهم وأموالهم فى سبيل نصرة عقيدتهم .

٢) خطأ عقيدة المرتدين المبنية على النبوة الكاذبة والمستغلة للعصبية القبلية التى لم تثبت أمام صدق الإيمان وحرارة العقيدة الصحيحة .

٣) المهارة التى تمتع بها قادة المسلمين وجيوشهم فى القتال ثم التخطيط المحكم لحروب الردة ومواصلتها فى جبهات عدة ومتباعدة فى وقت واحد مع توفير الإمدادات والاحتياجات اللازمة فى شتى الميادين .

٤) البسالة النادرة التى كشفت عنها الأيام فى أبى بكر والعزيمة الصادقة الماضية التى لا تعرف إلى التردد سبيلا أو إلى الخوف طريقا لحماية الإسلام ولو تخطفته الذئاب .

☆ فتم للمسلمين النجاح فى ميادين القتال .

☆ وقد ترتب على الانتصار الرائع فى حروب الردة نتائج مهمة حيث :

١) أنتشر سلطان المسلمين فى أنحاء الجزيرة وعادت للعرب وحدتهم وقوتهم .

٢) كان انتصار المسلمين على المرتدين انتصارا لمبادئ الإسلام السمحة على العصبية القبلية وتطهيرا للنفوس المريضة من الشرك ودعاوى الجاهلية وردعا لكل من يريد ن يخرج على الإسلام أو يدعى النبوة .

٣) كانت تلك الحروب والمعارك القاسية التى خاضها المسلمون فى الردة تمرينا عمليا متواصلا تجلى فيه الصدق والإيمان وزاد فى حسن إعداد المسلمين للقيام بنشر الدعوة الإسلامية بعد ذلك فى حركة الفتح الإسلامى ،وأعطتهم الثقة فى نصر الله عندما يصدقوا فى حملتهم .

٤) ولاشك أن القوى الخارجية المجاورة الحاقدة على الإسلام والمتربصة به قد شعرت بفشل محاولاتها فى تفريق كلمة المسلمين ،وبدأت تأخذ الحذر من القوة الإسلامية الناشئة حتى تم بينهما الصدام فى الفتوح الإسلامية فكيف تم ذلك ؟

((الفتوح الإسلامية))

*** دوافعها :-**

إن الدعوة الإسلامية لم تأت لقريش أو للعرب خاصة وإنما أتت للناس عامة «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونديرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**» «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** » "سورة سبأ الآية ﴿٢٨﴾ سورة الأنبياء آية ﴿١٠٧﴾ .

وإذا كان رسول الله علية السلام قد مكث فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعو أهلها وغيرهم إلى الإسلام وفى المدينة عشر سنوات يدعو العرب كافة وغيرهم ويقاتل من يتصدى للدعوة الإسلامية أو يقف فى سبيلها ،فإنه عليه السلام قد بين لأصحابه عمومية هذه الدعوة للناس جميعا حتى فى أشد الأزمات وأحلك الساعات فتجده وهو فى مكة يقول لخباب عندما جاء يشكو إليه أذى قريش «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» .

وفى غزوة الخندق والمسلمون مشغولون بتحصين المدينة بحفر الخندق نجد الرسول يخبر أصحابه بعمومية الدعوة إلى العالمين وبأتساع دولة المسلمين لتستولى على دولة الفرس والروم فيذكر :أن الضوء الذى لمع من الصخرة التى ضربها الرسول عندما اعترضتهم قد أضاء له قصور كسرى والروم وصنعاء وأن جبريل أخبره أن أمته ظاهرة عليهم .

وهكذا بين الرسول (ﷺ) لأصحابه عمومية الدعوة فى ساعات الشدة ،فإذا ما أمن قريشا وعقد معها صلحا ،أخذ يطبق ذلك فأرسل كتبه إلى كسرى وقيصر وأمير بصرى ومصر والحبشة وغيرهم من الأمراء يدعوهم إلى الله تعالى ويخبر الملوك بأنهم إذا أعرضوا فإن عليهم إثم أممهم لأنهم يقفون ضد تبليغ الدعوة إليهم .

ثم نجده بعد ذلك يرسل حملة إلى مشارف الشام فى مؤته ثم يخرج بنفسه وقد جاوز الستين من عمره فى غزوة العسرة إلى تبوك ليبين الطريق العملى لتبليغ الدعوة ما دام الأمراء والملوك يتصدون للكتب ولا يريدون أن تبلغ الدعوة إلى آذان الجماهير .

كل ذلك كان تمرينا للمسلمين وتطبيقا من الرسول لكى يضطلعوا بالواجب عليهم بعد أن هداهم إلى الإسلام فيبلغوا هذه الدعوة إلى الناس كافة تنفيذا لإقامة الشهادة على الناس التى ناطها الله برقاب المسلمين «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» «وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم نعم المولى ونعم النصير» .

ولذلك عندما تم للمسلمين توحيد كلمتهم والقضاء على الردة فى الجزيرة العربية كان عليهم أن يقيموا الشهادة على الناس بتبليغ الدعوة على العالمين ،فكان هذا الأساس من أسس الدعوة الإسلامية بعموميتها هو الدافع الأصيل فى حركة الفتوح الإسلامية .

أما ما يشير إليه كثير من المؤرخين من خوف أبى بكر من حدوث ردة جديدة فأراد أن يملاء الفراغ عند العرب بفتح هذه الجبهات فإن ذلك لا يستقيم عندما نعلم أن أبا بكر قد كتب إلى خالد وعياض بن غنم عندما وجههما إلى الفتوح الإسلامية :" أستفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله (ﷺ) ولا يغزون معكم أحد أرتد حتى أرى رأيى فلم يشهد الأيام مرتدا فإذا أضفنا إلى ذلك أن أبا بكر لم يبق إلى جواره جيشا من تحدثه نفسه بالعودة إلى الردة ثانيا لتبين لنا أن الدافع إلى حركة الفتوح لم يكن ملئ الفراغ الذى أحدثته الردة بين العرب وإنما هو تبليغ الدعوة التى طلب إليهم تبليغها إلى الناس جميعا .

*** أهدافها** :~

أما أهداف الفتوح فهو نشر الدعوة الإسلامية وتبليغها إلى الأمم وصبغها بالصبغة الإسلامية بدون إكراه على اعتناقها وكسر شوكة الحكام المتكبرين الذين يقفون فى سبيل تبليغ الدعوة .

ونحن عندما نتصفح حركات الفتوح ونقرأ المواقع التى دارت بين المسلمين وبين غيرهم فى بداية الفتوح أو فى أوجها وعظمتها أو قرب نهايتها وتوقفها ... لنجد ذلك المبدأ الذى لا يتغير وهو عرض أعتناق الدعوة الإسلامية على من يتصدى للمسلمين أو أن يكونوا معاهدين فى حماية المسلمين لتصل الدعوة إلى الناس فإن أبوا فلم يبق إلا الحرب و القتال .

نجد ذلك فى حديث خالد مع أشراف الحيرة وقبيصة بن أياس أمير الحيرة من قبل كسرى فقد قال له ولأصحابه : «أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لنا وعليكم ما علينا فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم الجزية فقد أتيناكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة جاهدنكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم» كما نجد خالدا يعهد إلى أمراؤه أن يبدءوا بالدعاء قبل الحرب ويتضح ذلك كل الوضوح فى الكتاب الذى أرسله خالد إلى مرازبة فارس وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم من خالد إلى مرازبة فارس

أما بعد ،فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ،وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمــر » .

يضاف إلى هذا الهدف الأصلي تأمين الدولة الإسلامية الناهضــة مــن دسائس الأعداء الذين يتربصون بها فى الخارج من الفرس والروم وغيرهم والذين سبق أن أشــرنا إلى أصابعهم الخفية فى إثارة حركة الردة فى الجزيــرة العربيــة فــور وفــاة الرســول عليه السلام .

*** عوامـــل نجاحها :-**

كان أهم نجاح الفتوح الإسلامية هو ما يتحلى به الجندى المسلم من عقيدة رسـخت فى وجدانه وامتلاء بها فؤاده فهو ينطلق إلى ساحة الجهاد وأمامه هدفين كلاهما خير لــه :وهو تحقيق النصر فترتفع راية الإسلام ويشاركهم الغير فى نعمة الإيمان الذى ينعمــون بحلاوته أو تحقيق الاستشهاد فيحظى بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقيــن ... فكانت حركة الجندى المسلم هادفة لتحقيق أحد الهدفين له ،لذلك لم تستطع القوى الكثيفــة التى تجمعت له فى الميادين القتال من الفرس أو الروم أن تقف فى سبيله أو تحــول بينــه وبين تحقيق الهدف الأول بالنصر مع فوز بعض الجنود بالاستشهاد وهذه العقيــدة التــى تتجلى فيها البساطة والفطرة السليمة والمساواة بين المقاتلين قد منحــت الجنــدى المســلم صلابة فى مجالدة الأعداء وصبرا على مكاره الحرب وآلامها من تحقيق النصر .

وإذا نظرنا إلى جنود الأعداء فإننا لا نجد مثل هذه العقيدة الواحدة بل نجد هنـــاك اختلافا فى المذاهب المسيحية والعقائد الفارسية وميل إلى الرفاهية والنعيــم ثــم خلافــات بين الحكام وتنازع على السلطات وتفرقة فى رتب المقاتلين وبعضهم كان مكرهـــا علــى القتال أو مأجورا عليه .

ومع ذلك فقد حشدت الفرس والروم الحشود الكثيرة وأمدتها بكل وســائل الحــرب والقوة وبعضها لم يكن للمسلمين به سابق عهد فى القتال مثل الفيلة وغيرها ولكــن ذلــك أنهار ولم يثبت أمام صدق عقيدة المسلم وتفانيه فى نصرة الدعوة والعمل على نشرها .

ولم يغن الفرس أو الروم استعانتهم بعرب الأطراف سواء من النصارى أو غيرهم فإنهم قاتلوا معهم ووقفوا ضد المسلمين يحاربونهم ولكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئا وتحقق وعد الله :«كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز» .

وقد ساعد المسلمين على الانتصار في جبهتين في وقت واحد توسطهم بين ميادين القتال الذى دار على أطراف الدولة الإسلامية سواء في الشرق أو الغرب فكان لموقع الجزيرة العربية الإستراتيجى أثر في تحقيق الانتصار إلى غير ذلك من العوامل التي تتعلق بالمسلمين وبأعدائهم من الفروق الواضحة بين النظام الإسلامي في معاملة المحكومين وبين نظم أعدائهم ،ومن العوامل التي لم تكن تخطر لهم على بال والتي حصلوا عليها في انتصاراتهم المتعددة من غنائم كثيرة وانتشار للسلطان وبسطه في الملك ،فكان ذلك من العوامل المساعدة عليها وليس من الدوافع أو الأهداف لهذه الفتوح .

*** نتائجها :-**

كان الفتوح الإسلامية نتائجها التي ما زالت تنعم بها البلاد المفتوحة حتى الآن فقد بلغت الدعوة الإسلامية إلى تلك الأقاليم وهدى الله كثيرا من أهلها إلى دعوة الله أفواجا ،وقد حمل الكثير من أبناء تلك الأقاليم أعباء الدعوة الإسلامية بعد ذلك فعملوا على نشرها بالكلمة والدفاع عنها بالسيف وغيره كالبربر والسلاجقة الأتراك وغيرهم ممن شرح الله صدورهم للإسلام ،واتسعت بذلك رقعة الدولة الإسلامية وتقلمت أظافر الفرس والروم وتخلص الكثير من الأقاليم المحكومة لهم من غير حكمهم وفتح الطريق أمام المد الإسلامي لكي تصل دعوة الله إلى الناس في المشارق والمغارب فيؤمن به من يؤمن ويكفر من يكفر دون إكراه أو إجبار ليهلك من يهلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم » .

الفتـوح الإسلامية فى عـهد أبى بكـر

فتـح العـراق

ابتدأت الفتوح فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بالجبهـة الشـرقية مـع الفـرس والطبرى يذكر رواية تدل على التخطيط الدقيق الذى وضعه أبو بكر لفتح العراق العربـى ثم مواصلة الجهاد لفتح بلاد فارس بالاستيلاء على عاصمتهم المدائن مـع تـأليف أهـل الفرس ومن كان فى ملكهم من الأمم ،وقدم الحوافز إلى القواد الذين بعث بهم للفتح فجعـل السابق منهم إلى الحيرة هو الأمير على الآخـر .

فقد كتب أبو بكر فى المحرم من السنة الثانية عشرة إلى خالد بن الوليد وقد أمـره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها ،وإلى عياض بن غنم وقد أمـره علـى حـرب العراق أن يدخلها من أعلاها ثم يستبقا إلى الحيرة فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير علـى صاحبه وقال : «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسـالح فـارس وأمنتمـا أن يؤتـى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما رداء للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر علـى عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن » .

وقد التقى المسلمون مع الفـرس فـى عـدة مواقـع بقيـادة خـالد بـن الوليـد تمكن المسلمون من الانتصار فيها مع ضخامة جيوش الفرس بالنسبة لجيـش المسـلمين ومن هذه المواقع :

١) موقعة ذات السلاسل :-

وقد دارت هذه الموقعة فى كاظمة قرب الخفير (الكويت الحالية) التى قـدم إليـها خالد بجيش يضم ثمانية عشر ألف مسلم بعد أن أنضم إليه جند المثنى بن حارثة الشـيبانى وأصحابه وتقدمه كتابه إلى هرمز صاحب الثغر ينذره فيه ويقول : « أما بعد فأسلم تسـلم أو أعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر الذمة وأقرر الجزية وإلا فلا تلومـن إلا نفسـك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » وقد كان هرمز من أسوأ الأمـراء جـوارا

للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلا فى الخبث حتى قالوا : أخبث من هرمز وأكفر من هرمز .

ألتقى المسلمون بأعدائهم وأراد هرمز أن يقضى على خالد فدعاه للمبارزة وقد أعد له كمينا ليغدر به ولكن خالدا تمكن من قتل هرمز وتمكن حماة خالد من قتل كمين هرمز وأنهزم الفرس وتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم بدون أن يسيئوا إلى سكان البلاد فقد أمر المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم وأقر من لم ينهض من الفلاحين وجعل لهم الذمة .

٢) موقعة المذار :-

كان هرمز عندما علم بقدوم خالد أعلن أردشير ملك الفرس بجيش من المدائن عليه قارن بن قريانس وعندما وصل الجيش إلى المذار علم بهزيمة هرمز فى ذات السلاسل وأنضم إليه الفلال وهم مغيظون لهزيمتهم فأجمعوا على لقاء المسلمين وعسكروا بالمذار فخرج إليهم خالد فى «صفر سنة ١٢هـ» والتقى بهم حيث دار بينهما القتال بحنق وحقق المسلمون النصر وقتل قارن وعدد كبير من الفرس قدر بثلاثين ألفا سوى من غرق فى النهر ،وضم الفرس السفن فنجوا عليها ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ولولا المياه لقضى على جيش الفرس ولم يفلت منهم من أفلت إلا عراة وأشباه عراة .

ولعل من قتل من الفرس فى هذه الموقعة وقد بلغ كما قيل ثلاثين ألفا سوى من غرق فى النهر يدلنا على كثرة جند الفرس فى موقعة المذار خاصة بالنسبة للمسلمين .

وقد غنم المسلمون فى هذه الموقعة غنائم كثيرة قسمها خالد على المقاتلين وبعث ببقية الأخماس إلى أبى بكر .

٣) الولجة :-

بلغ عرب الضاحية نبأ هزيمة الفرس فى المذار فأرسل جيشا بقيادة الأندرزغر وهو من مولدى السواد ،أردفه بجيش أخر بقيادة بهمن جاذويه وقد سار الأندرزغر حتى

وصل إلى الولجة بعد أن جمع من الجنود والمقاتلين من بين كسكر والحيرة من عرب الضاحية والدهاقين فعسكروا إلى جانب جيشه في الولجة .

وسار إليه خالد بعد أن أعد كمينين من جيشه والتقى به في صفر من نفس السنة فدار بينهما قتال رهيب كأنه الفناء ثم خرج كمينا خالد فاضطربت صفوف الفرس وكثر فيهم القتل وحلت بهم الهزيمة ، وتم النصر على الفرس ومن انضم إليهم من عرب الضاحية من نصارى بكر بن وائل الذين عاونوا الفرس .

٤) أليس :~

غضب عرب الضاحية لمن قتل منهم في الولجة فعملوا على إثارة الفرس وكاتبوهم للقاء المسلمين ومعاونتهم عليهم فكتب أردشير إلى بهمن جاذوية أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب وقد أرسل بهمن الجيش بقيادة جابان إلى أن يلحق به فنزل بأليس في صفر بعد أن اجتمعت إليه المسالح التي كانت بازاء العرب . وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة .

وبلغ المسلمين تجمع العرب والفرس في أليس فنهض إليهم خالد فاقتتلوا قتالا شديدا كأنه الفناء حرص المشركون فيه على الصبر لتوقعهم قدوم بهمن جاذويه مددا لهم حتي أن خالد قال : « اللهم إن هزمتهم فعلى أن لا أستبقى من أقدر عليه حتى أجرى من دمائهم نهرهم » وقد مكن الله المسلمين من أكتافهم وبلغ عدد القتلى منهم سبعين ألفا .

وهكذا نجد نصارى العرب ينضمون إلى الفرس في قتال المسلمين ولكن ذلك لم يغن عنهم من سيوف المسلمين شيئا .

* فتح الحيرة :~

بالانتصار في أليس فتح الطريق أمام خالد ليتجه إلي الحيرة عاصمة العراق العربي ليستولى عليها وكان مرزبان الحيرة قد أخذ حذره وتهيأ لحرب خالد وعسكر

خارج الحيرة وقدم ابنه ليسد الفرات حتى لا يتمكن خالد من استعمال النهر في تنقلاته ولكن خالدا تمكن من قتل ابن المرزبان وإطلاق ماء النهر .

وهرب المرزبان بعد أن بلغه موت أردشير وقتل ابنه وتابع خالد سيره حتى نزل الحيرة وقد تحصن أهلها في قصورهم فوزع قواده على قصورهم وأمرهم بأن يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب وأن يؤجلوهم يوما ففعلوا ولكن أهل الحيرة أبوا ولجوا فناوشهم المسلمون ودار بينهم قتال أنتهى بأن عقد خالد صلحا مع نقباء أهل الحيرة في ربيع الأول «سنة١٢هـ» وتعهدوا بأن يدفعوا مائة وتسعين ألف درهم في كل سنة وعلى المنعة فإن لم يمنعهم فلا شئ عليهم حتى يمنعهم وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ،وقد أهدوا إلى خالد هدايا فبعث بالفتح مع الهدايا إلى أبي بكر فقبلها وكتب إلى خالد أن أحسب لهم هديتهم من الأجزاء إلا أن تكون من الجزاء وخذ ما عليهم فقو به أصحابك.

وبعد فتح الحيرة صلى خالد صلاة الفتح ثماني ركعات لا يسلم فيهن أعترافا بفضل الله عليه وأتخذ الحيرة مقرا له .

ولما أستقر الأمر بين خالد وأهل الحيرة أتته الدهاقين فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمزجرد وعلى مناطق أخرى وتم للمسلمين بذلك الغلبة على أحد جانبي السواد .

وقد أرسل خالد بعد ذلك كتابيه إلى أهل فارس أحدهما إلى الخاصة من الملوك والآخر إلى العامة ورؤسائهم من المرازبة يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم الإعراض أو المقاومة وفي الكتاب الأول :« بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد : فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرا لكم فأدخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وفى الكتاب الثانى : « بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد : فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

وقد وصلت كتب خالد إلى الفرس وهم مختلفون فى الملك لموت أردشير إلا أنهم كانوا مجتمعين على قتال خالد ومتساندين لدفعه عن أراضى العراق .

* **فتح دومة الجندل** :-

كان على خالد بعد فتح الحيرة أن يتوجه إلى عياض بن غنم الذى كان مكلفا بفتح العراق من أعلاه وقد مكث محاصرا لدومة الجندل ولم يتمكن من فتحها ،فأستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج متوجها إلى عياض حيث مر بالأنبار فاستولى عليها بعد مناوشة قليلة مع أهلها من العرب والفرس ،وعقد مع أهلها صلحا واستخلف عليها الزبرقان بن بدر ثم توجه إلى عين التمر وتغلب وإياد وغيرهم ،وقد تصدى عرب عين التمر لقتال خالد بقيادة عقة بن أبى عقة لأن العرب أعلم بقتال العرب فتغلب عليهم خالد وهزمهم وقتل عقة فهرب جند الفرس مع قائدهم مهران وضرب خالد الحصار حول حصن عين التمر حتى تغلب على من فيه واستنزلهم بغير أمان وقتلهم وغنم ما فيه .

توجه خالد بعد ذلك إلى دومة الجندل لمعاونة عياض على فتحها وقد تجمع فيها عدد كبير من نصارى العرب من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ،وعندما علم أهل دومة الجندل بدنو خالد منهم اختلفوا وطلب أحد رؤسائهم مصالحة المسلمين ولكن بقية الرؤساء رفضوا طلبه ،وقدم خالد فجعل دومة الجندل لقتال المسلمين فتغلب خالد وعياض عليهم وتمكنوا من الاستيلاء على الحصن وقتل من فيه ولم ينج من القتل إلا بنو كلب فقد أجارهم عاصم ابن عمر التميمى .

وأثناء وجود خالد بدومة الجندل أراد الفرس والعرب اغتنام الفرصة بالإغارة على المسلمين واسترجاع ما بيدهم ،فاجتمعت منهم جموع من حصيد والخنافس ولكن جيش

المسلمين بقيادة خالد ومعاونيه تمكن من التغلب عليهم وفض جموعهم كما تمكن من التغلب على بني تغلب عندما تجمعوا فى الثنى والزميل .

وقد توجه خالد بعد ذلك إلى الفراض ***(وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة)*** وقد تجمع بها الروم والفرس والعرب ومن تغلب وإياد والنمر وقد أشتد غيظهم وحنقهم على المسلمين ومع انهم كانوا موقنين بيمن خالد وإيمانه ومعرفته بالحرب حتى قالت الروم وفارس بعضهم لبعض : «احتسبوا ملككم : هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم وواالله لينصرنى ولتخذلن ثم لم ينتفعوا بذلك » فقد قاتلوا المسلمين ودارت بينهم وبين المسلمين معركة حامية أمعن المسلمون فيها القتل فى أعدائهم حتى قتلوا منهم مائة ألف فى المعركة وفى الطلب .

ولاشك أن هذه الأحاديث التى كانت تدور بين الأعداء عن المسلمين تدل على ضعف الروح المعنوية بينهم وكان الواجب عليهم أن ينقادوا لصوت العقل ويفكروا فيما يدعوا إليه المسلمون مما هو سبب قوتهم وتفوقهم ولكن لات حين مناص .

وقد كانت هذه الموقعة أخر الحروب التى خاضها خالد فى العراق ،وجه خالد الجيش بعدها إلى الحيرة ثم أسرع فى سر وكتمان مع قليل من خاصته إلى مكة ليؤدى مناسك الحج شكرا لله على ما أنعم به عليه مع المسلمين من نصر وفوز ليعود مسرعا فيدخل الحيرة مع الجيش ،وبلغ ذلك أبا بكر فلامه أشد اللوم وحذره عاقبة العجب وكتب إليه ذلك الكتاب الذى يجمع بين الرقة والحدة وبين التهنئة والعتاب وينبهه إلى سوء العاقبة التى قد تلحق بالمسلمين من نتيجة تصرفه بتركه الجيش وقصده مكة للحج ثم يوجهه إلى الشام : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » .

وذهب خالد إلى الشام بعد أن مكث فى العراق أربعة عشر شهرا فتح فيها العراق العربى وخاض فيها المعارك الكثيرة التى أنتصر المسلمون فيها جميعا ،وأقام فيها الحكام

المسلمين فى البلاد ونشر فيها العدل والرحمة بين سكان البلاد حتى فضلوا حكم المسلمين على حكم الفرس المستبدين .

* **فتح الشام** :-

بينما كان خالد بن الوليد يقود جيش المسلمين ويحقق الانتصار على الفرس فى العراق ،أرسل أبو بكر فى مطلع سنة ثلاثة عشر من الهجرة خالد بن سعيد ابن العاص إلى تيماء حيث أجتمع عليه عدد كثير من المسلمين وبلغ ذلك الروم فأستنفرت له القبائل بهراء كلب وسليح وتنوح ولخم وغسان وكتب خالد إلى أبى بكر بذلك فأمره بالأقدام مع أخذ الحذر بحيث لا يؤتى من خلفه وقد انتصر خالد بن سعيد فى بعض المواقع ودفعه ذلك إلى التقدم وترك الحذر فتمكن باهان بطريق الروم من هزيمته بعد أن أغراه بالتقدم ثم التف حوله .

عند ذلك استنفر أبو بكر المسلمين ،ووجه الجيوش إلى الشام ووضع خطة لفتحه والاستيلاء عليه ،فأرسل أبو عبيدة بن الجراح بجيش ووجهه إلى حمص ،ويزيد بن أبى سفيان بجيش ووجه إلى دمشق ،وشرحبيل بن حسنة بجيش ووجه إلى الأردن وعمرو بن العاص ووجهه إلى فلسطين ،وقد بلغ تعداد هذه الجيوش قرابة ثلاثين ألفا .

وعندما رأت الروم هذه الجيوش كتبوا إلى هرقل يأمرها وكان فى بيت المقدس فذهب إلى حمص وأخذ يعد الجيوش الكثيفة ويرسلها لكى تقابل جيوش المسلمين وهى متفرقة غير متجمعة .

* **معركة اليرموك** :-

شعر قادة المسلمون بخطورة تفرقهم وتكاتبوا فى ذلك فأستقر رأيهم على أن يجتمعوا ،وتواعدوا الاجتماع فى اليرموك ،وكان ذلك رأى أبى بكر عندما كتبوا إليه يستمدونه ويخبروه بكثرة جيوش الروم التى وجهت إليهم لتقابل كل جيش على حدة فكتب إليهم أبا بكر ،بأن أجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا ،والتقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله ،والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم من

قلة ،إنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشـــرة آلاف إذا أتـــوا مـــن تلقـــاء الذنـــوب فاحترسوا من الذنوب .

وعندما علم هرقل باجتماع المسلمين أدرك خطورة المعركة القادمة وإنـــــها هـــى الفيصل الذى سيقرر مصير المسلمين والروم فكتب إلى بطارقتـــه أن اجتمعـــوا وأنزلـــوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصـــــه علـــى ضفـــة اليرموك وصار الوادى خندقـــا لهم .

عند ذلك تحول المسلمون فنزلوا بحذائهم وصار الروم محصورين لا طريق لــــهم إلا على المسلمين حتى أن عمرو بن العاص قال : « أيها الناس ابشـــروا حصـــرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير ،وقد استمروا على ذلك قرابة شهرين تقوم بينهم بعـــض المناوشات بدون فصل للمعركة ،ولذلك استمد المسلمون أبا بكر وتبين لأبـــى بكـــر أنـــهم ليسوا فى حاجة إلى أعداد من الجند تضاف إليهم وإنما هم فى حاجة إلى قيادة مـــاهرة لا تعرف إلى التردد سبيلا ولذلك قال : خالد لها ،والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخـــالد بن الوليد ،وكتب إليه الكتاب الذى سبق ذكره : « أن سر حتى تـــأتى جمـــوع المســـلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ... » ولم يبين هذا الخطاب إسناد القيادة العامة إلى خـــالد مع أن الطبرى يذكر فى رواية إنه : « وجهة أميرا على الأمراء الذين بالشام » .

وقد أسرع خالد من الحيرة إلى الشام سالكا الطريق الصعب من قراقر إلى ســـوى لكى يسرع إلى نجدة المسلمين مع قهر كل من تصدى للمسلمين خلال رحلته .

وكان وصول خالد إلى اليرموك إيذانا بنشوب المعركـــــة الفاصلـــة بيـــن الـــروم والمسلمين فقد استعد لها الروم وحشدوا من اجلها الجموع الكثيرة التى جاوزت مائتى ألـف جندى مع قيام القسس والرهبان ببث الحمية الدينية فيهم ونعى النصرانية لهم .

وقارب جيش المسلمين فيها أربعين ألفا منهم من أصحاب رسول الله (ﷺ) وفيـــهم مائة من أهل بدر ،ويقال إن خالدا عندما رأى تفرق قيادة جيش المسلمين حيث لم تكن لـــهم قيادة عامة فى ميدان المعركة قال لهم : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخـــر ولا

البغى» . وبين لهم أن العدو يقاتل على نظام وتعبئة وهم يقاتلون على تساند وأشار عليهم بتوحيد الإمارة وتداولها بينهم على أن يكون له اليوم الأول فرضوا بذلك .

واستطاع خالد أن يضع تخطيطا للمعركة بأن قسم الجيش إلى كتائب أو كراديس فى كل واحد منها ألف جندى وجعل عليها فارسا شجاعا وجعل للجيش ميمنة وميسرة وقلبا ثم عبأ الروح المعنوية بقراءة سورة الجهاد وهى الأنفال وبث فى الجيش من يذكر الناس بخطورة هذا اليوم فكان أبو سفيان يقف على الكراديس فيقول: «الله ! الله! إنكم زاده العرب وأنصار المسلمين وإنهم زاده الروم وأنصار الشرك ،اللهم هذا يوم من أيامك :اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وعندما قال رجل لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين قال خالد :ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان والله لوددت أن الأشقر "يعنى فرسه" براء من توجه وأنهم أضعفوا فى العدد .

وفى جمادى الأخر سنة ١٣هـ دار القتال بين المسلمين وبين الروم فى تلك المعركة الفاصلة ،التحم القتال وحمل الروم حملة قوية أزالوا بها المسلمين من مواقفهم وهنا تقدم عكرمة بن أبى جهل فقال قاتلت مع النبى (ﷺ) فى كل موطن ثم أفر اليوم ثم نادى : من يبايع على الموت فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام خيمة خالد حتى أصيبوا جميعا بالجراح وتراجعت الروم إلى مواقفهم وزحف خالد حتى تصافحوا بالسيوف وأشتد القتال وأستمر حتى صلى المسلمون الظهر والعصر إيماء وتضعضع الروم ونهد إليهم خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم وعندما ضاق المهرب على خيل الروم أوسع لها المسلمون طريقا فخرجت تشتد بهم فى الصحراء وتفرقت فى البلاد وشدد المسلمون الحملة على رجالة الروم فلم يثبتوا لهم وفروا منهم فهربوا فى منخفض الواقوصة ومعظمهم مقرنين فى السلاسل فبلغ من هوى منهم فيها مائة وعشرين ألفا سوى من قتل فى المعركة ،واستمر القتال هزيما من الليل حتى تم النصر للمسلمين فى المعركة .

وقد كان للنساء فى معركة اليرموك مواقف محمودة حيث أشتركن فيها بسقى الماء ومداواة الجرحى وبعضهن خاض غمرات القتال ومنهن جويرية ابنه أبــى سـفيان التــى أصيبت فى المعركة بعد قتال شديد .

وقد استشهد من المسلمين فى هذه المعركة ثلاثة آلاف مسلم منهم كثير من أهـــل النجدة والشجاعة وعدد من كبار الصحابة أصحاب المكانة والبلاء .

وكان لهذه المعركة أثر عميق فى نفوس الروم حيث أضعفت من روحهم المعنويـة فلم يثبتوا للمسلمين بعد ذلك فى قتال رغم كثرتهم وتوالت هزائمهم أمام المسلمين مما جعل هرقل يودع سيطرة الروم على الشام ورحل عن حمص وهو يقول : « سلام عليــك يـا سوريا سلاما لا لقاء بعده » .

وكانت هذه المعركة إيذانا بانتشار الإسلام فى الشام ثم امتداده بعد ذلك إلى مصـر والمغرب ،وأثرت فى نفوس المسلمين الذين انطلقوا يحملــون دعوتــهم إلــى المشــارق والمغارب متحصنين بإيمانهم واثقين بنصر الله الذى وهبوا له حياتــهم فوهبــهم النصـر والتمكن فى الأرض وحقق لهم وعده : « وعد الله الذين أمنوا منكم وعملــوا الصلحـات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى أرتضــى لــهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكـــاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

وكانت هذه المعركة الفاصلة خاتمة الأعمال الحربية التى تمت فى حياة أبى بكـر رضى الله عنه .

((✿ جمــع القــرآن ✿))

إذا كان أبو بكر قد قضى على حركة الردة وابتدأ الفتوح الإسلامية فـــى العـــراق والشام وهما من الأعمال الجليلة العظيمة التى ينكرها التاريخ له . فإن حركة الردة انتـهت إلى غير رجعة ،وحركة الفتوح الإسلامية توقفت أما العمل الجليل البـاقى الـذى ظـل وسيظل باقيا إلى قيام الساعة فهو جمع أبى بكر للقرآن الكريم الذى تعهد الله بحفظه فقـال : « **إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون** » « **سورة الحجر آية ﴿٩﴾** » .

ولا شك أن من عوامل حفظ القرآن الكريم مسارعة أبى بكـر رضى الله عنه إلـى جمعه خوفا عليه من الضياع أو التبديل خاصة بعد أن أبلى القراء البلاء الحسن فى موقعة اليمامة وتسابقوا إلى الاستشهاد حماية للإسلام فكان ذلك هو النذير الذى نبـه المسـلمين إلى جمع القرآن .

فقد جاء عمر بن الخطاب إلى أبى بكر فقال : « إن القتل قد استحر يوم اليمامـة بالناس وإنى لأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القـرآن إلا أن يجمعوه وإنى لأخشى أن لأرى أن يجمع القرآن . قال أبو بكر فقلت لعمر :كيـف افعـل شيئا لم يفعله رسول الله (ﷺ) فقال عمر : هو والله خير فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدرى فرأيت الذى رأى عمر .

فدعى أبو بكر زيد بن ثابت وقال له : إنك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتـب الوحى لرسول الله (ﷺ) فتتبع القرآن فأجمعه ،وقد عبر زيد عن عظم المهمة الملقاه علـى كاهله وخطورتها فقال : فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنـى به من جمع القرآن ،وقد راجعها فى جمع القرآن إلى أن شرح الله صدره فتتبـع القـرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال .

جمع زيد تلك الكتابات المتفرقة فى تلك المصحف مرتبة فى الآيات والسور حسب القراءة التى كان يقرأها رسول الله (ﷺ) فى الصلاة وفى غير الصلاة فكان ترتيب الآيات

فى السور حسب ما بينه النبى عليه السلام لهم وحسب ما بينه جبريل للنبى عليه السلام فى ترتيب الآيات فى قولهم : إن جبريل قال للنبى حين أوحى إليه قوله تعالى « **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة** » .

ثم كانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها .

فأستحق أبو بكر بذلك أعظم الأجر كما قال على « أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ،إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين »

• **أبو بكر يولى من يخلفه** :-

كان أبو بكر أعلم الناس بالظروف التى كانت تحيط بالمسلمين حينما شعر بدنو أجله ،فالحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرس والروم فى ميادين القتال وهم فى حالة طوارئ مستمرة وقتال دائم إلى أن يحكم الله بين المسلمين وبين أعدائهم ،أبو بكر هو خير من يقرر الظروف التى قد تنشأ عن الاختلاف فى اختيار خليفة فى تلك الظرف الحرج الذى يعيشه المسلمون مما يضعضع مركزهم فى جبهات القتال ثم أنه بنظره الثاقب وإيمانه العميق يعرف الشخص الذى يستطيع أن يمسك بدقة قيادة المسلمين فى ذلك فى ذلك الخصم المتلاطم ،وهو ليس ذو نسب أو قرابة بالنسبة إليه حتى يهتم فى اختياره وإنما إيمانه وعقيدته هى التى أملت عليه اختيار من يخلفه .

ومع ذلك فقد عمل على استشارة المسلمين قبل أن يبت فى الأمر فقد استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار فى شأن اختيار عمر بن الخطاب ليكون خليفة المسلمين فكلهم أثنى عليه وقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك يرضى للرضا ويسخط للسخط ،الذى يسر خير من الذى يعلن ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه » .

وسمع بعض أصحاب النبى بذلك فدخلوا على أبى بكر وقال له قائل منهم « ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر أجلسوني ،أبالله تخوفوني ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ،أقول اللهم استخلفت عليهم خير أهلك ،أبلغ عنى ما قلت لك من ورائك ثم أضطجع ودعا عثمان بن عفان فقال : أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ،وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيرا فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه وإن بدل فلكل امرئ ما أكتسب من الإثم والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمره فخرج مختوما ليقرأه على الناس ومعه عمر بن الخطاب وأسيد ابن سعيد القرظى .

وقال عثمان للناس « أتبايعون لمن فى هذا الكتاب فقالوا نعم فأقروا بذلك جميعا ورضوا وبايعوا ثم دعا أبو بكر عمر خاليا فأوصاه بما أوصاه به ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه مدا فقال : «اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ،خفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح لهم وإليهم واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدى نبى الرحمة وهدى الصالحين بعده وأصلح له رعيته » وتذكر رواية أخرى أن أبا بكر لما ثقل أشرف على الناس من كوة فقال : أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضون به ؟ فقال الناس رضينا يا خليفة رسول الله ، فقام على فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر قال : فإنه عمر » .

* وفاة أبى بكر « رضى الله عنه » :-

بعد هذا المجهود الشاق الذى قام به أبو بكر منذ خلافته وقبلها أصابته الحمى إثر اغتساله فى يوم بارد فمكث خمسة عشر يوما مريضا لا يخرج إلى الصلاة وكان عمر

يصلى بالناس ويتردد عليه الصحابة لعيادته إلى أن توفى لثمان بقين من جمادى الآخـــرة سنة ١٣هــ بعد أن تولى إمارة المسلمين سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام حقـــق خلالـــها انتصارات للمسلمين لا تبلى مع الأيام .

ويذكر صاحب الطبقات والطبرى وابن الاثير والسيوطى أن سبب موتـــه طعـــام أهدى إليه من اليهود فيه سم فتناول منه هو الحارث بن كلدة وعتاب بن أسيد فماتوا جميعا فى يوم واحد والله أعلم بحقيقة هذه الرواية ورضى الله عن أبى بكر الذى بذل ماله وجـــهده وحياته فى سبيل نصرة الإسلام وعزة المسلمين .

((۞ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ۞))

« ١٣ - ٢٣ هـ »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل وينتهي نسبه إلى عدي بن كعب بن لؤي وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم ،وقد ولد بعد ثلاثة عشر عاما من مولد الرسول (ﷺ) ،وكني بأبي حفص ولقب بالفاروق ،وهو أول من سمي بأمير المؤمنين .

اشتهرت أسرته بالسيادة والشرف ،والشجاعة ،والجرأة في قول الحق ،فنشأ في رحابها شجاعا جريئا قوي الشكيمة صريحا في القول لا تأخذه فيه لومة لائم ، وإليه كانت السفارة في الجاهلية فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم – أو بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيرا أي رسولا وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرا أو مفاخرا ،وقد عمل بالتجارة ورعي الغنم في صباه كما تعلم القراءة والكتابة ،وكان متواضعا ،خشن الملبس شديدا في ذات الله وقد أقتدى به عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه كل يتشبه به في حله وترحاله ،وكان يلبس الجبة والصوف ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها وكان أكثر ركابه الإبل ورحلة مشدودة بالليف وكذلك عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

• **قبول دعوة الحق** :-

لم ينشرح صدر عمر في بداية الدعوة لقبولها بل كان حربا على الإسلام والمسلمين شديدا عليهم ملحقا بهم الأذى حتى هم بأن يقضي على الدعوة بالقضاء على صاحبها ،فقد روى عن انس بن مالك قال : خرج عمرا متقلدا بالسيف فلقيه رجل من بني زهرة فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمدا ،قال : وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه ،قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن ختنك وأختك قد صبوا وترك دينك الذي أنت عليه قال فمشى عمر ذامرا حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ،فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ،فدخل عليهما فقال ما هذه الهمهمة

التى سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرءون طـه فقالا : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنة :أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنة فوطئه وطئا شديدا فجاءت أخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمى وجهها فقالت وهى غضبى : يا عمر إن كان الحق فى غير دينك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فلما يئس عمر قال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه وكان عمر يقرأ الكتب – فقالت أخته إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون فقم فأغتسل أو توضأ فقام عمر فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ "طـه" حتى انتهى إلى قوله « **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** » فقال عمر :دلونى على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج فقال : أبشر يا عمر بن الخطاب وكان رسول الله (ﷺ) قد دعا اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام وكان رسول الله فى الدار التى فى أصل الصفا فأنطلق عمر بن الخطاب حتى أتى الدار وعلى باب الدار حمزة وطلحة وأناس من أصحاب رسول الله (ﷺ) فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة : نعم فهذا عمر فإن يرد الله بعمر خيرا يسلم ويتبع النبى (ﷺ) وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هينا والنبى (ﷺ) داخل يوحى إليه فخرج رسول الله (ﷺ) حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال أما أنت منتهيا يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب فقال عمر : أشهد أنك رسول الله فأسلم ... وكان ذلك بعد أربعين أو نيف وأربعين بين رجال ونساء قد أسلموا قبله .

وقد فرح أصحاب رسول الله (ﷺ) بعد أن أسلم عمر خاصة حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا انهما سيمنعان رسول الله (ﷺ) وينتصفون بهما من عدوهم .

وكان ذلك فى ذى الحجة من السنة السادسة من النبوة وعمره إذ ذاك ست وعشرون سنة .

• **عمر منذ إسلامه حتى ولى الخلافة :-**

لقد كان عمر قويا وقد ظهر أثر ذلك بعد أن هداه الله للإسلام فبذل جهده وطاقته في سبيل تأييد الدعوة الإسلامية وأخذ يتحدى المشركين ويقف مواجها لهم فى سبيل نصرة الإسلام والمسلمين ،روى عن أبى مسعود ﷺ : كان إسلام عمر فتحا ،وكانت هجرته نصرا ،وكانت إمامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا .

وقال عنه الرسول (ﷺ) : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه وهو الفاروق فرق بين الحق والباطل .

وعندما أذن الرسول (ﷺ) للمسلمين فى الهجرة إلى المدينة كانوا يخرجون مستخفين غير عمر فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهما وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقتهم فقال شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ،وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادى فما تبعه أحد .

وهكذا كان عمر قويا فى إسلامه قويا فى هجرته يعلن إسلامه ويعلن عن هجرته متحديا قريشا لا يخشى بأسها وسطوتها .

وقد بين الرسول (ﷺ) مكانته فقال : « يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك .

وقد حارب عمر إلى جوار رسول الله (ﷺ) فشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها وخرج فى عدة سرايا وكان أميرا على بعضها ،وكان رضى الله عنه من الملهمين فنجده يشير على الرسول (ﷺ) برأى فينزل القرآن موافقا لما أشار به مثل رأيه فى أسرى بدر وفى الحجاب وفى الخمر وفى قصة الإفك وفى الصيام ... ألخ .

وكان لعمر دور كبير فى إتمام بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ،وقد بذل جـهده وطاقته فى تأييد أبى بكر مدة خلافته فكان الساعد الأيمن له يستشيره فى عظائم الأمـــور ،مثل حروب الردة وجمـــع القرآن .

● **بيعتـه وسياسته** :~

توفى الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين مـن جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة هجرية ،فتولى عمر الخلافة صبيحة يوم الثلاثاء بعهد من أبى بكر الذى استشار كبار الصحابة وعامة المسلمين فى أمر خلافته فأقروا على اختيـاره ،وبايعه المسلمون البيعة العامة فى مسجد النبى (ﷺ) فتمت بيعته عن رضا واختيار مـن المسلمين وبعد بيعته صعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فقد ابتليت بكم ابتليتم بى ،وخلفت فيكم بعد صاحبى ،فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ومهما غـاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة فمن يحسن نزده حسنا ومن يسئ نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم .

وهكذا يبين عمر رضى الله عنه نظرته إلى الخلافة وأنها مهمة ثقيلة يتحملـــها وانــه سوف يباشر أمور المسلمين بنفسه فى المدينة وسيختار أهل القوة والأمانة ليوليـــه أمـور المسلمين فى المناطق البعيدة عن المدينة كما أنه يعد من يحسن بزيادة الإحسان إليه ومــن يسئ بإنزال العقاب به .

وقد بين عمر الخليفة ما يحل له ولغيره من حكام المسلمين عندما سئل عما يحـــل له من مال الله ؟ فقال : أنا أخبركم بما أستحل منه :يحل لى حلتان ،حلة فى الشتاء وحلـــة فى القيظ ،وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى أهلى كقوت رجل مـــن قريـــش ليـس بأغناهم ،ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم .

وبهذا يحدد عمر لنفسه ما يستحقه من أجر لقاء قيامه بإمـــارة المسـلمين فكـان المثل الأعلى فى العفة عن أموال المسلمين : فهل يقتدى حكـام المسـلمين اليـوم بـأمير المؤمنين الفاروق ؟

وقد حاول عمر رضى الله عنه أن يسير الأمراء الذين يوليهم الأقاليم علــى مثــل سيرته وأن يقتدوا به فى معاملته للرعية فى سلوكهم وفى إقامة العدل بين النـــاس وعــدم التفريق بينهم فقد وفد الربيع بن زياد الحارثى على عمر فأعجبته هيئته ونحوه فشكا عمــر طعاماً غليظاً أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام لين ومركب ليــن وملبس لين لأنت فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال :أما والله مــا أراك أردت بها الله وما أردت بها إلا مقاربتى إن لأحسب أن فيك ،ويحك ؟ هلى تدرى ما مثلى ومثلى هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم ؟ قال : مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منـــهم فقالوا له أنفق علينا فهل يحل له أن يستأثر منها بشىء ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ،قـــال :فكذلك مثلى ومثلهم ،ثم قال عمر :إنى لم أستعمل عليكــم عمــالى ليضربــوا أبشــاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ولكنى استعملتهم ليعلموكـــم كتــاب ربكــم وســنة نبيكم فمن ظلمه عاملة بمظلمة فلا إذن له على ليرفعها إلى حتـــى أقصــه منــه ،فقــال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أيقصه منـــه ؟ فقال عمر : وما لى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله (ﷺ) يقص من نفسه ؟

وكتب عمر إلى أمراء الأجناد :لا تضربوا المســـلمين فتذلوهــم ولا تحرموهــم فتكفروهم ،ولا تجمروهم فتفتنوهم ،ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ومن هنا يظهر حرص عمر على حماية أموال المسلمين وتقسيمها بينهم بالســوية وعدم تمييز الولاة على رعيتهم وبيان ما يجب أن يقوم به الحكام من تعليم الرعية كتــاب الله وسنة نبيه والمحافظة على كرامتهم الإنسانية وحقهم فى العيش الكريم .

فنظرة عمر فى سياسة الحكم أن مهمة الحكام مهمة حضارية تربوية تهتم قبل كـل شئ بالإنسان والحفاظ عليه والعمل على الرقى به فى مضمار الحياة .

وحرصا منه على حقوق الرعية وعدم تمكين العمال من الاستيلاء عليها كــان إذا بعث عاملا على مدينة عدد عليه ماله « أى اخذ منه إقرار الذمة المالية بلغــة عصرنـــا» وقد قاسم غير واحد منهم فى ماله إذا عزله منهم سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة .

وكان عمر حريصا على أن يكون أهله وأقرباؤه أول المنفذين لسياسته الملتزمين بها فقد خرج عمر يوما فقعد على المنبر فثاب الناس إليه حتى سمع به أهل العالية فنزلوا فعلمهم حتى ما بقى وجه إلا علمهم ثم أتى أهله وقال قد سمعتم ما نهيت عنه وإنى لا أعرف أن أحدا منكم يأتى شيئا مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب ضعفين ،فكان لا يجرؤ أحد من أهله على مخالفته وقد حمل ذلك عامة الناس ،وخاصتهم إلى الهيبة منه مما جعل عليا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد يجتمعون وكان أجرئهم على عمر عبد الرحمن بن عوف فقالوا : يا عبد الرحمن لو كلمت أمير المؤمنين للناس فإنه يأتى الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيبته أن تكلمه فى حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين لن للناس فإنه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك فى حاجته حتى يرجع ولم يكلمك ،قال :يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا ؟ قال :اللهم نعم قال : يا عبد الرحمن والله لقد لنت للناس حتى خشيت الله فى اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى الشدة فأين المخرج؟ فقام عبد الرحمن يبكى يجر رداءه يقول بيده أنى لهم بعدك أف لهم بعدك .

إن عمر يشعر بمسئوليته نحو الأمة فيلين فى مكان اللين ويشتد فى مكان الشدة ويعلن أن الأمة تقتدى به فيما يفعل ولذلك قال : الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا .

تلك هى السياسة الداخلية التى سار عليها عمر فى قيادة رعيته وأما السياسة الخارجية فقد عبر عنها عمر فى خطبته التى ألقاها بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبى بكر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إنما مثل المؤمن كمثل جمل أنف أتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق » فالأمة الإسلامية لعهده سامعة مطيعة فعلى القائد أن يوجهها الوجهة الصحيحة التى فيها عزها والتى لا خطر فيها .

ولذلك يذكر الطبرى أن أول ما عمل به عمر أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى أهل فارس قبيل صلاة الفجر من الليلة التى مات فيها أبو بكر رضى الله عنه ثم أصبح فبايع الناس ،وعاد فندب الناس إلى فارس ،وتتابع الناس على البيعة ففرغوا فى ثلاث كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم فتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه ،فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد . وشاطرناهم ،ونلنا منهم وإجترا من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها ،وقام عمر رحمه الله فى الناس فقال : إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ،ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء المهاجرون عن موعود الله سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » إن الله لمظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين ؟ فكان أول منتدب أبو عبيده بن مسعود ثم تتابع الناس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر : أمر عليهم رجل من السابقين من المهاجرين والأنصار قال : لا والله لا أفعل إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو فإذا جبنتم وكرهتم الله فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب الدعاء والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابا ... فأمر أبا عبيدة على الجيش وقال له : اسمع مع أصحاب النبى وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فإنها الحرب ،والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف .

فسياسة عمر الخارجية أن يسير المسلمون فى الأرض ليظهروا دينه وليبلغوا دعوته وهم واثقون بأن الله سيعزهم وينصرهم حتى يلوا شئون الأمم ،ويتحقق لهم سيادة الإسلام على الدين كله ،وهو فى ذلك يواصل مسيرة الفتوح التى ابتدأها أبو بكر من قبله وقد وفق المسلمون فى عهده توفيقا كبيرا حيث حققوا انتصارات عظيمة على دولة الأكاسرة وانتزعوا من الروم كثيرا من الأقاليم التى كانت خاضعة لهم فى آسيا وأفريقيا .

الفتــوح الإسلامية فى عهد عمــر

(أ) فتح العـراق وفـارس :-

عندما ذهب خالد بن الوليد إلى الشام أستخلف على جند العراق المثنى بن حارثـة الشيبانى بأمر أبى بكر وترك معه نصف الجنود ،وقد حاول المثنى الاحتفـاظ بالمنـاطق التى أستولى عليها المسلمون ورأى أن يطلع الخليفة على حقيقة الوضع فى العراق فخـف إلى المدينة مبدياً الاستعانة بمن صدقت توبته ممن كان قد أرتـد فوجـد أبـا بكـر فـى مرضه الأخير .

وبعد وفاته كان أول عمل قام به عمر هو ندب المسلمين لقتال الفرس حيث أرسـل خمسة آلاف مقاتل على رأسهم أسرعهم إلى الإجابة أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وأمره بأن يسمع من أصحاب رسول الله (ﷺ) وأن يشركهم فى الأمر .

وقد أسند الفرس أمرهم إلى بوران حيث استعانت فى تثبيت ملكها والدفـاع عنـه بالقائد رستم الذى كتب إلى الدهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس فى كـل رسـتاق رجلا ليثور بأهله حتى ثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله حيث نـزل الفـرس بالنمارق وعليهم جابان فالتقى بهم المسلمون بعد أن قدم أبو عبيد على المثنى وتولى قيـادة جيش المسلمين ودارت بينهم معركة شديدة انتصر فيها المسلمون وهزم أهل فارس وأسـر قائدهم جابان .

- موقعة الجسر ويقال لها المروحة (شعبان ١٣هـ) :-

ساءت أنباء الهزيمة فى النمارق رستم فسأل أى العجم أشد علـى العـرب فيمـا ترون؟ قالوا بهمن جاذوية فوجهه ومعه عدد من الفيلة وأعطاه رايـة كسـرى « درفـش كابيان » وكانت من جلود النمر عرض ثمانية أذرع فى طول إثنى عشر ذراعا – حيـث نزل قس الناطف على الضفة الشرقية من الفرات وأقبل أبو عبيد فـنزل المروحـة فـى مواجهتهم على الضفة الغربية من الفرات وأرسل قائد الفرس إلى قائد المسـلمين إمـا أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم .

وقد أشار أهل الرأى على أبى عبيدة بعدم العبور ونهوه عنه إلا أنه لم يأخذ بنصيحتهم وقال : لا يكون الفرس أجرا على الموت منا (بل نعبر إليهم فعقد جسرا من السفن وعبر المسلمون عليها حيث نزل المسلمون فى منزل ضيق المطرد والمذهب ودارت معركة أشتد القتال فيها بين المسلمين والفرس وكانت كفة المسلمين راجحة فى البداية حيث قتلوا من الفرس ستة آلاف إلا أن خيول المسلمين أخذت تنفر من فيلة الفرس فترجل أبو عبيدة وترجل الفرسان معه ثم مشوا إليهم فصافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم فنادى أبو عبيده : احتوشوا الفيلة وقطعوا بطنها وأقبلوا عنها أهلها وقصد أبو عبيده الفيل الأبيض فقطع بطانة ووقع الذين عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه غير أن الفيل الأبيض تمكن من قتل أبى عبيده وأخذ اللواء بعده سبعة من ثقيف كان قد عينهم من بعده فقاتل كل منهم حتى أستشهد ثم أخذ اللواء "المثنى بن حارثة" وحاول أن ينسحب بالمسلمين بعد أن ظهر تفوق الفرس عليهم غير أن "عبد الله بن مرثد الثقفى" بادر إلى الجسر فقطعه وقال : « أيها الناس موتوا على مات عليه أمرائكم أو تظفروا » فزاد فى اضطراب المسلمين وقد رأوا الهزيمة ،ودفع بكثير منهم إلى الغرق فى الفرات ،ولكن المثنى وفرسان من المسلمين تمكنوا من حماية المسلمين فى انسحابهم بعد أن أعاد الجسر ونادى فى الناس : « أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا فإنا لن نزايل حتى نراكم بعد ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم ،وعبر الناس وعبر المثنى آخر الناس وهو مثخن بالجراح بعد أن أستشهد من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وبقى ثلاثة آلاف وعبر ألفان هاموا على وجوههم وافتضحوا فى أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم ،وبلغ ذلك عمر ممن أوى إلى المدينة فقال : عباد الله ! اللهم إن كل مسلم فى حل منى أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبو عبيده لو كان عبر فأعتصم بالخيف أو تحيز إلينا ولم يستقتل لكنا له فئة ..

ولاشك أن سبب هذه الهزيمة يرجع إلى استبداد أبى عبيده برأيه وعدم إنصاته إلى نصيحة مستشاريه بعدم العبور ومما زاد فى خسائر المسلمين قيام أحدهم بقطع الجسر مما

أعاق سرعة الانسحاب إلى الضفة الغربية ،ولكن عمر الخليفة حاول أن يعيد إلى الهاربين ثقتهم فى أنفسهم بأنهم لم يفروا وإنما تحيزوا إليه وهو فئتهم ،وكان لذلك أثر كبير حيث أظهر هؤلاء الفارون بطولات نادرة فى المواقع التالية .

☆ **موقعة البويب « رمضان سنة ١٣هـ » :-**

صمد المثنى على الجانب الغربى للفرات بمن بقى معه من الجنود وعدتهم ثلاثة آلاف جندى ،وبدأ يضمد جراحه وجراح جنده منتظرا المدد من عمر الذى بدأ يحس من حسنت توبته من المرتدين للمشاركة فى الجهاد فنفروا إليه سراعا فوجههم عمر إلى المثنى حيث اجتمعوا بالبويب على ضفة الفرات الغربية .

أرسل رستم إليهم جيشا ضخما بقيادة مهران الهمزانى فنزل الفرس على الضفة الشرقية وكاتب مهران المثنى إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ،فقال المثنى اعبروا ،فعبر الفرس إلى الضفة الغربية ،وعبأ المثنى جيش المسلمين الذين أنضم إليه أنس بن هلال النمرى ممدا المثنى فى أناس من النمر نصارى وابن مردى الفهرى التغلبى فى أناس من تغلب نصارى وقالوا حين رأوا العرب بالعجم نقاتل مع قومنا .

وخرج المثنى على فرسه الشموسى يطوف بصفوف الجيش فوقف على الرايات راية راية يحضهم ويأمرهم بأمره ويثير النخوة فيهم بأحسن ما فيهم ويقول :إنى لأرجو أن تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شئ إلا وهو يسرنى لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول ،والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب ،وحمد الناس له قوله وعمله ثم قال :إنى مكبر ثلاثا فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة .

وقد دارت المعركة شرسة قاسية فلما طال القتال واشتد عمد المثنى إلى أنس بن هلال فقال : يا أنس أنك إمرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا فإذا رأيتنى حملت على مهران فأحمل معى ،وقال لأبن مردى الفهرى مثل ذلك فأجابه فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته ثم خالطوهم وأجتمع القلبان وارتفع الغبار وقويت مجنبات المسلمين على المشركين وجعلوا دون الأعاجم على أدبارهم والمثنى والمسلمون فى القلب يدعون

لهم بالنصر ويشجعهم بقوله : عاداتكم فى أمثالهم انصروا الله ينصركم حتى هزموا القوم وقتل غلام من التغلبيين نصرانى مهران وأستوى على فرسه وحاول الفرس الفرار من على الجسر فسبقهم المثنى إليه فقطعه فأفترق الفرس بشاطئ الفرات مصعدين ومضوبين وتبعتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم ثم جعلوهم أكواماً فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أتقى رمة وكانوا يحرزون القتلى فى البويب بمائة ألف قتيل .

وقد أبلى المسلمون يوم البويب بلاء حسناً وارتفعت روحهم المعنوية حتى قال المثنى : قد قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام ،والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ،ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم . إن الله أذهب مصدوقتهم بردهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسمى فيج ولا ينال طوال فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت .

وقد سميت البويب بيوم الأعشار لأنهم أحصوا مائة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة فى المعركة يومئذ كما أحصى عدد من قتل التسعة من المشركين .

وقد أعترف المثنى قائد المعركة المنتصر يومئذ بخطأ أخذه الجسر ومنعه الفرس من الفرار وقال : لقد عجزت عجزة وفى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أخرجتهم فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس فإنها كانت منى زلة لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع وهكذا يعترف المثنى بنبلة مع انتصاره ويحذر المسلمين مما وقع فيه وقد أستشهد يومئذ عدد من أعلام المسلمين وفرسانهم المعروفين .

وقد ألقت هذه الموقعة الرعب فى قلوب الفرس فتمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيداً يلقون فيها مانعاً ،حتى أطلوا على تكريت وغارت بعض فرقهم على المدائن وحصلوا على كثير من الغنائم التى تركها تجار الفرس وفروا هاربين .

☆ موقعة القادسية :-

كانت لهزيمة الفرس فى البويب أثر كبير فى دفعهم إلى توحيد كلمتهم وتجميع صفوفهم ليتمكنوا من دفع المسلمين الذين أصبحوا يهددون عاصمتهم وألقوا باللائمة على قوادهم ،وقالوا :والله ما جر هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القواد ! لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ،والله لولا أن فيه قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لن تنتهوا لتهلكنكم ثم لنهلك وقد اشتفينا منكم فأستقر رأيهم على إسناد الملك إلى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وكان شابا في الواحدة والعشرين من عمره فأجتمع الفرس عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته وعزم على حماية ملكه وطرد المسلمين وأعد العدة لذلك وسمى الجنود بكل سلح وثغر وكون جيشا بلغ تعداده مائة وعشرين ألفا مقاتل أسند قيادته إلى رستم أعظم قواد الفرس .

وقد كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد وانضموا إلى الفرس مما أدى إلى ضعف وضع المسلمين .

انسحب المثنى إلى ذى قار بعد أن كتب إلى الخليفة باستعدادات الفرس وعندما وصل كتاب المثنى إلى عمر إجابة بأن يخرج من بين ظهرى الأعاجم ويرابط في المياه التى تلى الأعاجم على الحدود ولا يدع فى ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارسا إلا اجتلبتموه لحملوا العرب على الجد إذا جد العجم .

وكتب عمر إلى عمال العرب على الكور والقبائل فى ذى الحجة عام ١٣هـ لا تدعوا لاحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل .

توافدت القبائل بقوادها على المدينة فلما تكامل عددهم خرج بهم عمر فى أول المحرم (سنة ١٤هـ) فعسكر فى حرار على ثلاثة أميال من المدينة فى طريق العراق والعامة تقول سر وسر بنا معك فدخل معهم فى رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرج منه فى رفق ،وقد أفلح ذوو الرأى فى حمل عمر على الإقامة فى المدينة على أن يبعث رجلان من

أصحاب رسول الله (ﷺ) ويمده بالجنود ،وقد استقر رأيهم على تولية سعد بن أبى وقاص قيادة جيش المسلمين الذى بلغ بضعة وثلاثين ألفا فيهم كثير من صحابة رسول الله (ﷺ) ولم يدع عمر رئيسا ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا ذا سلطة ولا خطيبا ولا شاعرا إلا رماهم بوجوه الناس وغررهم .

وقد أوصى عمر سعدا عندما أمره على حرب العراق فقال :يا سعد سعد بنى ذهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله (ﷺ) وصاحب رسول الله (ﷺ) فإن الله عز وجل لا يمحو السئ بالسئ ولكنه يمحو السئ بالحسن فإن الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة فانتظر الأمر الذى رأيت النبى (ﷺ) منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمة فإنه الأمر .

توجه سعد إلى العراق ليقود أكبر جيش توجه إلى الفرس ولم يسعده الحظ بلقاء المثنى الذى توفى متأثرا بجراحه التى أصابته يوم الجسر ولكنه قدم إلى سعد قبل وفاته بوصية بعثها مع أخيه المعن يقول فيها : قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم فإن يظهر المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرا على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم .

نزل سعد بالقادسية بعد أن أمر أفراد الأجناد وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وجعل على كل عشرة أميرا ،وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ذا النور وجعل إليه الأقياض وقسمة الفيء ،وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى ،وكان عمر يعلم بكل تحرك للجيش كأنه شاهد معهم .

أقام سعد بالقادسية شهرا يرسل طلائعه للإغارة على أهل السواد وبث الغارات بين كسكرو الأنبار فحققوا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانا .

كما بعث عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بنزول رستم بساباط .

بعث سعد بأمر عمر رجالاً لهم رأى ونظر إلى يزدجرد فأذن لهم بعد أن جمع لـهم وجوه دولته وقال لهم : ما جاء بكم ؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فلا يغرنكم منا ... وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكـم قوتـا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم .

فأجابه النعمان بن مقرن مبيناً بعثة الرسـول (ﷺ) وتـاريخ الدعـوة الإسـلامية ،وأهدافها وموقف العرب منها وانطوائهم تحت لوائها وأن الرسول أمرنا أن نبدأ بمن يلينـا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسـن الحسـن وقبـح القبيح كله فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء . فإن أبيتم فالمنـاجزة ،فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجـع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن أتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

فغضب يزدجرد وقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شئ لكم عندى ثـم قـال ائتونى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخـرج مـن بـاب المدائن وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم فى خندق القادسية .

وقد ترددت الرسل أيضاً بين سعد ورستم رغبة فى الصلح ،وكـان المغـيرة ابـن شعبة هو المتحدث بلسان وفد المسلمين ولكن رستم وقومه قالوا :لا صلح بيننا وبينكم فقـال المغيرة تعبرون إلينا أو نعبر إليكم فقال رستم بل نعبر إليكم فعبر الفرات .

وعبأ كل من القائدين رجاله ودارت معركة قاسية بين الفريقين استمرت أربعة أيام ،رجحت فى اليوم الأول كفة جيش الفرس بسبب زعر خيول المسلمين من فيلـة الفـرس ويسمى هذا اليوم يوم أرماث لاختلاط أمرهم .

وفى اليوم الثانى إبتدئ بدفن القتلى ثم حمل الجرحى إلى من يقوم بتمريضهم مـن النساء ،وقد وصل إلى جيش المسلمين مدد من الشام بقيادة هاشم ابن عتبة بن أبى وقـاص فشد من أزر المسلمين وقد ابتكر المسلمون حيلة أخافوا بها خيول الفرس بأن حيلوا الإبـل وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وطافت بها خيولهم تحميها خيول الفرس منـها مـا

لقيت خيول المسلمين من الفيلة في اليوم الأول وقد أستمر القتال شديدا إلى منتصف الليل وكانت كفة جيش المسلمين أرجح حيث قتلوا من الفرس عشرة آلاف واستشهد ألفين من المسلمين ويعرف ذلك اليوم بيوم أغواث لورود الغوث فيه .

وفي اليوم الثالث بعد دفن القتلى ونقل الجرحى التقى الجيشان بحنق وغيظ وعادت فيلة الفرس تفعل فعلها في خيول المسلمين فوجه جنود المسلمين رماحهم إلى عيونها ومشارفها فنفرت الفيلة موقعة الخلل في صفوف الفرس وولت الأدبار وأضعف ذلك من قوة جيش الفرس وأقبل الليل والمعركة حامية الوطيس ولم يسمع في تلك الليلة إلا صليل السيوف وهدير الفرسان حتى أشرقت شمس اليوم الرابع والقتال مستمر إلى أن انتصف النهار فمكن الله المسلمين من جيش الفرس واشتدت وطأة المسلمين على قلبه وجناحيه واستطاع هلال بن علقمة أن يخلص إلى سرادق رستم فيقتله وينادى قتلت رستم ورب الكعبة فكبر المسلمون واشتدت حملتهم على الفرس فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون حتى أجلوهم إلى ضفة الفرات الشرقية وسمى هذا اليوم من أيام القادسية يوم عماس – أي الحرب الشديدة – وسميت ليلته ليلة الهرير ولم يخض المسلمون موقعة أشد منها هؤلاء لا مع الفرس ولا مع غيرهم وقد أستشهد فيها قرابة ثمانية آلاف من المسلمين وقتل من الفرس ثلاثون ألفا .

وكتب سعد إلى عمر يقول : أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموها ونقله عنهم إلى المسلمين وأتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا تعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود . ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم .

وكان عمر قلقا يخرج كل يوم إلى طريق العراق يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله وذات يوم لقى البشير فسأله عمر من أين ؟ فأخبره ،قال يا عبد الله حدثنى قال : هزم الله العدو وعمر ينحب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين فقال الرجل ! فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول : لا عليك يا أخى هات ما عندك فسلمه كتاب من سعد بالنصر وبما أفاء الله على المسلمين .

وتعد موقعة القادسية من المواقع الفاصلة بين الفرس والمسلمين فقد حشد لها الفرس كل إمكانياتهم التى تمكن المسلمون من سحقها بحيث لم يستطع الفرس حشد قوة مماثلة لها ،كما أضعفت روحهم المعنوية وحطمت قوتهم المادية ورفعت من روح المسلمين ومكنتهم من استرجاع الحيرة وما والاها من المدن ثم الاستيلاء على عاصمتهم المدائن وحملت كثيرا من عرب العراق إلى اعتناق الإسلام وانضمامهم إلى صفوف المجاهدين وملأت أيدى المسلمين بالأسلاب والغنائم .

☆ **فتح المدائن « ١٦ هـ »** :-

أقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين فى مكاتبة عمر بما ينبغى عمله وليستجم جيش المسلمين ،وكان الذين فروا من جيش الفرس قد اجتمعوا فى بابل بقيادة بعض قوادهم فارتحل إليهم سعد وقاتلهم المسلمون ببابل فهزموهم فى أسرع من لفت الرداء فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همة إلا الافتراق وقد أقام سعد ببابل أياما ثم توجه الجيش الإسلامى فى ذى الحجة «سنة ١٥هـ» بقيادة سعد إلى بهر سير المدائن الدنيا فحاصرها المسلمون شهرين يرمونها بالمجانيق والعرادات فتمكنوا من الاستيلاء عليها بعد أن تركها الفرس وعبروا إلى المدائن العليا .

وأثناء حصار المدائن راسلت الدهاقين سعدا فدعاهم إلى الإسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة ،فتراجعوا على الجزاء والمنعة ،ولم يدخل فى ذلك ما كان

لآل كسرى ومن دخل معهم ،فلم يبقى فى غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا أمـــن واغتبط بملك الإسلام ،واستقبلوا الخراج واستقر الأمر للمسلمين فيما بين دجلة والفرات .

وعندما نزل المسلمون المدائن الدنيا شــاهدوا إيــوان كســرى « قصــر كســرى الأبيض» فقال ضرار بن الخطاب الله أكبر أبيض كسرى هــذا مــا وعــد الله ورســوله وتابع المسلمون التكبير حتى أصبحوا وتذكروا الأثر القائل : عصبة من المسلمين يفتحــون البيت الأبيض بيت كسرى ،فتاقت نفوسهم إلى أن يتم علـــى أيديــهم ذلــك وقــوى ذلــك من روحهم المعنوية .

كان الفرس قد قطعوا الجسر بعد أن عبروا إلى المدائـــن العليــا ليعوقــوا زحــف المسلمين على عاصمتهم فأقام المسلمون ببهر سير أياما من صفر (سنة ١٦هـ) يحثــون سعدا على العبور فيمنعه الإبقاء على المسلمين خوفا عليهم من الغرق حتى دلــهم بعــض أهل الكتاب – الحانقين على ملوكهم من الفرس على مكان يمكن منه خوض دجلة فــانتدب سعد أهل البأس والنجدة فاقتحموا دجلة وقاتلوا الفرس على الضفة الشرقية ثم أذن للنـــاس فى الاقتحام فاقتحموا دجلة –وكان الذى يساير سعدا فى المساء سلمان الفارســى –فعــاتب بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ! والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينــه وليهز من الله عدوه إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات . فقال له ســلمان : الإسلام جديد ذللت لهم والله البحار كما ذلل لهم البر أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجــن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا فطبقوا الماء حتى ما ير الماء من الشاطئ ولهم أكثر حديثــا منهم فى البر لو كانوا فيه فخرجوا منه لم يفقدوا شيئا ولم يغرق منهم أحد .

وقال الفرس بعضهم لبعض عندما شاهدوا المسلمين وهم يعبرون يوم المدائن دجلــة « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن فانهزموا » .

وقد انسحب يزدجرد بعياله إلى حلوان وتبعه أهل المدائن فانطلق المســلمون إلــى القصر الأبيض وفيه قوم قد تحصنوا فأشرف بعضهم فكلمهم رائد المسلمين سلمان الفارسى وقد جعله المسلمون داعية أهل فارس : فقال إنى منكم فى الأصل وأنا أرق لكم ولكم فـــى

ثلاث أدعوكم إليها فاختاروا ما يصلحكم : أن تسلموا فإخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا ،وإلا فالجزية ،وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين فقبل أهل القصر الأبيض الجزية وخرجوا .

ونزل سعد إيوان كسرى وهو يقرأ قوله تعالى : « **كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين** » وصلى فيه سعد صلاة الفتح ولا تصلى في جماعة فصلى ثماني ركعات لا يفصل بينهن واتخذه مسجدا وأقام به أول جمعه في صفر سنة ١٦هـ وهي أول جمعة جمعت بالعراق .

وقد غنم المسلمون ما تركه الفرس وما في خزائن كسرى من أموال وذخائر كثيرة فقسمها المسلمون بينهم فكان نصيب الفارس أثنا عشر ألف درهم ثم قسمت دور المدائن بين الناس فأوطنوها وأتخذها المسلمون قاعدة لأعمالهم الحربية في العراق وقد جمع خمس الغنائم الذي ضم كثيرا من نفائس كسرى وحلية فأرسله إلى المدينة ومنها أساور كسرى التي كانت من نصيب سراقة بن مالك ؟

• **فتح نهاوند - فتح الفتوح « سنة ٢١هـ»** :-

بعد هزيمة الفرس في المدائن لجتمعوا في جلولاء محاولين استرداد عاصمتهم ولكن المسلمين وعلى رأسهم القعقاع بن عمرو ذهبوا إلى حلوان واحتلوها ، كما تمكن المسلمون من الإستيلاء على تكريت والموصل من الجزيرة وقد توقف المسلمون بحركة الفتح شرقا عند حلوان نهاية العراق العربي وذلك بأمر من الخليفة بعدم التقدم إلى ما وراءها كي لا يتورط المسلمون فيما لا يعرفون مسالكه من البلاد وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم في المناطق التي استولوا عليها من الفرس .

حاول يزدجرد في سنة ٢١هـ أن يخوض معركة أخرى ضد المسلمين لعله يتمكن من طردهم من الأقاليم التي استولوا عليها فجمع من الولايات الباقية على طاعته جيشا كبيرا بلغ تعداده مائة وخمسين ألفا وأمر عليهم ذو الحاجب الذي تقدم بجيشه إلى نهاوند وعسكر فيها .

بلغت أنباء هذه الحشود عمر بن الخطاب فولى النعمان بت مقرن قيادة الحرب ضد هذه الحشود وجمع له جيشا من أهل الكوفة والبصرة والحجاز بلغ تعداده ثلاثين ألفا مقاتل وعندما وصلوا إلى نهاوند وجدوا الفرس في حصون قوية ولا يخرجون للقتال إلا إذا شاءوا وقد أستطاع المسلمون إخراجهم من هذه الحصون بخدعة حربية هي استطراد فرقة من المسلمين لهم كأنهم منهزمون ،فيتبعهم الفرس طمعا في هزيمتهم ،وقد قام القعقاع بن عمرو بذلك فأنشب القتال معهم ثم تقهقر فظنها الفرس هزيمة فأغتنموها وخرجوا يتبعونه فأمر النعمان المسلمين بالهجوم عليهم بعد أن هز اللواء ثلاث مرات وهو يكبر ثم قال : اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وذل يذل به الكفار ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة أمنوا يرحمكم الله . وقد حمل كل مسلم على ما يليه من العدو حملة واحدة فما كان من المسلمين أحد يريد أن يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر ودارت رحى معركة مريرة قاسية أريق فيها الغزير من الدماء وثبت الفرس فما كان يسمع إلا وقع الحديد على الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب ولكنهم صبروا ولم يبرحوا أرض المعركة مما حمل الفرس على الهزيمة وكانوا قد شدوا أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا فكلما وقع واحد منهم يقع عليه سبعة بعضهم على بعض في قياد فيقتلون جميعا .

وقد أصيب النعمان في المعركة بنشابه في خاصرته فقتله فأخفى أخوه معقل موته وحمل اللواء حذيفة بن اليمان وتابع المسلمون القتال حتى تحققت الهزيمة على الفرس وكتب إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين فلما أتاه قال له :أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله وأذل به الكفر وأهله ،فحمد عمر الله عز وجل ثم قال النعمان بعثك ؟ قال :احتسب النعمان يا أمير المؤمنين فبكى عمر واسترجع وقال :ومن ويحك ! قال : فلان ،وفلان ،حتى عد له ناسا كثيرا ثم قال :وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم فقال عمر وهو يبكي : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ولكن الله يعرفهم .

وقد سمي فتح نهاوند بفتح الفتوح إذ لم تقم بعدها مواقع كبيرة بين المسلمين والفرس فكانت موقعة نهاوند هي الفاصلة في الحرب مع الفرس وتبعها استيلاء المسلمين

على همذان والرى وفرار يزدجرد إلى خراسان ثم إلى أقصى الحدود الشرقية حيث ظل يعمل على استرجاع ملكه ولكن بدون فائدة حتى توفى فى خلافة عثمان رضي الله عنه.

أما المسلمون فقد انطلقوا يستولون على جميع أراضى الفرس حتى تم إخضاعهم للمسلمين ثم شرح الله صدر الكثير منهم فاعتنقوا الإسلام وتعلموا العربية واندمجوا فى المجتمع الإسلامى وعرفوا باسم "الموالى" وكان لهم منزلة كبيرة فى جميع نواحى الحياة العامة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية .

☆ **فتح الشام ومصر** :

• **فتح دمشق « سنة ١٤هـ»** :-

تم للمسلمين النصر على الروم فى موقعة اليرموك فى ختام حياة أبى بكر الصديق رضي الله عنه ،وقد لجأ الروم المنهزمون فى اليرموك إلى فحل من بلاد الأردن كما أتى مدد من حمص إلى دمشق فكتب أبو عبيده إلى عمر بأيهما يبدأ بفحل أم بدمشق فأجابه عمر : ابدءوا بدمشق فاهتدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم ،واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم فى نحورهم .

وقد نفذ أبو عبيده خطة الخليفة فوجه بعض القوات إلى فحل ووجه قوات أخرى لتكون بين حمص –التى فيها هرقل آنذاك –وبين دمشق ثم توجه ببقية القوات إلى دمشق فحاصرها حصارا شديدا استمر سبعين ليلة تتخللها زحوف وترام بالنبال والمجانيق وأهل دمشق معتصمون بالمدينة يرجون الغياث من هرقل الذى أرسل إليهم خيلا فمنعتها قوات المسلمين المرابطة بين دمشق وحمص إلى الوصول إليهم فلما يئس أهل دمشق من وصول الإمداد إليهم فشلوا ووهنوا وانقطع رجاؤهم وزاد المسلمون طمعا فيهم .

كان خالد بن الوليد أحد القواد المحاصرين لدمشق وكان لا ينام ولا يخفى عليه شئ من أمور الناحية التى يحاصرها يحاول معرفة ما يدور فى داخل المدينة فعلم باحتفال أهل دمشق بولود ولد لقائد من قواد الروم وبانشغالهم فى الطعام والشراب فأغتنم تلك الفرصة واستطاع مع بعض جنوده تسلق سور دمشق وفتح الباب الذى يليه ودخل

منه جنده وأعملوا السيوف فيمن تصدى لهم موعندما سرى خبر دخول خالد من الباب الذى يليه طلب أهل دمشق من أبى عبيده قبول الصلح الذى عرضه من قبل عليهم فقبل منهم أبو عبيده وفتحوا لهم الأبواب فدخل جند كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة والتقوا فى وسط المدينة فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح وتم ذلك فى رجب «سنة ١٤ هـ» .

● **من فحل إلى قيسرين** :~

ترك أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان فى دمشق يدبر أمورها ويستولى على الأقاليم المجاورة لها ثم توجه ببقية الجيش وعليهم شرحبيل بن حسنة إلى فحل التى عسكر فيها ثمانون ألف هم جنة جيش الروم وكانوا قد أطلقوا المياه فأوحلت الأرض وعاق ذلك تقدم المسلمين فوقفوا محاصرين لهم وعندما طال الحصار خرج الروم لمباغته المسلمين فوجدوهم علي أهبة الاستعداد فدار القتال بينهم علي أشده ليلتهم ويومهم إلى الليل وعندما أشتد الظلام عليهم حاروا وانهزموا وهم حيارى وضلوا الطريق فأسلمتهم الهزيمة إلى الوحل ولحق بهم المسلمون فركبوهم وما يمنعون يد لامس فوخذوهم بالرماح فأصيب الثمانون ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد وكان الوحل الذى أستاء منه المسلمون أولا عونا لهم على عدوهم .

توجه الجيش بعد ذلك إلى بيسان وطبرية فصالحهم أهلها على شروط صلح دمشق بأن يشاطروا المسلمين المنازل فى المدائن عن كل رأس دينار كل سنة .

تقدم أبو عبيدة بعد ذلك إلى حمص فحاصرها وأقام عليها الشتاء كله وكان الروم يغادون المسلمين ويراوحونهم فى كل يوم بارد وقد لقى المسلمون بها بردا شديدا فأفرغ الله عليهم الصبر وأعقبهم النصر حتى أنسلخ الشتاء وأيقن أهل حمص الذين ذاقوا مرارة الحصار بتفوق المسلمين عليهم وانقطع رجاءهم فى انسحاب المسلمين عن مدينتهم فطلبوا الصلح فصالحهم المسلمون على مثل صلح أهل دمشق .

ثم وجه أبو عبيدة بعد ذلك خالدا إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو رأس الروم بعد هرقل فقاتلهم خالد قتالا شديد وقتل ميناس فقاتل الروم على دمه حتى لم يبق منهم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وإنما حشروا ولم يكن من رأيهم جربه فقبل منهم وتركهم ،ولما بلغ عمر ذلك قال : أمر خالد نفسه رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني .

وسار خالد حتى نزل قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم :إنكم لو كنتم في الحساب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا وذكروا ما لقى أهل حمص من الحصار فصالحوه على صلح أهل حمص .

وعقب هذه الانتصارات المتتالية للمسلمين يئس هرقل من بقاء الشام تابعة له فودع سوريا الوداع الأخير وهو يقول : « عليك السلام يا سورية سلاما لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدا » وقد تابع المسلمون فتح الأقاليم فى شمال الشام حتى اتصلت البلاد التى دانت للمسلمين بالشام بالبلاد التى دانت لهم بالعراق .

- **فتح أجنادين وبيت المقدس « سنة ١٥هـ » :-**

عندما توجه أبو عبيدة وخالد إلى حمص كان عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة يحاولان فتح فلسطين .فتمكن معاوية بن أبى سفيان من فتح قيسارية وصالحت الأردن شرحبيل .وزحف عمرو إلى أجنادين وعلى مقدمته شرحبيل وكان على الروم فى أجنادين الأرطبون وكان أدهى الروم وأبعدهم غورا وأنكاهم فعلا .ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظر عما تنفرج ،وقد أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطه ثم كانت الحرب بينهم فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إنهزم الروم وأودى الأرطبون إلى إيليا ،ونزل عمرو أجنادين .

توجه عمرو بعد ذلك إلى بيت المقدس التى لها مكانة خاصة لدى المسلمين والمسيحين فهى مسرى رسول الله وفى ضمها إلى المسلمين القضاء على من بقى للروم فى الشام وفلسطين .

ضرب عمرو الحصار على بيت المقدس قرابة أربعة أشهر صبر فيها المسلمون لبرد الشتاء وتحملوا كثيرا من العناء فى قتال العدو وعندما طال الحصار فر الأرطبون إلى مصر . وتولى بطريق الدفاع عنها حتى أعيته الحيل ويئس من النصر فجنح إلى السلم على أن يكون المتولى لعقد الصلح هو عمر بن الخطاب نفسه ،وذلك توكيدا للأمان وزيادة فى توثيق عرى العهد خاصة بعد الدماء الغزيرة التى سالت بين المسلمين والروم .

كتب عمرو بذلك إلى عمر فسار إلى الشام وهى أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها وجاءته رسل أهل أيلياء يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم عهد الذمة والأمان التالى : « أعطاهم أمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ،أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ،ولا يكرهون على دينهم ،ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود ،وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن خرجوا عنها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فإنه من على نفسه ومال حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام فهو أمن وعليه مثل ما على أهل آيلياء من الجزية ،ومن أحب من أهل آيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ،ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذ أعطوا الذى عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وحضر سنة خمس عشرة.

وبعد كتابة الأمان توجه عمر إلى بيت المقدس وسار حتى دخل كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة فقال للبطريرك أريد الصلاة فقال له : صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا فلما قضى صلاته قال للبطريرك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال ارنى موضعا أبنى فيه مسجدا فقال على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردما كثيرا فشرع فى إزالته وتناوله بيده فرفعه فى ثوبه وأقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام ،وعاد إلى المدينة ،وتم بذلك فتح الشام .

* فتح مصر :-

● العوامل التى ساعدت على نجاح فتح مصر :

كانت الأوضاع السيئة التى سادت الحياة فى مصر فى شتى جوانبها من العوامل التى ساعدت المسلمين على فتح مصر .

سواء من الناحية السياسية التى كان يسودها التغيير والقهر والعداء بين الحاكمين والمحكومين . أو من الناحية الاقتصادية التى أرهقت السكان بالضرائب الفادحة ولم تبق لهم من نتاج عملهم وجدهم شيئا يواجهون به مطالب الحياة مع عدم الاهتمام بالمشاريع التى تعمل على تقدم للزراعة والصناعة والتجارة ثم الوضع الدينى المتدهور الذى أشاع الذعر والخوف عند المصريين وجعل الكثيرين منهم يتركون ديارهم ويفرون إلى أماكن بعيدة فرارا من الاضطهاد وتخلصا من العذاب إذا لم يعتنقوا المذهب الذى يدين به الحاكم.

فإذا أضفنا إلى ذلك الدوافع والأهداف التى حملت المسلمين على فتح مصر ظهرت لنا الصورة جلية لا غيوم فيها : حيث قدم المسلمون إلى مصر بدافع من العقيدة التى استقرت فى قلوبهم وجعلتهم يخرجون من جزيرتهم ليبشروا بدينهم الذى سوى بين الناس جميعا ونظم لهم العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفرض عليهم عبادات ومثل أخلاقية وطالبهم بتبليغها إلى الناس جميعا ويعزز ذلك أيضا الصلات التجارية التى تربط

بين مصر وبلاد العرب منذ القدم عن طريق البحر الأحمر أو صحراء سيناء مما جعل سترابون المؤرخ يذكر عن مدينة قفط أنها مدينة نصف عربية ويذكر المؤرخون المسلمون أن المغيرة بن شعبه وعثمان بن عفان زاروا مصر للتجارة فى الجاهلية كما يذكرون زيارة عمرو بن العاص للإسكندرية كذلك .

ثم أن موقع مصر المطل على الحجاز من جهة والمتصل بالشام من جهة أخرى وبشمال إفريقية من جهة ثالثة كان دافعا للمسلمين على فتحها خيفة أن يتخذها الروم سبيلا لمهاجمة الحجاز نفسه والقضاء على المسلمين فيه . خاصة وان جنود الروم الذين هزموا فى المعارك الشامية فر الكثير منهم إلى مصر ومنهم أرطبون قائد حامية بيت المقدس الذى لاشك أنه كان يسعى للانقضاض على المسلمين ،خاصة وقد بدأ الروم يشنون الغارات على شواطئ الشام .

ثم أن خيرات مصر التى كانت تعين القسطنطينية ،كانت من الأمور التى حملت المسلمين على فتح مصر ،وفى استيلاء المسلمين وقطع هذه الخيرات عن القسطنطينية يعتبر قطعا للإمداد والتموين عنها ونصرا حربيا للمسلمين من الناحية الاقتصادية ،ثم تزويد الجيش الإسلامى بهذه الإمدادات يساعده عل مواصلة تحقيق أهدافه . ويدفعه لبذل أقصى طاقاته فى تحقيق ما يرمى إليه من نشر الرسالة التى خرج لتبليغها من الجزيرة العربية .

- **كيف تم فتح مصر :-**

يذكر المؤرخون روايات متعددة عن بداية الفتح يبين بعضها أن عمر بن الخطاب أمر عمرو بالتوجه إلى مصر وبعضها يبن أن يكون عمرو هو الذى أشار على بن الخطاب بذلك ،كما يذكر روايات عن استئذان عمرو للخليفة قبل أن يتوجه عمر إلى مصر أو بعده . ثم يوردون تردد الخليفة فى فتح مصر ،والذى تميل إليه بعد دراسة هذه الروايات أن هذه مناقشات وأفكار دارت قبل أن يتخذ قرار الفتح وبعد أن تبين أهمية فتح مصر أمر الخليفة عمرا بالتوجه إلى مصر كما يذكر ذلك البلاذرى وكان ذلك فى نهاية سنة ١٨هـ .

ولم يتجاوز الجيش الذى قاده عمرو لفتح مصر أربعة آلاف جندى سار بـــه إلـــى العريش حيث أستولى عليها بدون مقاومة لتصدع حصونها ولعدم وجود حامية رومانية بها.

• **الاستيلاء على الفرما وبلبيس :-**

ومن العريش توجه عمرو إلى الفرما حيث كانت محصنة وبها حاميـــة رومانيـــة فضرب عليها الحصار شهرا ودار قتال بين المسلمين وبين الحامية انتصر فيها المســـلمون واستولوا على الفرما التى تعتبر المدخل الطبيعى لمصر من الشرق وتؤمن للمسلمين المـــدد أو العودة ،وقد تم للمسلمين فتحها أول المحرم « سنة ١٩هـــ يناير سنة ٦٤٠م» .

ثم واصل المسلمين السير مارين بمدينة مجدل فالصالحية فوادى الطليمات بقـــرب التل الكبير حتى وصلوا إلى بلبيس وكان بها الأرطبون الفار من بيت المقدس فـــأدار بـــها القتال شهرا ضد المسلمين أنتهى بهزيمته واستولى المسلمون على المدينة .

سار عمرو بالمسلمين بعد ذلك إلى أم دنيـــن حيـــث دار القتـــال بيـــن المســـلمين والبيزنطيين أشتد القتال وأبطأ الفتح فكف عمرو عن القتال وأرسل إلـــى الخليفـــة يطلـــب المدد. فأمده الخليفة بأثنى عشر ألفا من المسلمين على رأسهم الزبير بن العوام وعبادة بـــن الصامت ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود الذين يعد الواحد منهم بألف رجل كما يقـــول عمر بن الخطاب .

وقد تمكن عمرو قبل وصول المدد من الاستيلاء على أم دنين ثم عبر النيل قـــاصدا الفيوم حيث أستولى على البهنسا واستاق ما كان يقابله من الأنعام وقبل أم يســـتولى علـــى الفيوم علم بوصول المدد فعاد أدراجه وأستقبل المدد وعسكر به فى هليوبولس "عين شمس"

• **الاستيلاء على حصن بابليون :-**

اعتصمت قوات الروم بقيادة تيودور ورئاسة المقوقس فى حصـــن بـــابليون ،وقـــد أستدرجهم عمرو إلى القتال خارج الحصن حيث إلتقى بهم فى العباسية ،وقد أعد كمينا لـــهم فى الجبل شرقى العباسية وآخر قريبا من أم دنين ثم هاجمهم ببقية الجيش ،وعندما حمـــى

وطيس القتال خرج الكمين الذى فى الجبل فاجتاح مؤخرة جيش الروم ،وأحدث بها خلــــلا فمالوا إلى أم دنين فخرج عليهم الكمين الثانى وصاروا بين ثلاثة جيوش إسـلامية فــاختل نظامهم وحلت بهم الهزيمة وفروا طالبين النجاة وعادوا إلى الحصن برا وبعضــــهم ركــب السفن ولاذوا بالحصن وقتل منهم عدد كبير فى تلك المعركة .

ومهدت هذه المعركة السبيل للمسلمين لكى يحاصروا حصن بابليون ،كــان وقــت فيضان النيل فطال الحصار إلى سبعة أشهر لقوة أسوار الحصن وقلة معدات الحصار عنــد المصريين .

أيقن الروم بتصميم المسلمين على فتح الحصن فتداولوا فــى مفاوضــة المســلمين فوافق البعض ورفض البعض الأخر . فخرج المقوقس فى نفــر إلــى جزيــرة الروضــة وأرسل إلى عمرو يطلب الصلح ،فخيرهم عمرو بين الإسلام ،أو الجزية ،أو القتال ،وعــاد الرسل فسألهم المقوقس عن المسلمين فقالوا كما يقول ابن عبد الحكم :رأينا قومــا المــوت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع احب إليه من الرفعة ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأجيرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعــهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها واحدا يغســلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم .

فقال المقوقس : « والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقـوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لــم يجيبونــا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من وضعهم .

وترددت الرسل بين المقوقس وعمرو فى شأن الصلح على دفع الجزيــة دينــارين على كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشــيخ الفــانى ولا علــى الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا النساء شئ ... وتم ذلك بالنسبة للقبط أما بالنسبة للروم فمــن أراد منهم البقاء كان كالقبط ومن أراد منهم الخروج إلى أرض الروم خرج وارجأ الموافقــة بالنسبة للروم إلى أن يوافق أمبراطورهم على ذلك .ولكن هرقل رفض الصلح وقتــل مــن

شأن المسلمين ولام المقوقس على تصرفه ،واستوقف القتال الذى أنتهى بأن تسلق الزبير بن العوام أسوار الحصن مع بعض المسلمين وعجز الروم عن مقاومته وطلبوا إجراء الصلح عليهم فوافق عمرو وخرج الروم من الحصن حاملين ما يكفيهم من القوت تاركين أسلحتهم ونخائرهم للمسلمين وتم ذلك فى المحرم «٢٠هـ» الموافق أبريل «سنة ٦٤١م»

• **فتح الإسكندرية :-**

بعد الاستيلاء على حصن بابليون توجه الجيش الإسلامى إلى الإسكندرية التى كانت عاصمة مصر آنذاك وذات أهمية كبرى تجارية وحربية وبحرية ولا يتم فتح مصر إلا بالاستيلاء عليها فوصل الجيش الإسلامى بعد أن خاض بعض المعارك فى الطريق مع حاميات الروم .

وعند الإسكندرية دار القتال بين المسلمين والروم المتحصنين فى مدينتهم واستمر الحصار والقتال أربعه أشهر .اضطربت خلالها أمور الدولة البيزنطية فأرست المقوقس إلى الإسكندرية حيث عقد صلحا مع المسلمين كان من نصوصه .

المهادنة بين الطرفين أحدا عشر شهرا وأن يحتفظ العرب بمركزهم مدة الهدنة وألا يباشروا أعمالا حربية ضد الإسكندرية وأن يكف جند الروم عن الأعمال العدائية وألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا فى شئون المسيحيين وأن ترحل الحامية التي بها بأمتعتهم وأموالهم مع دفع الجزية عن شهر عند رحيلهم وبقاء اليهود بالإسكندرية وألا يعود الرومان أو يحاول جيش رومى استرداد مصر ،وأن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين كل سنة . وأن يكون عند المسلمين مائة وخمسون جنديا روميا وخمسون مدنيا رهينة المعاهدة لتنفيذ هذه المعاهدة وكان ذلك فى « سنة ٢٠هـ / نوفمبر سنة٦٤١م» وتم الجلاء أخر « سنة ٢١هـ الموافق فى سبتمبر سنة٦٤٢م » حيث دخلها المسلمون وتمكن المسلمون بعد ذلك من بسط سلطانهم على جميع الجهات فى مصر : شمالها وجنوبها وصار المصريون بذلك أهل ذمة فى حماية المسلمين .

• **موقف القبط من المسلمين أثناء الفتح :~**

تضاربت أقوال المؤرخين عن فتح مصر بالنسبة لموقف القبط أثناء الفتح بين مثبت لمساعدة القبط للمسلمين وبين ناف لها . وقد يبالغون على مدى تأثير ذلك بالنسبة لسير الفتح . والرأى الذى نراه هو أن القبط كانوا محايدين أو سلبيين بالنسبة للمسلمين أو الروم أى من مساعدة إحدى الطائفتين ((الروم والمسلمين)) على الأخرى . ولكن ولكن عندما كان يفرض المسلمون سلطانهم على قرية أو مدينة ويستولون عليها فلاشك أن أهلها بحكم سلطة المسلمين عليهم سينفذون ما يطلب منهم من أمور تساعد المسلمين فى تحركاتهم وسير جيوشهم وتنفيذ أغراضهم فى بسط سلطانهم على هذه البلاد والأمر كذلك بالنسبة لمن هم تحت سلطان الروم من القبط أثناء فتح مصر .

• **مكتبة الإسكندرية :~**

ومع قيام عمرو بهذه الأصلاحات الكثيرة التى تمت فى عهده فإن هناك دعوى فرغ المؤرخون من بحثها وإثبات زيفها ونورد المامة عنها لنكون حذرين عند سماع طرف منها وتلك المسألة حريق مكتبة الإسكندرية الذى يرمى به عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب مع أن أوتيخا المؤرخ المعاصر للفتح الإسلامى والذى وصف فتح مصر لم يذكر هو ولا غيره شيئا عن هذه الفرية وكذلك لم يشر إليها أحد من مؤرخى المسلمين القدامى كابن الحكم والبلاذى واليعقوبى والطبرى والكندى ومن جاء بعدهم كالمقريزى وأبى الحسن والسيوطى . وأول من أشار إليها عرضا فى سياق كلامه على عمود السوارى ولم يذكر عمن أخذ هذا الرأى عبد اللطيف البغدادى – المتوفى سنة ٦٣٩هـ فى كتابه الإفادة والاعتبار وجمال الدين القفطى المتوفى سنة٦٤٦هـ فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء وتابعهما الملطى المعروف بابن العبرى المتوفى سنة٦٨٥هـ فى كتابه مختصر الدول .

وقد أيد المثبتون لهذه الفرية رأيهم بأن المسلمين رغبة فى محو كل كتاب غير القرآن والسنة وبحرق المسلمين لكتب الفرس كما ذكر حاجى خليفة . وأن أبا الفرج

المتعصب روى ذلك عن مؤرخين مسلمين ثم أن إحراق الكتاب كان آمرا مالوفا يتشفى به كل مخالف ممن خالف رأيه وأن ابن طاهر أتلف سنة ٢١٣هـ مؤلفات المجوس وجاء هولاكو فألقى بكتب بغداد فى نهر دجلة .

والرد على ذلك بأن المسلمين يشجعون العلم والمعرفة ،وأن البغدادى والقفطى ربما أخذا هذه الفرية عن مؤلف معاد للإسلام وما يذكره حاجي خليفة من حرق مكتبة الفرس يرد عليه بأنه من المتأخرين حيث توفى سنة ١٠٦٧هـ ولم يذكر ذلك مؤرخ سابق ، وعلى فرض صحة ما نسب إلى ابن طاهر فإن ذلك لا يكون حجة على عمر وعمرو لانه متأخر ثم أن كتب المجوس غير كتب المسيحيين الذين يحترمهم المسلمون .

ثم أن فى سياق خبر الحريق ما يدل على كذب نسبته إلى المسلمين فهم يذكرون أن الكتب التى أحرقت كفت حمامات الإسكندرية وقودا – وهى أربعة آلاف حمام ستة أشهر . ولقد قصد المسلمون إحراق الكتب لأعدمت فى الحال . ولو وزعت على الحمامات كما يزعمون لأستنفذها يوحنا النحوى الراغب فيها بثمن بخس . كما يذكر بتلر أن يوحنا مات قبل الفتح الإسلامى بثلاثين أو أربعين سنة وإذا صح هذا بطلت الدعوى من أساسها .كما أن يوحنا أسقف نقيوس لم يتعرض لها وتاريخه هو وأوتيخا من أهم المصادر عن الفتح الإسلامى والمؤرخون يذكرون أن المكتبة قد حصل لها الحريق مرتين الأولى سنة ٤٨ق.م على أثر حرق أسطول يوليوس قيصر والحريق الثانى سنة٣٩١هـ فى عهد القيصر تيودوسيس ،كما يذكر أورازيوس أنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب عند زيارته لمدينة الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى وإذا أثبت أن المسيحيين قد حرقوا هيكل سيرابيس فمن المعقول أن النار التهمت كل المكتبة ...ولذلك لم يرد ذكر للمكتبة فى الآداب خلال القرن الخامس والسادس الميلادى وكانت حالة مصر متأخرة فلم يعمل على إعادة المكتبة إلى سابق عهدها .ثم أن المكتبة لو كانت موجودة أثناء الفتح لعمل الروم على نقلها إلى القسطنطينية خلال الهدنة . أما رواية عبد اللطيف البغدادى فإن ذكره لها عرضا أثناء حديثه عن عمود السوارى يدل على عدم تحققه منها وربما أخذها من

ألسنة العوام الذين يرددون الصواب والخطاء دون أن يجهد نفسه بتحقيقها ثم تلقفها أبو الفرج الذى يعتبر متعصبا ضد المسلمين وحاقدا عليهم .

ومن ذلك يتجلى لنا أن فرية حريق مكتبة الإسكندرية محض افتراء لا أساس لصحة نسبته إلى عمر بن الخطاب أو عمرو بن العاص رضى الله عنهما .وإنما هى تهمة زائفة يزاد إلصاقها بالمسلمين للحط من قدرتهم ورميهم بإتلاف الحضارات السابقة والمسلمون من ذلك براء .

✪ **نتائج الفتح الإسلامى فى مصر :-**

صارت مصر بعد الفتح ولاية تابعة للخلافة الإسلامية فى المدينة وتولى عمرو بن العاص إدارة شئونها وتصريف أمورها فأحدث فيها تغييرات بالغة أظهرت لسكانها الفرق الواضح بين حكم المسلمين وحكم الروم .

فقد أطلق عمر الحرية الدينية لجميع السكان سواء كانوا يعاقبه أو ملكانيين أو يهودا وكتب أمانا للبطريق بنيامين وأعاده إلى مركزه بعد أن تغيب عنه ثلاث عشرة سنة وأعطاه السلطة التامة لإدارة شئون الكنيسة وكان لذلك أثره فى نفوس المصريين وقد أسس أول مسجد ومعهد إسلامى فى أفريقيا بإقامة جامع عمرو وبنى مدينة الفسطاط التى صارت عاصمة الديار المصرية ومقرا لولاة المسلمين ومركزا إسلاميا يشع منه النور إلى أفريقيا وتخرج منها جيوش المسلمين إلى أفريقيا شمالا وجنوبا كما أهتم بالإصلاح الإدارى فنشر الأمن والنظام فى البلاد وعين القضاة وشق الترع وأنشأ الأحواض والقناطر والجسور وبنى مقاييس على النيل ووضع خطة لجباية الخراج ترتبط بدرجة فيضان النيل واستعان بموظفين من القبط وأهتم بالملاحة فحفر قناة تربط بالنيل بالبحر الأحمر وبذلك صار هناك طريق بحرى بين الفسطاط وبين الحجاز .

وقد خفف الضرائب عن كاهل المصريين فأصبح المسلمون لا يجبون سوى حكم عشر مليونا من الدنانير ينفق منها على مرتبات الموظفين والجند وفى أعمال الإصلاح والمنشآت التى قام بها المسلمون .

بينما كان الرومان يجبون حوالى عشرين مليونا .وصار جميع السكان أمام حكم الإسلام سواء فأبطلت الامتيازات التى كان يتمتع بها الأفراد أو المدن وصار الناس جميعا سواسية كما أمر الإسلام فتمتعت مصر بحياة آمنة مستقرة .

الإصلاحات والمنشآت التى تمت فى عهد عمر

١) **التاريخ الهجرى** :-

كان العرب يؤرخون بالأحداث الكبرى مثل عام الفيل وحلف الفضول وشعر عمر بأن المسلمين فى حاجة إلى توقيت ثابت بحدث جليل من أحداث الإسلام العظمى فجمع الصحابة واستشارهم فى ذلك فاختلفت الآراء حول الابتداء بميلاد الرسول (ﷺ) أو بعثته أو هجرته أو وفاته وبعد تداول الأفكار أستقر أمرهم على أن تكون هجرة الرسول (ﷺ) هى بداية التاريخ الإسلامى باعتبارها أعظم أحداث الإسلام التى تحقق بعدها عزة الإسلام وحماية الدعوة وانتشارها وقد جعلوا المحرم مبدأ العام الهجرى وكان ذلك فى شهر ربيع الأول من السنة السادسة عشرة من الهجرة . ويذكر ابن كثير أنه رفع إلى أمير المؤمنين عمر صك رجل على آخر وفيه يحل عليه فى شعبان . فقال عمر أى شعبان ؟ أشعبان هذه السنة التى نحن فيها أو السنة الماضية أو الآتية ؟ ثم جمع الصحابة واستشارهم فى وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك .

٢) **وضعه الخراج وتدوين الدواوين** :-

عمل عمر على مسح السواد فى العراق وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على رؤوس أهل الذمة فيما فتح المسلمون من البلدان فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهما وعلى الوسط أربعة وعشرين درهما وعلى الفقير اثنى عشر درهما وقال لا يعوز رجلا منهم درهم فى شهر فبلغ خراج السواد على عهده مائة وعشرين مليونا درهم هذا ماعدا ما يجئ من الأقاليم الأخرى وهكذا كثرت الأموال التى ترد للدولة من الفئ والغنائم والخراج والجزية والزكاة فكان لابد من وضع نظام لحصر هذه الأموال

وبيان أوجه صرفها . وقد أستشار عمر المسلمين فى ذلك فقال الوليد ابن هشام بن المغيرة : يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرئيت ملوكها تدونوا ديوانا وجندوا جندا فأخذ عمر برأيه ووضع ديوانا للجند فيه أسماؤهم وما يستحقه كل منهم وديوانا لما يرد إلى بيت المال ومـا يفرض من العطاء لكل مسلم وفضل أهل السوابق والمشاهد فى العطاء . وكان أبو بكر قـد سوى بين الناس فى القسم . فقيل له فى ذلك فقال :لا أجعل من قاتل رسول الله (ﷺ) كمن قاتل معه ففضل أزواج النبي (ﷺ) ثم من شهد بدرا ...ألخ ومما يؤثر عنه فى ذلـك أنـه فضل أسامة بن زيد على أبنه عبدالله بن عمر فقال عبد الله بن عمر فرضـت لـى ثلاثـة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف وقد شهدت مالم يشهد أسامة فقال عمر : زدتـه لأنـه كان أحب إلى رسول الله (ﷺ) منك وكان أبوه أحب إلى رسول الله عليه السلام من أبيـك ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم .ثم جعل من بقى من المسـلمين بابا واحدا وقال لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألف لسفره ،وألـف لسلاحه ،وألف نجعلها لأهله ،وألف لفرسه وبغله وكان ذلك فى محرم سنة ٢٠هـ .

وكان عمر لا يفرض للرضع من الأطفال مما حمل بعض النسـاء علـى التبكـير لفصل أطفالهن فقال عمر :ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولـود فـى الإسلام كما يروى عنه أنه مال فى آخر حياته إلى عدم التفضيل فى العطاء وقـال : والله لأن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم لأجعلنهم رجلا واحدا .

أهتم عمر بنشر العدل فى أرجاء الخلافة الإسلامية ولذلـك عيـن قضـاة لفصـل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين على المدينة أبا الدرداء وهو مـن الصحابـة وعلى الكوفة شريح بن الحارث الكندى وهو من كبار التابعين وعلى مصر قيس بن أبـى العاص السهمي .ومن أشهر من ولاهم القضاء موسى الأشعرى .

وقد سن عمر للقضاه دستورا يسيرون على هديه في فصلهم بين المتخاصمين وقـد ضمن ذلك فى كتاب بعثه إلى أبى موسى الأشعرى وإلى غيره من القضاه واعتـبر كتابـه أساسا يوضح لنا نظام القضاء وأصوله فى عهده ونص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك أما بعد ،فالقضاء فريضة محكمة ،وسنة متبعة ،فإنهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آسر بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك والبينة على من أدعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ،ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ،الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأمثال والأشباه فقس الأمور عند ذلك وأعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق وأجعل لمن أدعى حقا أمدا ينتهى إليه فإن أحضر بينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنقى للشك وأجلى للعمى ،المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حدأو مجربا على شهادة زور أو ظنينا متهما فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرا بالبينات والإيمان وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله ليس من نفسه شأنه الله . فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

ولحرص عمر على نشر العدل كان يأمر عماله بأن يوافوه كل سنة فى موسم الحج ،وكان يطلب ممن له شكوى أو مظلمة عند الولاة أن يرفعها إليه ليحقق فيها حتى يرد إلى المظلوم حقه .

وقد قال عمر أيما عامل لى ظلم أحدا فبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته ولذلك عين عمر محمد بن مسلمة الذي وثق فيه عمر ثقة كاملة ليحقق فى الشكاوى التى تقدم ضد عمالة على البلدان ولم يكن ابن مسلمة يحقق تحقيقا سريا وإنما كان يسال من يريد سؤاله علنا وعلى ملا من الناس ولم يكن هناك محل للتأثير فى الشهود لان يد عمر كانت قوية

وكان لكل إنسان الحق فى ان يرفع شكواه مباشرة فحقق للناس العـــدل والحريـــة ونعمـــوا بالحياة الحرة الكريمة .

لقد كان عمر مثالا للعدل والنزاهة ليس مع الناس فقط وإنما مع أهل بيته كذلك فقد قال ابـن عمر : أهدي أبو موسى الاشعرى لامرأة عمر عاتكة بنت زيد طنفسه أراها تكون ذراعـــا وشبرا فدخل عليها عمر فراها فقال : أني لك هذه ؟ فقالت : أهداها ابو موسى الاشـــعرى فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نغض رأسها ثم قال : على بأبي موســـى الأشـعري واتعبوا فأتى به قد اتعب وهو يقول : لم تعجل يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ما يحملـــك على ان تهدى لنسائي ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال : خذها فلا حاجـــة لنـــا فيها . رحم الله عمر فقد بين للحكام ما يجب ان يتحلى به الحاكم .

ومن إصلاحاته : أنه اتخذ دارا وضع فيها الدقيق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه ليعيـن به من أنقطع بهم السبيل أو الضيف ينزل به ووضع فى الطريق بين مكة والمدينـــة ومـــا يصلح من ينقطع به الطريق .كما وضع نظاما لمراقبة الأســـواق والنظـــر فـــي المكـــاييل والموازين حتى لا يترك ثغرة لمن يحاول أن يتلاعب فى أقوات الناس .

وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقا يأخذه وليه كل شهر لينفـق علية ، ثم ينقلة من سنة إلى سنة وكان يوصي بهم خيرا ويجعل رضاعهم ونفقتـــــهم مـــن بيت المال .

وقد اشتد عمر على أهل الريب والتهم وعس فى عملة بالمدينة وحمـــل الـــدرة وادب بها حتى قيل بعدة لدرة عمر أهيب من سيفكم .

- **تمصير الامصار** :-

يقصد بتمصير الأمصار إقامة مدن جديدة صالحة لسكنى المسلمين وتكون قواعـــد مقدمـــة تنطلق منها الجيوش إلى ميادين الجهاد وقد أسس فى عهد عمر عدة مدن منها :

البصرة والكوفة ، وقد حمل عمر على ذلك ما لاحظه من تغير على هيئـــة الوفـــود التـــي جاءته بفتح تكريت بعد أن أقام المسلمون بالمدائن فكتب عمر إلى سعد بن أبـــي وقـــاس :

أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكتب إلية : إن العرب أهزلهم وغير الوانهم وخومة المدائن ودجلة فكتب إلية عمر : إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان رائدا وحنيفة - وكانا رائدي الجيش - فليرتادا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر فخرجا يرتادا منزلا حتى نزلا ارض الكوفة فأعجبتها البقعة فنزلا فصليا ودعوا الله أن يبارك لهم في الكوفة ويجعله منزل ثبات للمسلمين . وبعد أن وافق الخليفة على اختيار المكان انتقل إلية سعد من المدائن واتخذة مصرا في المحرم سنة ١٧هـ وفي البداية أقام المسلمون في الخيام ثم استأذنوا عمر في أن يبنوا بيوتهم بالقصب فقال عمر : العسكر أشد لحربكم واذكى لكم وما احب أن أخالفكم فابنوا بيوتا من قصب وعندما أصابها الحريق أذن لهم في اتخاذ بيوت من اللبن وقد بدءوا ببناء المسجد ثم دار الإمارة وجعل فيها بيوت الأموال وقد جعلت شوارعها الرئيسية أربعين ذراعا .

وإذا كانت الكوفة قد مصرت في السنة السابعة عشرة فإن البصرة قد نزلها المسلمون في السنة الرابعة عشرة بقيادة عتبة بن غزوان بعد الانتصار في القادسية ليمنع وصول الإمداد منها إلى المدائن وقد ظل المسلمون فيها إلى أن تم تخطيطها مع الكوفة في السنة ١٧هـ ومصرتا معا في سنة واحدة كما يشير إلى ذلك الطبري في الاستئذان بالقصب ثم اللبن .

وقد حلت الكوفة محل الحيرة والبصرة محل الايلة بعد تمصيرها وارتفع شأنهما وعظمت مكانتها وخرجت منهما الجيوش الجرارة لاتمام الفتوح كما حملتا لواء العلم والمعرفة ردحا طويلا من الزمن .

⚜⚜ ((التنظيمات الإدارية والمالية)) ⚜⚜

تمت الفتوحات الإسلامية العظيمة فى عهد عمر ، واتسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية اتساعا كبيرا ، وكان على القائد الأعلى لهذه الجيوش وهو عمر أن يفكر فى النظم الإدارية والمالية وما يترتب عليها من نظم أخرى حتى يمكن له ولولاته من إدارة هذه البلاد ، وفى زيارته الرابعة للجابية عقد ما يشبه المؤتمر مع أمراء الجيوش وأصحاب الرأي من المسلمين وبحثوا فيه هذه الأمور ، وتقدم المراجع الإسلامية لنا بعض الروايات المختلفة عن هذا المؤتمر باسم (عهد عمر) ويرى بعض المستشرقين أن ما تضمنه هذا العهد من أحكام إنما يتبع عصورا متأخرة ، ومهما يكن من رأى فما يهمنا هو النتائج التي أسفر عنها هذا المؤتمر ، وهى واضحة تتمثل فى النظم التي أوجدها أو اقرها عمر فى الدولة العربية الإسلامية :

☆ **أولا التنظيمات الإدارية :-**

أبقى أمير المؤمنين عمر على معظم النظم الإدارية التي كان معمولا بها فى البلاد التي تم فتحها ، حتى لا يسبب أية اضطرابات فى شئونها الداخلية ويرجع سبب ذلك إلى أن العرب الفاتحين لم يكن لهم من النظم الإدارية أو المالية ما يمكنهم من تغيير نظم هذه البلاد المفتوحة التي سادت فيها النظم الفارسية أو النظم البيزنطية . حقيقة أن العرب أحدثوا بعض التغيرات الضئيلة فى بعض هذه النظم ، ولكنها كانت ضرورية لتتمشى مع تعاليم الإسلام الحنيف ، ومع مصلحة أهل البلاد المفتوحة أنفسهم .

فقد أبقى عمر على هيكل الجهاز الحكومي فى البلاد المفتوحة ، وبقيت دواوينها ، وبقى عمالها الذين لم يغادروا البلاد إبان الفتح لدرايتهم بأعمالهم ، وسمح لهم بالكتابة فى سجلاتهم بلغة بلادهم ، فكانت دواوين الشام يسجل عليها باليونانية ، والعراق وفارس بالفارسية ، ومصر بالقبطية ، أحيانا باليونانية والقبطية معا .

وأقر عمر النظم الفارسية فيما يختص بالتقسيمات الإدارية فى العراق وفارس فأبقى عليها ، وكانت هذه التقسيمات تعرف باسم (الرساتيق) . وهى مشتقة من اللفظ الفارسي

(روستاق) بمعنى حي أو قرية ، كما أبقى على التقسيمات البيزنطية فـــى الشـام وكـــانت تسمى نظام البنود « Themes» أو الثغور ، بل طبقة في بعض البلاد التـــي لـــم يكـــن موجودا فيها من قبل .وعرف هذا النظام باسم (الأجناد) ، كما أبقى على ما كـــان فـــى مصر من تنظيمات (الكور) ومفردها كوره وهى لفظة يونانية «Curia» معناها المركز والمقر وظيفة المشرف على مالية الكورة المعروفة باسم جسطال ، وهى مشتقة من الكلمـــة اليونانية (أو جستاليوس) أي عامل الخراج .

بعد أن استقرت أمور الفتح واتسعت أرجاء الدولة العربية الإسلامية قام عمر ســـنة ٢٠هـ بتمصير الأمصار ، وتجنيد الأجناد حتى يسهل إدارتها والإشراف على مواردها فقسم العراق إلى مصرين (أي ولايتين كبيرتين) هما الكوفة والبصرة وما يتبعهما من رساتيق ، واتبع نفس التنظيم فى فارس فكانت أمصارها الأهواز والبحرين ، وسجستان ومكـــران وكرمان ، ثم طبرستان ، وخرا سان ، وقد جعل الشام أجنـــادا هـــي دمشـــق ، وحمـــص ،والأردن ، وفلسطين ، وفى وقت لاحق أجرى بعد التعديلات فضم إلى قنســـرين بعـــض الأماكن وجعلها جندا كذلك ، وقسمت مصر إلى ثلاثة أمصار هي مصر العليا ، ومصـــر السفلي وإقليم الصحراء الواقع غرب مصر ممتدا إلى ليبيا ، وقد لعبت هذه الأمصـــار دورا هاما فى الحياة السياسية للدولة العربية الإسلامية ، إذ كـــانت مراكـــز إمـــدادات بشـــرية وعسكرية للفتوحات ثم تحولت إلى مراكز علمية وحضارية وأصبحـــت أســـواقا دوليـــة للتجارات المختلفة .

أوقف عمر الأرض التي فتحها المسلمون عنوة على عامة المسلمين تجرى غلتـــها عليهم وعلى من يأتى بعدهم من المسلمين ، فقد سأله سعد بن أبـــى وقـــاص بعدمـــا تـــم على يدية فتح العراق فى قسمة الأرض ، فأجابه عمر "واترك الأرضين . والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضـــر ، لـــم يكـــن لمـــن بقى بعدهم شئ "

وفي الحجاز قام عمر بطرد اليهود من شبة الجزيرة العربية على أثر مقتل مظهر بن رافع الحارثي ،وأجلاهم إلى الشام حيث سمح لهم بالإقامة هناك ، واعتمد فى ذلك على حديث الرسول : " لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان "، ثم قسم الأراضي التي كان يسكنها اليهود إلى أسهم ، كما ضم الأراضي التي تركها أهلها وجلوا عنها إلى بيت المال ، وسميت هذه الأراضي الصوافي والقطائع.

- **ثانيا : التنظيمات المالية :** ~

كان المسلمون يجاهدون بالغزو مع رسول الله وظلوا كذلك حتى عهد أمير المؤمنين عمر وليس لهم عطاء أو رزق معين ، وكانت أنصبتهم تخصص من الفيء والغنيمة ، فلما توسعت الدولة فى فتوحاتها ،واستلزم ذلك استقرار المجاهدين فى البلاد التي فتحوها ، كان من الضروري إيجاد نظام يتلاءم مع الوضع الجديد للدولة ، فطبق عمر سنة ٢٠هـ نظام الديوان الذي كان معمولا به في بلاد فارس والشام ، وقد أشار به علية مرازبة الفرس الموجودين في المدينة ، ويقال بل هشام بن المغيرة حيث عرفة في الشام ، حتى يتمكن عمر من موازنة دخل الدولة ومصروفاتها عن طريق رصد ذلك كلة في السجلات فلا يشذ منه شيء ، كما يسجل فيه أهل العطاء على حسب ترتيب قبائلهم فلا يتطرق إليهم خلل .

أقام عمر تنظيم الديوان من حيث أولوية العطاء على أسس ثلاث متوالية ، أولها : درجة القرابة والنسب برسول الله فبدأ بالعباس عم رسول الله ، وبني هاشم قبيلة بعد أخرى . ثانيها : السابقون الأولون في الإسلام ، حسب استجاباتهم وآثارهم في الدعوة الإسلامية ، فبدأ بأهل بدر ثم لمن بعدهم مجموعه بعد أخرى . وثالثها : درجة الجهاد والبلاء والشجاعة والإقدام في سبيل نشر الإسلام ، وهؤلاء بدأ بهم من أهل القادسية وما بعدهم .

وبلغت درجة حرصه على توزيع العطاء توزيعا عادلا إن أشرف بنفسه على ديوان العطاء ، فلما قيل له : إن هنا رجلا من الأنبار له بصر بالديوان لو اتخذته كاتبا ؟ فقال : لقد اتخذت أذن بطانة من دون المؤمنين .

أنشأ عمر بيت المال ولم يكن موجودا على عهد الرسول ولا أبي بكـــر الصديــق حيث كانت سياسة الرسول ومن بعده أبي بكر أن تأتي الأخماس أو أمـــوال الزكـــاة إلـــى المدينة فيقوم بتوزيعها جميعا على من في المدينة ، وقد رفض عمر في أول الأمر أن يبقى في بيت المال شيء للطوارئ ، وقال لمن عرض عليه هذا الأمر : كلمة ألقاها الشـــيطان على فيك ، وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي . ويبدو أن كثرة موارد الدولة المالية بعد استقرار الفتوحات أضطر عمر الموافقة على إيجاد بيت للمال يحفظ فيه الأموال الزائـــدة عن أعطيات الجند ، والفائضة بعد الإنفاق الضروري على مصالح المســلمين ، وكـــانت موارد بيت المال متعددة الجوانب أساسها الزكاة والصدقات والجزية والعشور والفـــائض من الخراج ، وقد أرسى عمر بعض القواعد المالية للصالح العام ، فإلى جـــانب الزكـــاة المفروضة على المسلمين (ربع العشر ٢,٥%) قرر (نصف العشر ٥ %) على أهـــل الذمة ، كما قرر (العشر ١٠ %) على تجارة أهل الحرب (أي الروم) لأنـــهم كـــانوا يأخذون من تجار المسلمين نفس هذه الضريبة إذا قدموا بلادهم للتجارة .

وقنن عمر الجزية ، ففي الشام كانت في بادئ الأمر جريبا ودينـــارا علـــى كـــل شخص ، فوضعها عمر على أهل الذهب (الأغنياء) أربعة دنانير وعلى متوسطي الدخـل دينارين ، وعلى العامة القادرين دينارا في كل عام وكتب إلى أمراء الأجناد بتحديدها .

- **العمـــلة :-**

ومن ناحية العملات المتداولة في البلاد المفتوحة أبقى عمر على تداولها وكـــانت هذه العملات (كسروية) في العراق وفارس ، (وهرقلية) في بلاد الشام ومصر ، وكان منقوش عليها بيت النار الفارسي أو الصليب لأن العرب لم يكن لها عملة خاصـــة بـــهم ، ولكنهم كانوا يتعاملون قبيل الإسلام ، وصدر الإسلام بعملة (حميرية) وقد ترجع موافقـــة عمر على استعمال هذه العملات في البلاد المفتوحة إلى أن النبي وافق على استعمالها ، ثم تبعه أبو بكر الصديق وكانت هذه العملات المتداولة الدينار الذهبي ، والدرهـــم الفضـــي ، والمثقال ونصف المثقال ، وقد ظلت هذه العملات مستعملة في الدولـــة الإســـلامية حتـــى

ضرب عبد الملك بن مروان الأموي السكة الإسلامية من دنانير دمشقية ودراهم ، وكان الدرهم يساوي خمسة عشر قيراطا من الدينار . ومع أن عمر سمح باستعمال العملات الفارسية والبيزنطية إلى أن أدخل عليها بعض النقوش العربية الإسلامية لكي تميزها مثل :(الحمد لله)،(محمد رسول الله) كذلك أمر عمر بسك دراهم جديدة موحدة القيمة (ستة دوانق) بعد أن كانت تختلف قيمتها ما بين ثلاثة إلى ثمانية دوانق .

● تنظيم القضاء :-

بدأ نظام تعيين قضاة على عهد أبي بكر الصديق عندما جعل عمر بن الخطاب على القضاء وبذلك يكون عمر أول من ولي القضاء في الإسلام ، ولكن الفتوحات الإسلامية استلزمت التوسع في نظام القضاء فكان عمر يرسل في كل مصر من الأمصار قاض يختاره من أفاضل المسلمين ليتولى الحكم في المسائل الدينية أو الدنيوية بين أهل هذا المصر وليشرف على الفيء والغنائم ، ثم خص عمر رجلا آخر يقوم بتقسيم الغنائم وأول من عين على القضاء في مصر هو قيس بن أبي العاصي ثم خلفه ابنه عثمان بن قيس . ويعتبر عمر أول من فصل السلطة القضائية عن سلطان الحكام ، فكان القضاة يعينون منه مباشرة ، ويتصلون به فيما يرونه من شئون المسلمين ، دون تدخل من ولاة الأقاليم .

إلى جانب القضاء أوجد ما يشبه ديوان المحاسبة ، فكان لايصدر قرارا بمعاقبة أحد من ولاته أو عماله على الأقاليم إلا بعد تحقيق دقيق فكان يرسل بعض من يثق في عدالتهم ونزاهتهم وقدرتهم على بحث الأمور وكان من بين هؤلاء محمد بن مسلمة الأنصاري ليتحرى الأمر من المسلمين ويتحقق من موضوع الشكوى ويلم بجميع نواحيه ثم يرفع الموضوع كاملا إلى أمير المؤمنين عمر ليتخذ فيه القرار ، ومع هذا كان لا يتخذ قرارا إلا بعد مواجهة الخصمين وسؤال كل منهما ، ويتحقق بنفسه في كل صغيرة وكبيرة في القضية المعروضة علية ، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها شكوى الجرّاح بن سنان الأسدي ومجموعته ضد سعد بن أبي وقاص ، والغلام القبطي من مصر الذي شكى بن عمرو بن العاص ، وكان مرجع ذلك شدة حرصه على الحق والعدل وإظهارهما والتمسك

بهما . ومن مظاهر هذا الحرص أنه كان إذا أنهى الناس عن فعل جمع أهله فقال : "إنـــي نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت علية العقوبة " وفي عام الرمادة سنة ١٨ هجرية إلى عمـر على نفسه ألا يذوق لبنا ولا سمنا ولا لحما حتى يتوفر ويأكله الناس جميعا ، وقـد هـزل جسمه ، وشحب لونه ، ومع ذلك ظل صابرا وقال ما يدل على عظمة الحاكم المسلم الـذي يشارك شعبه بؤس الحياة وضرها ، ويتعفف على الرخاء ورغدها ، " كيف يعنيني شـأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم " جيء إليه ذات يوم بقليل من طعام جيد به بعض الكبـد وشحم الجمل ، وكان قد أمر بذبح جذور للمسلمين ، فنظر إلى الطعام وقال : " بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها " ثم أمر مولاه (يرفأ) أن يعطي هذا الطعـام أهل بيت (يثمغ) وقال : " لأني لم أذهب إليهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين "

- **استشهاد عمر رضي الله عنه** :-

لقد بذل عمر كل جهده وطاقته في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل وسيادة العـدل بين الناس جميعا لا تأخذه في الله لومة لائم حتى نعمت الرعية بحياة طيبة كريمة سـعدت بها الأمة في داخل الجزيرة وخارجها من المسلمين وغير المسلمين .

ولا شك أن غير المسلمين الذين فتحت بلادهم وسقطت عروشهم ودالـت دولتـهم كانوا يحقدون على المسلمين عامة وعلى الخليفة خاصة بعد أن عجزوا أن يوقفـوا المـد الإسلامي الذي جرف أمامه كل شيء وارتفعت راياته في كل مكان ولم يكن لديـهم إلا أن يكيدوا للإسلام عن طريق تدبير الاغتيال لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وكان ذلـك على يد أحد سبايا فتح نهاوند وهو فيروز أبو لؤلؤه – غلام المغيرة بن شـعبه – وكـان نصرانيا خبيثا إذا نظر إلى السبي الصغار يأتي فيمسح على رؤوسهم ويبكي ويقول العرب أكلت كبدي مما يدل على حنقه للمسلمين .

كان عمر يطوف بالسوق فلقيه أبو لؤلؤه متبرما ومظهرا سببا لما يكنه فـي نفسـه وقال : يا أمير المؤمنين أعني على المغيرة بن شعبه فإن علي خراجا كثيرا ، قال : وكـم

خراجك . قال درهمان في كل يوم . قال : وما صناعتك قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال . قد بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال : نعم . قال : لئن سلمت لأعملن لك رحا يتحدث بها من في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه . فقال عمر رضي الله عنه : لقد توعدني العبد آنفا ثم انصرف عمر إلى منزله . وفي الغد جاء كعب الأحبار فقال له يا أمير المؤمنين أعمد فإنك ميت في ثلاثة أيام . قال وما يدريك ؟ قال أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة قال عمر : الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك وعمر لا يحس وجعا ولا ألما . فلما كان من الغد جاء كعب فقال : يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان . ثم جاءه من غد الغد فقال ذهب يومان وبقى يوم وليله وهي لك إلى صبيحتها فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت جاء هو يكبر . ودخل أبو لؤلؤه في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته فلما وجد عمر حز السلاح سقط وقال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين هو ذا قال : تقدم فصلي بالناس فصلى عبد الرحمن وعمر طريح ثم احتمل فأدخل دارة وقد قتل أبو لؤلؤه نفسه بعد أن قتل ستة من المسلمين .

اهتم عمر بمعرفة من قتلة فقال يا عبد الله بن عمر أخرج فأنظر من قتلني ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد قتلك أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبة قال : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاججني عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلني . كما أهتم عمر بمعرفة رأي الناس في اغتياله فأمر عبد الله بن عباس بأن يسأل المهاجرين والأنصار أهل عن ملا ومشورة كان الذي أصابه فخرج بن عباس فسألهم فقال لا والله ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا .

إنها مؤامرة قصد بها طعن إسلام في خليفة المسلمين وقد أشترك في هذه المؤامرة ونفذها وكان من خلفه الهرمزان ملك الأهواز الذي أسر وعفا عنه عمر وأقام في المدينة

ثم جفينة النصراني وربما علم بذلك أيضا كعب الأحبار وقد أورد بن سعد في الطبقات روايتين إحداهما عن عبد الرحمن بن عوف برؤيته للسكين التي قتل بها عمر مع الهرمزان وجفينه والثانية عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق تشم منها رائحة المؤامرة فقد قال حين قتل عمر : قد مررت على أبي لؤلؤه قاتل عمر ومعه جفينة – نصراني من نصارى الحيرة – والهرمزان وهم يتناجون فلما بغتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابة في وسطه فانظروا . أما الخنجر الذي قتل به عمر فوجدوه الخنجر الذي نعت عبد الرحمن بن أبي بكر .

وهكذا تظهر أبعاد المؤامرة التي أطاحت بعمر رضي الله عنه وكيف اشترك فيها أبو لؤلؤه من نهاوند والهرمزان ملك الأهواز سابقا وجفينة النصراني من الحيرة ولا شك أن عدم وجود حرس للخليفة هو الذي سهل لأبي لؤلؤة قتل عمر رضي الله عنه .

وقد حدث بن عباس بالبصرة : بأنه أول من أتى عمر بن الخطاب حين طعن فقال : احفظ مني ثلاثا فإني لا أخاف أن يدركني الناس : أما أنا فلم أقض في الكلالة قضاء ، ولم أستخلف على الناس خليفة ، وكل مملوك لي عتيق . قال ابن عباس فقال له الناس استخلف فقال : أي ذلك ما أفعل فقد فعله من هو خير مني أن أترك الناس أمرهم فقد تركه نبي الله (ﷺ) وإن استخلف من هو خير مني أبو بكر فقلت له " أبشر بالجنة صاحبت رسول الله فأطلت صحبته ووليت أمر المؤمنين فقويت وأديت الأمانة فقال : أما تبشيرك إياي بالجنة فو الله الذي لا إله إلا هو لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هول ما أمامي قبل أن أعلم الخبر ، وأما قولك في أمره المؤمنين فوالله لوددت أن ذلك كفانا لا لي ولا علي ، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله (ﷺ) فذاك .

وقد أوصى عمر الخليفة الذي سيختار من الستة الذين حددهم وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحه بن عبيد الله الذين توفى الرسول ﷺ وهو عنهم راض بقولة : " أوصي الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حرمتهم ، واوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام وغيظ العدو وجبال

المال أن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضى منهم وأوصية بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأوصيه بالأعراب خيرا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يؤخذ من حواشي أموالهم فيرد على فقرائهم وأوصيه بذمة رسوله أن يوفى لهم بعدهم وأن لا يكلفوا إلا طاقتهم وأن يقاتل من وراءهم "

وقد اهتم عمر بأن يدفن إلى جوار صاحبيه ولكن برضى من صاحبة المكان وهى عائشة أم المؤمنين فقال لأبنه عبد الله : أذهب إلى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست لهم اليوم بأمير يقول تأذنين له أن يدفن مع صاحبيه ؟ فاتاها ابن عمر فوجدها قاعدة تبكى فسلم عليها ثم قال : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فقالت : قد والله كنت أريده لنفسي لأوثر نه به اليوم على نفسي فلما جاء عبد الله قال له عمر : ما لديك ؟ فقال أذنت لك قال عمر : ما كان شئ أهم إلى من ذلك المضجع يا عبد الله بن عمر أنظر إذا أنا مت فاحملن على سريري ثم قف بي على الباب فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلني وإن لم تأذن فادفني فى مقابر المسلمين . فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ .

وكما كانت حياة عمر مضربا للعدل والزهد كانت وفاته كذلك فقد أوصى ابنه عبد الله فقال : اقصدوا فى كفني فإنه إن لم يكن لي عند الله خير أبدلني خيرا منه ، وإن كنت على غير ذلك سلبني فأسرع سلبي ، واقصدوا فى حفرتي فإنه إن لم يكن لي عند الله خير وسع لي فيها مد بصري ، وإن كنت على غير ذلك ضيقها على حتى تختلف أضلاعي ، ولا تخرجن معي امرأة ، ولم تزكوني بما ليس فى فإن الله هو أعلم بى وإذا خرجتم بي فأسرعوا فى المشي فإنه إن لم يكن لي عند الله خير قدمتموني إلى ما هو خير لي وإن كنت على غير ذلك كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شرا تحملونه .

رحم الله عمر كان إسلامه فتحا وهجرته نصرا وإمارته رحمة . كان عظيما فى استشهاده كما كان عظيما فى حياته فرحمة الله رحمة واسعة .

✿✿ ((الخليفة الثالث عثمان بن عفان)) ✿✿

« ٢٢ – ٣٥هـ –٦٤٤ –٦٥٦م »

• **بين يدي عثمان** :~

حدث عثمان بن عفان عن نفسه فقال – صادقا : لقد اختبأت لي عند ربى عشر : إني لرابع أربعة فى الإسلام ، ولقد انتمننى رسول الله على ابنته ثم توفيت فزوجني الأخرى ، ووالله ما سرقت ولا زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط ، ولا تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله ، ولقد جمعت القران على عهد رسول الله ولا مرت بى جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة فإن لم أجد فيها رقبة أعتقت في التي تليها رقبتين .

بعدئذ ينبغي – قبل أن نبدأ فى الحديث عن خلافة عثمان – أن نتناول شخصية بالتعريف ، بإلقاء مزيد من الضوء عليها ،حتى يمكن تفسير الحوادث والوقائع التي تتابعت إبان خلافته تفسيرا واقعيا سليما لا يجنح بنا بعيدا عن حقائق هذه الحوادث والملابسات التي وقعت بسببها والظروف التي أدت إليها والعصر الذي كان إطارا لها ، فنقول :

• **نسبه** :~

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أبى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أما أمه فهي أروى بنت كريز بن ربيعه بن حبيب بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي ، ولم أروى هي : البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم وتوأمة أبيه عبد الله ، وعثمان بذلك يلتقي نسبه مع النبي من جهة أبيه ومن جهة أمه ، بل هو أقرب الخلفاء الراشدين رحما من النبي عليه الصلاة والسلام بعد على بن أبى طالب .

• **مولده** :~

وقد ولد عثمان فى سنة ٥٧٥ أو بعد عام الفيل بخمس. فهو بذلك أصغر من النبي بخمسة أعوام .

• **إســــلامه** :~

كان من السابقين إلى الإسلام ، بل هو كما ذكرنا كان رابع أربعة أســـرعوا إلـــى الإيمان برسالة محمد بن عبد الله ، وكان إسلامه على يد أبى بكر راضى الله عنــــه فقــد استجاب لدعوته إلى الدخول فى الدين الذي يدعو إليه محمد ، لما كان بينهما مـــن صلــة وثيقة ، وما إن علم بإسلامه عمه الحكم بن أبى العاص ، حتي أوثقه ، وقال له : ترغـــب عن دين آبائك إلى دين محدث ؟ والله لا أدعك حتى تدع ما أنت عليه . فأجابه عثمان فـــى صلابة المؤمن والله لا أدعه أبدا ولا أفارقة : هكذا لم يجد تهديد الحكم ووعيده فتركه .

وإلى جانب صلابته فى الحق هذا فقد عرف عثمان بين قومه بالحلم والحيـــاة ، وليــن الجانب والكرم الوافر ، بل جمع فى نفسه سائر المكارم والشيم الحميدة .

• **جهــاده فى الإســلام** :

ولقد كان عثمان رضى الله عنه من أبرز صحابة رسول الله صلى الله عليـــه وســلم الذين أبلوا أعظم البلاء فى سبيل الله ، فهو ممن هاجر من مكة إلى الحبشة الهجرة الأولــى والهجرة الثانية ، وبصحبته فيها امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد الهجرة إلى المدينة واستقرار دولة الإسلام فيها ، وبدء الجــــهاد المسلح ضــد المشركين ، شهد عثمان مع النبي جميع غزواته إلا بدرا ، فقد تخلف عنها ليقوم بتمريــض زوجه رقية التي شاء القدر أن تنتقل إلى جوار ربها يوم انتصار المسلمين على عدوهم فى هذه المعركة الحاسمة ، وعلى الرغم من ذلك فقد عده الرسول من أصحاب بدر ، واســـهم له فى غنائمها تماما كالذين حضروها .

ثم زوجة النبي من ابنته الثانية أم كلثوم ، ولهذا كان رضــــى الله عنـــه يلقـــب بـــذي النورين لجمعه شرف الصهر بكريمتي الرسول الذي قال له عند وفاة أم كلثوم – فى السنة التاسعة من الهجرة – لو كانت لنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان .

ولان عثمان كان من الشخصيات ذات القدر المرموق بين قريش – فضلا عن مكانتـــه هذه بين أصحاب النبي – فقد أوفده سفيرا إلى قريش يوم الحديبيه ليقوم بتوضيح موقـــف

النبي والمسلمين لزعامة مكة ، فلما أشيع بين المسلمين أن قريشا قتلت عثمان ، بايع رسول الله أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة على أن يقدموا أنفسهم في سبيل الله وينزلوا بقريش ما تستحق من عقاب جزاء ما ارتكبوا من غدر في حق عثمان والمسلمين فكانت هذه البيعة التي باركها الله تعالى حين قال : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة "

ومن الطريف أن النبي عليه السلام ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال "هذه يد عثمان " فكانت يد النبي لعثمان خيرا من أيدي المبايعين لأنفسهم .

وقد أوتي عثمان حظا موفورا من المال ، يقابله حظ أوفر من البذل والعطاء في سبيل الله ، فلقد كان الفرس الذي لا يبارى في الإنفاق على تجهيز جيش المسلمين الزاحف إلى تبوك في جيش العسرة ، فيذكرون أنه أمد هذا الجيش بأكثر من ثلاثمائة بعير ، وخمسين فرسا ، وألف دينار فلما رأى النبي ذلك منه قال : "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ".

ومن أهم الجهود التي تذكر لعثمان في هذا الميدان : شراؤه بئر رومه ذات الماء العذب التي كان يملكها يهودي ، ويقوم ببيع مائها لأهل المدينة بثمن باهظ لا يستطيع دفعه كثير من الناس ، فكانوا يضطرون للتزود بالمياه من آبار أخرى ماءها غير عذب ، فلما قال النبي لأصحابه : " من يشترى بئر رومه فيجعلها للمسلمين ، يضرب بدلوه في دلائهم ، وله بها مشرب في الجنة ؟ سارع عثمان إلى ذلك اليهودي صاحب البئر ، وطلب منه شراء البئر ، فرفض اليهودي بيعها كلها . فاشترى منه نصفها باثني عشر ألف درهم ، واتفقا على أن يكون لكل منهما يوم معلوم في استغلال البئر ، فكان المسلمون يأخذون حاجاتهم من الماء في يوم عثمان ، لذلك رأى اليهودي أن يبيع لعثمان النصف الأخر ، فاشتراه بثمانية ألف درهم : وهكذا أصبحت تلك البئر جميعا ملكا خالصا للمسلمين .

ونضيف إلى ذلك – من جهة أخرى – أن عثمان واحدا من الصحابة القلائل الذين جمعوا القرآن– أي حفظوه – على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه كان أحد

كتاب الوحي له ، وأنه لكل هذه المناقب الرفيعة والفضائل الجليلة التي اجتمعت له ، كان عثمان أحد العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة من بين صحابته الأكرمين .

ثم إن عثمان – بعدئذ – واحد من رواة الحديث عن النبي عليه السلام ، وإبان خلافتي أبي بكر وعمر ، وكان عثمان أحد الرجال الذين يعول الشيخان على رأيهم في مهام الأمور، وقد مرت بنا نماذج حية تؤكد أن عثمان بن عفان كان أحد كبار رجال الدولة الإسلامية يومئذ .بل لقد انعكس صدى ما يتمتع به من مكانة عالية بين كبار القوم فأصبح عثمان مثلا عاليا لدى الأمهات في مجتمع المدينة ،فكانت الأم تدلل وليدها أو ترقصه وهي تقول له :-

((احبك والرحمن ××× حب قريش عثمان))

وإذا كانت هذه شخصية عثمان بن عفان بما تميزت به من جميل الصفات وحميد الخصال ، وما قدم من جلائل الأعمال ، وأثبت ذلك كله أنه من خيرة الرجال ، فقد كان طبيعيا جدا ، ومتفقا مع المنطق أن يتم انتخابه خليفة للمسلمين ، وأن تلتقي على انتخابه الأغلبية المطلقة من أهل العقد والحل في عاصمة الإسلام .. ولكن كيف كان ذلك ؟ هذا هو ما نعرض له بالتفصيل فيما يلي من القول :

• **مبايعة عثمان بالخلافة** :-

روى الطبري بسنده إلى عمر بن ميمون الأودي قصة الشورى التي تمخضت في نهايتها عن استخلاف عثمان رضي الله عنه على النحو التالي : " أن عمر ابن الخطاب لما طعن ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، لو استخلفت ؟ قال: من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيده بن الجراح حيا استخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : " إنه أمين هذه الأمة " ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : "إن سالما شديد الحب لله " فقال له رجل : أدلك عليه بهذا : .لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد أما لقد جهدت نفسي ، وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إني لسعيد .

وانظر فإن استخلفت فقد أستخلف من هو خير منى – يريد أبا بكر – وإن أترك فقد ترك من هو خير منى –يريد النبي ﷺ – ولن يضيع الله دينه . فخرجوا ثم راحوا فقالوا : يا أمير المؤمنين لو عهدت عهدا فقال : ما أريد أن أتحملها حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ : "إنهم من أهل الجنة " علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ ، والزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ ابن عمته ، وطلحه الخير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلا فإذا ولي واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه وان ائتمن أحدا منكم فليؤدى إليه أمانته وخرجوا .

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعدا وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ، فقال : أني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، إني أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ... فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ، ولا شيء له من الأمر ، وطلحه شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لي بطلحه ؟ يعني ومن يعرف رأيه فيتكلم باسمه ؟ _ فقال سعد بن أبي وقاص : أنا لك به ، ولا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان ، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعد فأهلها هو ، وإلا فليستعن به الوالي ، فأني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف ، مسدد رشيد ، له من الله حافظ فأسمعوا منه .

وقال – أي عمر – لأبي طلحه الأنصاري : يا أبا طلحه : إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم ، فأختر خمسين رجلا من الأنصار ، فأستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ، وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وطلحه إن قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ولا

شيء له من الأمر ، وقم على رؤسهم ، فإن إجتمعوا خمسة ورضوا رجلا وأبـى واحـد فأشدخ رأسه - أو أضرب رأسه بالسيف - وإن اتفقوا أربعه ورضوا رجلا منـهم وأبـى اثنان فأضرب رأسهما ، فإن رضى ثلاثة منهم رجلا منهم وثلاثة رجل منـهم ، فحكمـوا عبد الله بن عمر ، فأي الفريقين حكم فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبـد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بـن عـوف ، واقتلـوا البـاقين إن رغبـوا عما أجتمع علية الناس .

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وهـم خمسـة معهم ابن عمر ، وطلحه غائب ... فتنافس القوم في الأمر ، وكثر بينهم الكلام فقال عبـد الرحمن : ايكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد ، فقـال : فأنا أنخلع منها : فقال عثمان : فأنا أول من رضي .. فقال القوم قد رضينا - وعلي ساكت - فقال عبد الرحمن : ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال أعطني موثقا لتؤثرن الحـق ولا تتبـع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألوا الأمة فقال : أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم ، على ميثاق الله ألا أخـص ذا رحـم لرحمه ، ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله .

وهكذا فوض الرهط الأمر إلى عبد الرحمن ، الذي بدأ على الفور مهمته الجسـيمة ، فأخذ يشاورهم وبدأ بعلي فقال له : إنك تقول : إني أحق من حضـر لقرابتـك وسـابقتك وحسن أثرك في الدين ، ولم تبعد - أي عن الحق - ، ولكن أرأيت لو انصرف هذا الأمـر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟ قال : عثمـان ، وخـلا بعثمان ، فقال له تقول : شيخ من عبد مناف ، وصهر رسول الله (ﷺ) ابن عمه ، لـي سابقه ، وفضل - لم تبعد - فلن يصرف هذا الأمر عني ولكن لو لم تحضر فأي هـؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال :علي.

ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علي وعثمان ، فقال عثمان ، ثم خلا بسـعد ، فكلمه فقال عثمان .

يقول الطبري ودار عبد الرحمن لياليه يلقي أصحاب رسول الله(ﷺ) ومن وافى المدينة من الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلوا برجل إلا أمره بعثمان فلما انتهى الموعد الذي حدده عمر ، جاء عبد الرحمن إلى المسجد عند الصبح ، فأحتشد المهاجرون والأنصار حتى ازدحم المسجد بهم ، فقام عبد الرحمن فقال : أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم .

فقال سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة _ إنا نراك لها أهلاً فقال عبد الرحمن : أشيروا علي بغير هذا ، فقال عمار بن ياسر إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا . فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار " إن بايعت عليا قلنا : سمعنا وأطعنا فقال عمار لأبن أبي سرح : متى كنت تنصح المسلمين ؟

فتكلم بنو هاشم وبنو أميه : فقال عمار أيها الناس : إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟ وأختلف الناس فقال سعد بن أبي وقاص ، يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس . فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا فقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال علي ، أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قاله لعلي ، فقال عثمان : نعم فبايعه عبد الرحمن . فقال علي لعبد الرحمن : حبوته حبو دهر ... فقال عبد الرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا فإني قد نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان ، ثم قال كذلك : والله لقد اجتهدت للمسلمين .

ثم إن طلحه قدم من سفرة ، في ذلك اليوم فقالوا له : بايع عثمان : فسأل أكل الناس راض به ؟ قالوا : نعم ،فأتى عثمان ، فقال له عثمان : مؤكدا حريته في رأيته : أنت على رأس أمرك ،إن أبيت رددتها ، قال طلحه : أتردها ؟ قال نعم . قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم : قال طلحة : قد رضيت ،لا أرغب عما قد أجمعوا عليه الناس ،وبايعه .

وهكذا تم انتخاب عثمان خليفة ثالثا بطريق الشورى التي لم يدخر عبد الرحمن بن عوف بقيه من جهد إلا وبذله كي تكون النتيجة معبرة عن الواقع الصحيح ومترجمة لرأى الأغلبية من الناس ، وانك لتستطيع أن تدرك - بغير عناء - صحة الرأي الذي انتهى إلية عبد الرحمن منذ بداية إجراء المشاورات التي قام بها ، وذلك من خلال استعراض آراء رفاقه الأربعة : فقد رشح عثمان للخلافة كل من علي وسعد والزبير ،بينما رشح عليا عثمان فقط وإذا كانت آراء هؤلاء الرهط مرآه معبرة عن آراء جمهور المسلمين ، فلا شك حينئذ أن محصلة ما تجمع لدى عبد الرحمن- بعد أن دار لياليه يسأل ويشاور - هو ترشيح أغلبية ا لناس عثمان للخلافة ، لكننا لا نستطيع كما لا يستطيع أحد آخر أن يتحدث عن حجم هذه الأغلبية بصورة دقيقة .

وتأسيسا على ذلك فنحن لا نتفق مع الرأي القائل بأن الخلافة كانت من نصيب علي لو أنه أجاب عبد الرحمن بنعم عندما سأله - حين البيعة - قائلا :" عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده ؟ " ،ولكن عثمان أخذها بسبب إجابته عن السؤال بقولة : "نعم" ، فهذا رأي لا ينسجم مع مبدأ الشورى الذي تمت على أساسه خلافة عثمان لأسباب منها :

- أن عمر رضي الله عنه هو الذي حدد الرجال الستة الذين يمكن أن يطمئن على مستقبل الأمة والدولة الإسلامية لو تولى أحدهم قمة المسؤولية عنها ، وهذه الثقة من عمر فيهم منبه على أساس راسخ يمتد إلى النبي الذي بشر كل واحد منهم بالجنة ، كما أنها تستند إلى رصيد عظيم من حميد الخصال وجليل الأعمال يتمتع به كل منهم ويعرفه له الصحابة وسائر المسلمين .
- وأن عمر رضي الله عنه حينما رشحهم وحصر اختيار الخليفة فيهم كان يعلم - كل العلم - كفاءة كل منهم ، ومميزاته ، ومقدرته على الاضطلاع بأعباء هذا المنصب الخطير ، ذلك كله فضلا عن علمه بإيمانهم القوي ، واستمساكهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ورضاهم الذي لا شك فيه عن سيرة الخليفتين أبي بكر

وعمر وسياستهما في إدارة شئون الدولة . ومن ثم فإن عمر لم يشترط عليهم – حين رشحهم – العمل بسيرة الخليفتين السابقين ، وإذا لم يكن إتباع سياسة أبي بكر وعمر شرطا للخلافة فلا محل للقول بأن الخلافة صرفت عن علي لأنه أراد أن يعمل بمبلغ علمه وطاقته .

- وإذا صح أن هذا الجواب من علي فهو الذي صرف عنه الخلافة كما يقولـــون – فماذا كان يحدث لو أن عثمان أجاب عبد الرحمن بمثل جواب علي – وهو جـــواب طيب ومحمود – ؟ هل كان بن عوف سيصرفهما عنهما ويسندها إلى سعد أو إلـــى الزبير؟ كلا ، لماذا ؟ لأن آراء الناس جميعا قد انحصرت في عثمـــان وعلـــي دون غيرهما .

- وأخيرا ، فنحن نسأل مرة أخرى : إذا كان هذا السؤال من عبد الرحمن والجـواب علية من علي وعثمان هو الفيصل في تحديد من سيلي الخلافة ، فلمـــاذا أذن كـــانت المشاورة المستمرة والاجتهاد في سؤال الناس جميعا طيلة أيام ثلاثة استنفذت الأجـل المحدد للاختيار ؟ لو أن الأمر كان متوقفا على سؤال الرجليـــن وأجابتـــهما لكـــان الأحرى بعبد الرحمن بن عوف أن يسألهما فورا ويعلن اسم الخليفة بعد لحظه واحـدة من دفن عمر ، ويريح نفسه والمسلمين من عناء السؤال والاجتهاد والانتظار .

بل أنى لأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول ان عبد الرحمن ما كان له أن ينتظر من على غير هذا الرد حين سأله وسط هذا الحشد من الناس وبيان ذلك واضح ، حيث قد عمل أبـو بكر – وكذلك عمر – بمبلغ علمه وطاقته ، أي اجتهد كلاهما في الأمور التي لم يتعـرض لها الكتاب والسنة ، ومن حق علي بل من واجبة – وهو صنولهما مع فارق الســـن – أن يجتهد حتى يستبين له وجه الحق ، ومن حق عبد الرحمن بن عوف علينا ألا نتهمه بأنـــه يعارض الاجتهاد ، أو يمنع الخليفة من العمل بمبلغ علمه المرتكز على الكتاب والسنة .

وإذن فإن الذي حدد شخص الخليفة الثالث إنما هو الاستفتاء العريض الذي قـــام بـــه ابن عوف واجتهد أن يكون استفتاء معبرا عن رأي عامة الناس ، وهو فـــي ذلـــك يقـــول

صراحة لعلي ابن أبي طالب : " يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإني قد ناظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان " ، وأظن الأمر بعدئذ قد أتضح وبان .

• **خطبة البيعة :** ~

حين بايع عبد الرحمن عثمان بالخلافة ، تزاحم الناس لمبايعته عند المنبر ، وكان ذلك في يوم الاثنين آخر شهر ذي الحجة من سنة ثلاثة وعشرين للهجرة ، فأستقبل بخلافته المحرم من سنة ٢٤هجرية . وإذا تمت بيعته صعد منبر رسول الله(ﷺ) فخطب الناس فقال – بعد حمد الله والثناء علية والصلاة على النبي (ﷺ) إنكم في دار قلعة – أي رحلة – ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صحبتم أو أمسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبنا الدنيا وإخوانها الذين آثارها وعمروها ، ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رما الله بها ، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب لها مثلا ، وللذي هو خير ، فقال عز وجل : **« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فأختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »**

وعلى الرغم من هذه الخطبة التي افتتح بها عثمان خلافته قد خلت تماما من الإشارة ولو بكلمه – إلى المنهج الذي سيسير علية مستقبلا ، ولعله اكتفى بما قاله لعبد الرحمن لحظة بيعته من أنه سيعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعدة . على الرغم من ذلك فإن هذه الخطبة صورة لفظية دقيقة حملت المعاني التي تعبر عن شخصية الخليفة الشيخ – كما قال ابن عوف – الذي أتم العقد السابع من عمره يومئذ ، والرجل الذي أقبلت علية الدنيا بمباهجها فزهد فيها ورغب فيما عند الله لأنه الخير والأمل ، فلم يكن غريبا أن تكون الوقفة الأولى لعثمان بين رعيته هي وقفة الناصح المرشد الذي يود أن يكون الناس على مثل ما هو عليه تقى وزهادة ورغبه في لقاء الله ونعيم الآخرة الأبدي ، ليس هذا

غريبا لأنه شأن كل راع مخلص كعثمان على أن الخليفة الجديد ما يلبث حتى يكشف لنا عن منهجه وخطته في إدارة شئون الدولة ، ويتضح ذلك في الكتب أو المنشورات الرئاسية العامة إن صح التعبير – التي وجهها عثمان إلى نوابه في الأمصار وأمراء الجند وعامة الناس . فقد كان أول كتاب أصدره موجها إلى عماله – حكام الأقاليم – يقول فيه :" أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاه ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء . والأمانة والوفاء ، ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء " .

وكان الكتاب الثاني موجها الى أمراء الأجناد في الثغور ، قال فيه :

" أما بعد فإنكم حماة المسلمين وزادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان عن ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه ، والقيام علية "

ثم كتابة إلى عمال الخراج الذي جاء فيه : " أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق : فلا يقبل إلا بالحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها : فكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم " .

أما كتابه إلى عامة الناس فقد قال فيه عثمان : " أما بعد " فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع . ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب الأعاجم القرآن ، فإن رسول الله (ﷺ) قال " الكفر في العجمة " فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا "

• **أول قضيه نظرها عثمان** :~

يذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن أبي بكر – بعد أن طعن عمر – : مررت على أبي لؤلؤه ،ومعه جفينه والهرمزان وهم بحي (يتهامسون) فلما رهقتهم (ضيقت عليهم) ثاروا ، وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه في وسطه ، فانظروا بأي شيء قتل ، وقد تخلل أهل المسجد ، وخرج في طلبة (في البحث عن أبي لؤلؤه) رجل من بني تميم ، فرجع إليهم التميمي ، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤه (أمسك به) منصرفة عن عمر ، حتى أخذه فقتلة ، وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر . فسمع بذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فأمسك حتى مات عمر ، ثم اشتمل على السيف ، فأتى الهرمزان فقتله . ثم مضى حتى أتى جفينه – وكان نصرانيا من أهل الحيرة – فلما علاه بالسيف صلب بين عينيه ، ثم قتل ابنة أبى لؤلؤه ، واستطاع سعد بن أبي وقاص أن ينتزع منه السيف ، ويتمكن منه ويحبسه في بيته بإذن صهيب الذي كان قائما مقام الخليفة يومئذ . فلما بويع عثمان جلس في المسجد ، وطلب إحضار عبيد الله بن عمر ليفصل في أمره ، وطلب الخليفة الرأي من كبار المهاجرين والأنصار قائلا : أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال علي : أرى أن تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم .

وهكذا يواجه عثمان – في أول أيام ولايته – موقفا صعبا ودقيقا ، لكنه يتمكن بسرعة من التغلب عليه ، كيف كان ذلك ؟ قال الخليفة : " أن ولي هؤلاء القتلى ، وقد جعلتها ديه ، واحتملتها في مالي " ولا شك في أن هذا اجتهاد موفق هدي له الخليفة وقضى به في بوادر خلاف في الرأي حول قضيه شائكة ومعقدة ؟

أما لماذا كانت تلك القضية شائكة ومعقدة ، والموقف حيالها صعب ودقيق ؟ فلأن عمر بن الخطاب – بما يمثله من ثقل هائل في المجتمع الإسلامي – قتل بالأمس ، وقد عرف قاتله منذ لحظة ارتكابه جرمه البشع ، وأقتص منه على الفور أحد رجال المسلمين من بني تميم ، الذي استطاع أن يأتي بالخنجر ذي الرأسين من أبي لؤلؤه . ذلك الخنجر

الذي كان وسيلة تنفيذ الجريمة التي هزت المسلمين جميعا هـزا عنيفـا ، ومـن هـؤلاء المسلمين آل عمر ، وكان يمكن أن يكتفي بالقصاص من القاتل بقتله وحده طالما ارتكـب الجريمة وحده ، لكن عبيد الله بن عمر الذي استمع إلى رواية عبد الرحمن بن أبي بكـر عن تهامس الهرمزان وجفينه وأبي لؤلؤه عشية وقوع الحادث ، وسقوط الخنجـر منـهم عندما رأوه وهو نفس الخنجر الذي استخدم في تنفيذ القتل ، عبيد الله هذا كان له شأن آخر ،إذ تعمق لديه الإحساس – بعد استماعه إلى تلك الرواية – بأن هؤلاء الثلاثة قد خططـوا ودبروا ، وأعدوا العدة معا لقتل أبيه ، لكنهم دفعوا أبا لؤلؤه ليقوم بالتنفيذ ، فهم – ثلاثتـهم – متضامنون في هذه الجريمة ضالعون فيها ، ويزيد من سلامة هذا الاستنتاج ، وتأييد هذا الرأي في نفس عبيد الله : أن عمر ليس شخصيه عاديه بين الناس ، فهو خليفة المسـلمين وقتله كذلك ليس جريمة عاديه يمكن أن يرتكبها مجرم عادي ، بل لابد من رؤوس أخـرى وراءه كذلك فإن هؤلاء الثلاثة – وهم فرس بنو جلده واحده – قد جمع بينهم الحقد الـهائل على الإسلام والمسلمين وعلى خليفتهم بصفة أساسية ، فهو الذي وترهم وأزلهم وأسـرتهم جيوشه التي حولت بلادهم إلى ولايات إسلامية وأذابت ملكهم في كيان الدولة الإسـلامية ومن الطبيعي جدا أن يصل بهم حقدهم هذا إلى القيام بذلك العمل الانتقامي الدنيء .

كل هذا وأكثر منه قد ظل يتردد في فكر عبيد الله بن عمر يموج به صدره طـوال الأيام الثلاثة التي عاشها عمر مطعونا ، وكلما مرت ساعة ازدادت الفكرة اختمـارا فـي رأس عبيد الله ، حتى إذا قضى عمر نحبه شهيدا عظيما ، اشتمل عبيد الله سيفه وأسرع لا يلوى على شئ حتى ثأر من الهرمزان وجفينه ، ولكنه تجاوز المعقول وقتل واحده لم تقـم حولها شبهه ضالعة أو شريكه في قتل الخليفة ، ولا شك في أنها أي أبنه أبي لؤلؤه ذهبـت ضحية اندفاع عبيدالله وحماسه الذي جنح به عن الصواب .

وعندما عرضت هذه المسألة ، وطلب عثمان الرأي فيها ، قال علي بن أبي طـالب : أرى أن تقتله – يعني قصاصا – ولا ظلم في هذا الحكم ولا تجاوز . ولكن الصعوبة فـي أن يقتل عمر بالأمس ، ويقتل ابنه اليوم .

تلك هي القضية ، وهذا هو الموقف الذي واجهه عثمان في يومه الأول وهدي في معالجته لأرشد أمره ، وارتاح لتصرفه بشأن المسلمون جميعا والحمد لله .

• **الفتوح في عهد عثمان** :~

ثم أقبل الخليفة على مباشرة عمله في إدارة شئون الدولة فبعث كتبة التي أوردناها منذ قليل إلى ولاة الأقاليم ، وأصحاب الخراج ، وقواد الجيوش الذين يواصلون مع جندهم رفع لواء الإسلام وتوسيع رقعة الدولة وتحقيق الانتصار تلو الآخر على أعداء الله في جهات المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، ولم يشغلهم عن آداء واجبهم هذا ما شغل أهل المدينة في تلك الأيام من أحداث جسام .. ولذلك فإن جهود هؤلاء الجند والقادة في شتى مواقعهم تحتاج منا الى وقفه متأنية نتعرف خلالها على أعمالهم ونفصل القول في فتوحاتهم على النحو التالي :

☆ **الجبهة الفارسية** :~

ثار أهل فارس وانقضوا على أميرهم وقتلوه ، فخرج إليهم أمير البصرة عبد الله بن عامر في سنة ٢١ على رأس جيش كثيف ، وأشتبك معهم في مواقع كبيرة في مرو ، وخوارزم وغيرهما . واستطاع أن ينزل بهم هزائم متكررة في جميع هذه المعارك : وبذلك تم فتح تلك البلاد مرة أخرى ، وعاد أهلها جميعا إلى طاعة المسلمين ، كما أنه صالح أهل بعض الأمصار الفارسية الأخرى مثل نيسابور وبلخ ثم عاد إلى البصرة بعد أن استتب فيها الأمن والنظام والولاء للدولة الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر هنا أن تلك المعارك في هذا العام قد شهدت الفصل الأخير من حياة آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية وهو يزدجر الثالث الذي لقى مصرعه على يد أحد أعوانه وهو حاكم مرو الفارسي ، وطويت بموته الصفحة الأخيرة في قصة الإمبراطورية العريقة .

☆ أرمينيـة :-

وكان المسلمون في عهد عمر بن الخطاب قد استطاعوا أن يستولوا على أرمينيـة وينتزعوا هذا الإقليم من قبضة الرومان ، غير أن الحامية الإسلامية التي تمركزت هنـاك اضطرت إلى الجلاء عن هذه المنطقة بعد أن أحاطت بهم حشود كثيفة من جنود الأعداء .

فأصدر عثمان أوامره إلى معاوية بن سفيان وإلى الشام باستعادة هـذا الإقليم ، فبعث حبيب بن مسلمة الفهرى على رأس ستة آلاف جندي ، فصالح أهل قـاليقلا علـى الجزية ، ثم واصل زحفه والتقى بجموع الروم قبل أن يأتيه مدد – كان قد بعث به الخليفـة إليه – وتمكن من مباغتتهم والانتصار عليهم ، ثم انضم إليه مدد الخليفة واستمر الجيشـان فى زحفهما حتى استطاعا أن يعيدا ذلك الإقليم الكبير مرة أخرى إلى حظيرة الإسلام .

كذلك استطاعت قوات أخرى أرسلها معاوية إلى الأناضول أن تبث الرعب فى قلوب الروم وتوغلت هذه القوات حتى إلى حمورية ، وكان ينبغي من وراء ذلك هدفا آخر هـو شغل الرومان بالدفاع عن تلك الأقاليم المتاخمة للعاصمة "القسطنطينية" فيسهل عليه حينئذ الاستيلاء على ما تبقى للروم من حصون وقلاع وجيوب على ساحل الشام ، وقـد نجـح معاوية فى ذلك وأمكن لقواته أن تطهر الشام تماما من بقايا الوجود الروماني فى ثغـري قنسرين وطرابلس وهما آخر ما كان بيد الرومان حتى ذلك الوقت .

☆ الجبهة الغربيـة :

استطاعت حملة بحرية رومانية – بالتعاون مع الروم المقيميـن بالإسـكندرية – أن تسولى على المدينة ، فاستنجد المسلمون فى مصر بالخليفة أن يقر عمرو بن العاص علـى مصر – وكان قد عزله منها – حتى يمكن استرجاع الإسكندرية من أيدى الروم فـإن لـه خبرة بقتالهم وهيبة فى نفوسهم ، فاستجاب عثمان ، واستطاع أن يعيد هذه المدينة العريقـة ألى مصر الإسلامية وذلك فى سنة ٢٥هـ .

أما إفريقية – تونس الآن – فقد كان عمر بن الخطاب يرفض أن يستجيب لطلـب عمرو بن العاص بفتحها . فلما تولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح إمارة مصـر اخـذ

يرغب الخليفة على غزوها ، وأمد عبد الله بمدد كبير من أهل الدينة فيهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وقاد أمير مصر جنده واتجه غربا حتى وصل إلى عاصمه إفريقيـــه "قرطاجنة " ، وكانت إفريقية ولاية رومانية غــير أن أميرهــا "جرجــير " أنشــق علــى الإمبراطور وأعلن نفسه ملكا عليها ، ولقد أحس بالخطر المحتمل القادم من الشرق فــأعد العدة لملاقاته وجهز جيشا كبيرا للدفاع عن مملكته وحمايتها من المسلمين .

ومن عام ٢٧هـ دارت بين الفريقين معارك طاحنة وطويلة كان النصر في نهايتها حليف المسلمين الذين غنموا من أعدائهم غنائم عظيمة بلغ سهم الفارس فيها ثلاثـــة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألف دينار ، كما تمكن أحد جنود المسلمين من قتل جرجير ، وأخــر من أسر ابنته ، ويذكر المؤرخون أن رؤساء أهل إفريقية قد صالحوا عبد الله بن سعد على مال يعطونه إياه ، ورجع الجيش إلى مصر دون أن يولى المسلمون عليهم أحدا .

وكان لابن أبى سرح هذا جولة أخرى فى جنوب مصر فى بلاد النوبة عــام ٣١هـــ وقد تمخضت معارك هذه الغزوة عــن عقــد صلــح يتضمــن هدنــة بيــن الفريقيــن ، وتبادل التجارة بينهما .

* الفتوحات البحرية ونشأة الأسطول الإسلامي :

لم يعرف العرب فى جاهليتهم ، ولا فى عصر البعث وخلافتي أبى بكر وعمــر ، الحروب البحرية وكانت نقطة الضعف فى فتوحات الشام ومصر هى الثغور الواقعة علــى ساحل البحر الأبيض المتوسط فى البلدين ، ذلك أن الروم كانوا حتى ذلك الوقت سادة هــذا البحر وملوك الحرب فيه ، ولم تستطيع أمه أخرى منافستهم فى هذا الميدان فكـــانت فـــى الإسكندرية وانتزاعها من أيدى حاميتها الإسلامية سنة ٢٥هـــ واستعادها عمرو بن العاص فى السنة – عينها .

وكان معاوية بن أبى سفيان – والى الشام – يدرك هذا الضعف ويعلم أنه لا يمكــن التغلب عليه إلا بأن يخوض المسلمون غمار الحرب البحرية ويواجهوا أســـطول الــروم بأسطول العرب ، ولن يتم فتح بقية الثغور الشامية " قنسرين وطرابلس وإنطاكية وغيرها "

إلا إذا استطاع المسلمون منع السفن الرومية من الوصول بالإمدادات المختلفة إلى تلك البلاد التي تواصل صمودها في وجه الزحف الإسلامي عليها .

لذلك فقد عرض على الخليفة عمر أن يقوم – بالتعاون مع ولاية مصر بإنشاء أسطول إسلامي وتكوين قوة بحرية تكون مهمتها حماية الشواطئ – الإسلامية في الشام ومصر من عدوان القوات البحرية الرومانية عليها ، ولقد كانت الظروف مهيأة للبدء فورا في بناء هذه القوة . فموارد الشام من الخشب الصالح لبناء السفن وافرة لا تنفذ ، والصناع المهرة موجودون في مصر والشام .

ولما كانت خلافة عثمان استطاع معاوية أن يقنع الخليفة بفكرته وأن يحصل على موافقته بإنشاء أول قوة بحرية إسلامية ، ولكنه أشترط عليه ألا يكره جنديا واحدا على ركوب البحر وعلى الفور ، جند معاوية كل أصحاب الخبرة في هذا الميدان من أهل الشام ، وبدأت دور الصناعة في بناء السفن وكانت على مثال سفن الروم كبيرة وصغيرة ، فالأولى تشبه البارجة في عصرنا هذا ويمكنها أن تحمل ألف رجل بأسلحتهم والثانية تشبه الطراد ولا تتجاوز حمولتها مائة جندى .

ووفر معاوية لأسطوله الرجال المحاربين وما يلزمهم من عتاد ومؤن ، ولكن المشكلة التي واجهته كانت في توفير العناصر المدربة على قيادة السفن والقيام بالمناورات بها في عرض البحر ، ولذلك استعان بمن أقاموا في الشام من الإغريق الذين لهم خبرة عريقة بالبحر الأبيض المتوسط ، كما استعان بعرب اليمن الذين اشتهروا منذ عهد قديم بالتجارة البحرية وارتياد المحيط الهندي والبحر الأحمر ، ولهذا أسندت قيادة أول قوة بحرية إسلامية إلى عبد الله بن قيس اليمنى ، وبدأت القوة عملها بقطع السبيل على سفن الروم طالما حملت المؤن والعتاد إلى ساحل الشام فمنعها من القيام بهذه المهمة ، فسهل على المسلمين إزالة هذه الجيوب وإتمام فتح الشام جميعا . وحذت مصر حذو الشام ، وإنشاء واليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أسطولا لحماية السواحل المصرية من عدوان الروم عليها ، وهكذا بدأ التنافس في البحر بين المسلمين والروم.

• **فتح جزيرة قبرص :~**

وكانت هذه الجزيرة محطة لإمداد وتموين الأسطول البيزنطي ، ومصدر تهديد لساحل الشام وذلك لقربها الشديد منه . حتى لقد قيل – مبالغة – : إن المسلمين فى أرض الشام يسمعون صياح الديكة في قبرص ، ولذلك تطلع معاوية إلى القضاء على هذا الخطر وغزو هذه الجزيرة ، فجرد إليها حملة فى عام ٢٨هـ ، نجحت فى مهمتها وصالح المسلمون القبارصة على أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها ٧٢٠٠دينار ، وألا يلزم المسلمون بحماية أهل الجزيرة لأنهم لن يقطعوا صلتهم بالروم ، لذلك فإنهم سيقفون محايدين بين الفريقين . غير أنهم لم يلتزموا طويلا بذلك فاضطر معاوية أن يخرج بنفسه على رأس قوة بحرية فتحت الجزيرة مرة أخرى وأخضعتها تماما لسلطان المسلمين واسكنها معاوية بضعة عشر ألفا من المسلمين وشيدت بها المساجد والربط ومنذ ذلك الوقت أصبحت قبرص قاعدة للأسطول الإسلامي .

• **موقعة ذات الصواري :~**

اضطر الرومان – تحت وقع الضربات القاسية التى تلقوها من الجيوش الإسلامية – إلى الانسحاب من الشام ومصر ، ولكنهم لم يفقدوا الأمل كله فى إمكان استعادة هذين الإقليمين العظيمين إلى دائرة نفوذهم ، ولقد عين الإمبراطور الجديد قنسطانز بن هرقل على الأسطول الروماني العريق فى تحقيق هذا الأمل ورد اعتبار بيزنطة أمام العالم ، وتنفيذا لهذا المخطط الطموح استماتت الأسطول فى الدفاع عن الجيوش البيزنطية على ساحل الشام ، وقاموا بالهجوم على الإسكندرية فى عام ٢٥هجريه واستولوا عليها لبضعة أشهر فقط ، وهكذا .

فلما اقتحم المسلمون البحر الأبيض المتوسط الذي كان يسمى "بحر الروم" لسيادة أسطولهم فيه ، وخاضوا معارك صغيرة ومتوسطة ضد عدوهم المتمرس العتيد وحققوا بالعزيمة والإصرار الانتصار عليه ، أصيب الروم بالفزع الشديد لتعاظم قوة العرب البحرية بعد اكتساحهم البرى ، وكأنما كان استيلاء معاوية على قبرص فى عام ٢٣هـ

إنذارا أخيرا لهم بأن يسرعوا إلى المسلمين فى البحر قبل فوات الوقت وضياع مجدهم البحري العريق .

لذلك فقد وضع الإمبراطور قنسطانز خطة لضرب الأسطول الإسلامي ضربة لا يقوم بعدها ، وحشد لهذا الغرض خمسمائة سفينة حربية ، وشحنها بعشرات الألوف من الرجال المزودين بالأسلحة المختلفة ، غير أن أميري مصر والشام قد علما بما بيته الإمبراطور فأعدا قوتين شامية ومصرية ، تجمعتا تحت قيادة عبد الله بن أبى سرح فى منطقة خليج فينكس جنوب آسيا الصغرى . وقد بلغت سفن الأسطول الإسلامي حوالي المائتين ، وسبق القول أن أسطول البيزنطيين يتكون من خمسمائة سفينة ، لذلك فعندما التقى الفريقان فى منطقة المعركة بهذا العدد الهائل من السفن بسارياتها العالية سميت هذه الموقعة الشهيرة بذات الصواري .

واستطاع المسلمون أن يحولوا سير المعركة إلى حرب برية ، وذلك عندما اقتربوا بسفنهم من العدو والتحموا بهم على ظهور السفن ودارت رحى معركة ضارية بين فريقين كأنهما يتصارعان فوق الأرض ، يستخدمان السيوف وقطع الحديد والأحجار ، ولا شك فى أن المسلمين يتقنون هذا النوع من الحرب ويتفوقون فيه على عدوهم ، ولذلك كان النصر فى نهاية الأمر حليف المسلمين على الرغم من الفارق البين بين القوتين .

ومن الجدير بالذكر فى هذه الموقعة التي كانت فى عام ٢٤هـ أن قائد المسلمين كاد يقع فى الأسر عندما جذب العدو سفينة القيادة بسلسلة حديدية متينة لولا أن اندفع أحد المسلمين والقى بنفسه فى البحر فوق هذه السلسلة حتى خلص السفينة منها ، أما الإمبراطور الذى تولى بنفسه قيادة أسطوله فقد كان نصيبه جرحا منعه من مواصلة القتال ففر مع بعض سفنه إلى جزيرة صقلية – وكانت تابعة له – فلم ينعم بالبقاء فيها طويلا إذ حزن النصارى هناك لهزيمة أسطولهم وخيبة أملهم فى إمبراطورهم فقتلوه في حمام .

وعلى الرغم من كثرة شهداء الإسلام فى ذات الصواري فإن النصر المبين الذي منحه الله البحرية الإسلامية فيها كان البداية الحقيقية لمغيب نجم التفوق البيزنطي فى البحر

الأبيض المتوسط ، كما أنه كان انطلاقا جديدا للأسطول الإسلامي ، وتأكيدا لدورة الخطير في دعم وحماية السواحل والثغور الإسلامية في شرق وجنوب البحر المتوسط ، وأخيرا أصبحت القوات البحرية الإسلامية حرة الحركة إلى حد كبير في التجول في أنحاء هذا البحر الكبير ، ومن هنا كان تفكير القيادة الإسلامية في :

فتح جزيرة رودس التي ما لبث أن سقطت في يد المسلمين

على أن الظاهرة الهامة التي يجب التنبيه اليها في هذه المناسبة هي : أن التعاون الوثيق بين مصر والشام هو الذي حقق للمسلمين هذا المجد البحري العظيم الذي ظل يتزايد جيلا بعد جيل حتى لقد جاء وقت صح أن يوصف البحر المتوسط بأنه " بحيرة عربية إسلامية "

*** المصحف الإمام** : ~

وإذا كانت نشأة البحرية الإسلامية وبروز الأسطول العربي كقوة مؤثرة في ميزان القوى بالمنطقة . من الإنجازات الكبيرة التي تذكر بالتقدير لخلافة عثمان فإن هناك إنجازا عظيما آخر حققه عثمان في خلافته وظل أثرة ولا يزال باقيا إلى يوم القيامة ، وهو بلا ريب من مفاخر عهد عثمان بن عفان ، ذلكم هو : توحيد المسلمين جميعا على قراءه واحده للقرآن تضمنها المصحف الذي أمر عثمان بكتابته وانتساخ بضع نسخ منه وزعها على الأمصار الإسلامية الكبرى وألزم الناس بها وأمر بحرق ما عداها من المصاحف ولنبدأ الحديث من أوله فنقول :

لقد مر بك منذ قليل : أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر الصديق بجمع القرآن – وذلك عقب موقعة اليمامة التي استشهد فيها جمع عظيم من القراء الحفاظ للقرآن ، فخشي عمر أن يذهب كثير من القرآن بموت آخرين من الحفاظ فاستجاب أبو بكر لهذا الخير ، وأمر زيد بن ثابت لجمعه ، فقام بالعمل الجليل خير قيام ، واحتفظ الخليفة بالمصحف عنده ، ثم من بعده انتقل إلى عمر ، فلما توفي حفظ لدى حفصه بنت عمر أم

المؤمنين ، ويسمى هذا بالجمع الأول ، وقد عرفنا الباعث علية ، فماذا كان الباعث على الجمع الثاني الذي تم بأمر من عثمان وفي خلافته ؟

وللجواب عن هذا السؤال ينبغي العودة إلى الوراء قليلا ، حين كان حذيفة بن اليمان يجتمع في مسجد الكوفة بعبد الله بن مسعود صاحب المصحف الذي يتبعه أهل الكوفة ، وأبي موسى الأشعري صاحب المصحف الذي يتبعه أهل البصرة ، ويصرح حذيفه لكل منهما بأنه يجب توحيد القراءات مخافة اختلاف الناس على تلاوة الكتاب العزيز ، فكان بن مسعود يعارضه في ذلك معارضة شديدة ، فيقول حذيفه إنه مصمم على دعوة الخليفة إلى توحيد المصاحف .

كذلك قد برزت – في مسجد المدينة – ظاهرة اختلاف الناس في القراءة بصفة عامه ، وتبادل بعضهم – بسبب هذا الاختلاف – الاتهام بالكفر ، مما أثار مخاوف عثمان ، وجعله يدعوا الصحابة إلى أن يجتمعوا فيكتبوا للناس مصحفا إماما .

ولئن كان اختلاف المسلمين في قراءة القرآن يحرك مشاعر حذيفه ويثير غضبه وغضب الخليفة وخوفهما في وقت السلم ، إن اختلافهم وقت الحرب ولدى مواجهة الأعداء في ميدان القتال حيث هم في مسيس الحاجة إلى وحدة الكلمة وقوة الجماعة المتحدة ، إن ذلك لهو ادعى لأشد الخوف والفزع وضرورة التحرك والعمل على إزالة أسباب هذا الاختلاف مهما يكن الأمر .

وقد كان ذلك هو ما حدث ، فقد حضر حذيفة بن اليمان فتوح أرمينية وأذربيجان في عام ٣٠ هجرية ، وشهد في أثنائها الجند العراقيين – جند الكوفة – يتعصبون في تلاوة القرآن لمصحف عبد الله بن مسعود ، وتعصب جند الشام لمصحف أبي بن كعب ، وأوشك اختلافهم هذا أن يتحول إلى اقتتال ، فشد حذيفة رحله قاصدا المدينة لينقل إلى الخليفة ما رأى وما سمع في ميدان الجهاد ، ويحذره مما يمكن أن يصير إليه الأمر لو لم يتدارك الآن ، فلقيه وهو يقول : أنا النذير العريان ، فأدركوا هذه الأمة .

وعلى الفور أرسل عثمان إلى حفصه أم المؤمنين أن تبعث إليه بمصحف أبي بكـر ، ثم أمر كتاب الوحي زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير وآخرين من القراء الحفـاظ أن يكتبوا عدة نسخ من مصحف أبي بكر ، فإن اختلفوا في لفظة فلتكتب بلغة قريـش الذيـن أنزل الله القرآن بلسانهم ، فقاموا بهذا العمل الجليل على الوجه الأكمل ..

وقد اختلفت الروايات في عدد النسخ التي كتبها أولئك الكتاب الحفاظ لكنهم أجمعـوا على أربع أرسلت ثلاث إلى الشام ، والكوفة والبصرة ، أما الرابعة فبقيت فـي المدينـة ، وأمر الخليفة بأن يلتزم الناس بهذا المصحف وأن يحرق ما عداه لأنه المصحف الإمام .

وبهذا العمل الجليل زال شبح الاختلاف الخطير على كتاب الله الـذي هـو رمـز اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم ، بل هو مصدر حياتهم وقوتهم وهداهم ، قال عليه السلام : " تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي " ، وتجدد ذكـرى عثمان العطرة كلما امسك مسلم بمصحفه منذ ذلك اليوم والى أن تقوم الساعة ، وطالع فـي أوله أو في آخره : " كتب هذا المصحف الشريف أو طبع حسب الرسم العثماني " أي على صورة رسم المصحف العثماني .

- **الفتنـة :**

على الرغم من أن الخوض في حديث الفتنه – ايام عثمان وبعده – يثير في نفس كـل مسلم مؤمن مشاعر الأسى والألم العميقين ، فانه لابد لنا ونحن نؤرخ لتلك الفترة المبكـرة من مسيرة الإسلام إلى أن نتناول هذه الفتنه في ضوء ما قدمتـه لنـا مصـادر التـاريخ الإسلامي الأولي ، وعلى وفرت ما حفلت به تلك المصادر من روايات عن الفتنـه فـإنك تلاحظ فيها شيئا كثيرا من الاختلاف قد يصل إلى حد التعارض فيما بينهما ، غير أننا نقبل على مناقشة هذه الروايات بروح من يبغي بيان وجه الحق ، محاولين أن نصـل – مـن خلال هذه المناقشة – إلى معرفة أسباب الفتنه ، وتطوراتها ونتائجها التي انتهت إليـها ، وتركت في حياة الإسلام ونفوس المسلمين جرحا لم يندمل بعد .

ولابد أن نقرر هذه الفتنه لم تنشأ فجأة ، أو بين يوم وليله ، كما أنها لا ترتبط بحدث واحد تمخض عنها ، وإنما هي أحداث ومواقف وتصرفات تراكم بعضها فوق بعض ، وتداعي بعضها إلى البعض الآخر . وهي أفكار بدأت في الأذهان صغيرة متواضعة ، ثم أخذ يتسع مداها وتتبلور حتى أصبحت نذرا يتطاير منها الشرر هنا وهناك ، وما زالت كذلك حتى احترق بها الظالمون والأبرياء في أتون واحد .

ولقد كان من سوء الطالع – بالنسبة لعثمان – أن تنتهي في خلافته الفترة المثالية في تاريخ ا لدولة الإسلامية ، ويبدأ التغير يشمل كل مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي مع بدايات العقد الرابع من هجرة النبي(ﷺ) ، ففي هذه الفترة التي تبلغ نحو الثلاثين عاما– من الهجرة حتى أوساط خلافة عثمان – تغيرت العناصر التي كانت تكون المجتمع ، وأخذ جيل يختفي من على ظهر المسرح شيئا فشيئا ويحل محله جيل آخر أقل من سلفه في درجة إيمانه وفهمه بجوهر العقيدة ، وامتثاله بتعاليمها ، والقيام بتكاليفها ، يحدث ذلك في الوقت الذي فتح الله فيه على المسلمين الفتوح ، وأجرى بين أيديهم الأموال وبسط لهم في الملك ، فأتسع سلطان المدينة ليشمل جزيرة العرب ، والعراق والشام ومصر وإفريقيا ، وبلاد فارس ، وأرمينيا ، وبعض الجزر في البحر الأبيض المتوسط .

هذا التطور الخطير يكون في المجتمع الإسلامي الذي ضم إلى غير العرب أجناسا أخرى ، وفي كيان الدولة الذي أتسع ليشمل هذه الأرجاء المتباعدة من أقطار الأرض ، كان مبعث قوة ، ومصدر خير على الإسلام والمسلمين ، وكان يمكن تجنب كل أو بعض ما ترتب علية من أخطاء لو كانت القيادة الحكيمة المقتدرة التي سعد العالم الإسلامي بإدارتها في عهدي أبو بكر وعمر ، فإن مثل كل منهما كان كفيلا بمواجهة ذلك التطور والقضاء على كل خلاف أو فتنة وذلك بفضل ما عرف عنهما من حزم وعزم .

أما عثمان رضي الله عنه – على تقواه وورعه وفضلة وجهاده العظيم في سبيل الإسلام – فكان من طراز آخر في السياسة والإدارة ، فكانت معالجته لما جد من أحداث – في رأي الكثيرين – هي التي أدت إلى الفتنه بكل مضاعفتها ونتائجها وكانت مشيئة الله أن

يكون عثمان على رأس الدولة إبان هذه الأوقات الحرجة والظروف العصيبة التي تمثل أهم أدوار الانتقال في تاريخ الإسلام .

• **أسباب الفتنـــه : ~**

يذكرون انه كان من أوائل هذه الأسباب : لين عثمان وسهولة تعاملة مع النـــاس ، فكانت خلافته مصدر ترحيب منهم ، خاصة وأنها جاءت عقب خلافة عمر الــذي عــرف بالشدة والحزم ، فلم يمنع أحدا من الصحابة من الخروج والانتقال إلى بلد آخر وأن يـزاول فيه ما شاء من النشاط ويمتلك من الأموال والعقار ما شاء الله له أن يمتلك وذلك عكس مـا اتبعه عمر معهم ، يقول الطبري : " كان عمر بن الخطاب قد حجر على إعلام قريش مـن المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه فبلغة ، فقام فقال : ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جزعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا ، ثم سديسا ، ثم بازلا ، فـــهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا فان الإسلام قد يزل . ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مـال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حيا فلا ، إني قائم دون شعب الحرة ، أخــذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا النار .. فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يـأخذهم به عمر فانسحبوا في البلاد ، فلما رأوها ورأو الدنيا ، ورآهم الناس انقطع إليهم مـــن لـم يكن له طول ولا مزية في الإسلام ، فكان مغموما في النـــاس وصـــاروا أوزاعـــا إليــهم وأملوهم ، في ذلك فقالوا : يملكون فنكون قد عرفناهم . وتقدمنا في التقـــرب والانقطـــاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فئة كانت في العامة ليس إلا ذلك .

ويقول الطبري مؤكدا : " لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش وقد كـــان حصرهم بالمدينة فأمتنع عليهم ، وقال : إني أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فـي البلاد ، فان كان الرجل يستأذنه في الغزو – وهم مما حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولـم يكن ذلك بغيرهم من أهل مكة – فيقول : قد كان في غزوك مع رسول الله(ﷺ) ما يبلغـك ، وخير لك من غزو اليوم إلا ترى الدنيا ولا تراك ، فلما ولـــي عثمـــان خلـــى عنـــهم ، فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس ، فكان أحب إليهم من عمر " .

خرج هؤلاء الكبار من الصحابة الأولين إلى الأمصار ، وسرعان ما كونوا بها أرستقراطية دينية سدتها المال ، ولحمتها السبق إلى الإسلام ، على إن هذه الشخصيات التاريخية لا شك في أنها كانت موضع إعجاب وافتتان العامة بهم وبماضيهم العريق ، فالتف حول كل واحد منهم فريق يودون أن تصير الخلافة إليه لكي ينالوا الخطوة والمنزلة لدية ولعل عثمان لو أخذ بسياسة عمر في إبقاء هؤلاء في المدينة لمنع قيام مثل هذه الزعامات التي أصبح وجودها هناك خطرا على الخليفة نفسه ، وقد تمثل هذا الخطر واضحا في اختلاف الوفود التي خرجت من أمصارها إلى العاصمة تنادي بوجوب خلع عثمان ، وتوليه غيره ممن يريدون مكانه . فقال أهل البصرة : نولي الزبير بن العوام ، وقال أهل الكوفة : نولي طلحه بن عبيد الله وهكذا .

ومن مظاهر لين عثمان وسهولته كذلك : استجابته لرغبات هؤلاء المفتونين من أهل الكوفة والبصرة ، بعزل من يطلبون عزله من ولاتهم راجيا من وراء ذلك تسكين الفتنة ، فكانت هذه الاستجابة المتكررة – من جهة أخرى – أضعافا لسلطان هؤلاء الولاة عليهم ، وتحقيرا لهم في نظر هؤلاء الناس ، ولقد ترتب على ذلك ان طمعوا في الخليفة ذاته ، وتجرئوا علية – لما رأو من رقته ولينه وعدم الضرب على أيديهم بشده حين وجب ذلك – فطالبوه في نهاية الأمر بعزل نفسه . يقول عثمان لأهل الكوفة : أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم من سعيد " سعيد بن العاص " ، والله لأفرشنكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ، ولأستصلحنكم بجهدي ، ولكنهم – بكل أسف – لم يستجيبوا لهذه الرغبة القوية من الخليفة في الإصلاح ، فاستمروا على دأبهم في الشقاق والنفاق والمخالفة

ويذكر في هذا الصدد أيضا : أن عثمان وقع – سنه حيث ولي الخلافة وهو في السبعين من عمره – تحت تأثير ذوي قرباه ، فأسند إليهم أهم ولايات الدولة مصر ، الكوفة ، البصرة ، فضلا عن الشام التي كانت يليها معاوية منذ خلافة عمر ، ثم أطلق أيديهم فيها فلم يحاسبهم على تصرفاتهم كما كان يصنع سلفه . ولقد أدى ذلك إلى أن بعضهم كان يقطع الأمر دون أن يرجع الى رأي الخليفة – وهو يعلم بذلك – فلا يراجعه

فقد تعرض عثمان للنقد بسبب ذلك ، ولعل في هذا الحوار صورة معبرة عن مشاعر المسلمين تجاه تولية عثمان لفريق من أقاربه أمور الناس .

يقول عثمان لعلي بن أبي طالب : لم تلوموني إن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ (عبد الله بن عامر – ابن خال عثمان – ولاه البصرة سنة ٢٩ هجرية) .

قال علي : سأخبرك ، ان عمر بن الخطاب كان كل من ولي فإنما يطأ صماخة (كناية عن شدة المراقبة له) ، إن بلغه عن حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك .

* قال عثمان : هم أقرباؤك أيضا .

* فقال علي : لعمري ان رحمهم مني لقريبة . ولكن الفضل في غيرهم ، قال عثمان : هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته .

* فقال علي : أناشدك الله هل تعلم ان معاوية أخوف من عمر من " يرفأ " غلام عمر منه ؟

قال نعم .

* قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغيير على معاوية .

وإذا كان ما سبق ذكره من أسباب مرتبطا بالخليفة ذاته ، فإن هناك أسبابا أخرى للفتنه منها :

دعوة أبي ذر الغفاري – الصحابي الجليل – إلى تطبيق مبدأ له خطورته الاجتماعية والسياسية . وقد نادى أبوذر بدعوته التي تتمثل في وجوب اقتسام أموال المسلمين بينهم جميعا واشتراكهم في ملكيته لأنه ما لهم – بناء على اجتهاده وفهمه لروح الإسلام فلقد رد أبو ذر على معاوية – أمير الشام – وقوله " إن المال مال الله " .

وقال : " كأنه يريد ــ أن يحتجنه (أي يجعله لنفسه) دون المسلمين أني لا أقول انه ليس لله ، ولكن سأقول : " مال المسلمين " وكان يرى انه لا ينبغي للمسلم أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته ، أي شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم ويحتج لرأية هذا بقوله تعالى " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم " ، وكان ينادي : " يا معشر الأغنياء أسو الفقراء ".

ومن الطبيعي أن تجد دعوة أبي ذر هذه تأييدا عظيما من الفقراء لأنها صدى وتعبير حقيقي عما يجيش بصدورهم ، فتحمسوا لها ، وتابعوه عليها ، وأوجبوا على الأغنياء هذه المشاركة ، حتى لقى هؤلاء منهم عنتا شديدا فشكوه إلى معاوية ، فسيره إلى المدينة بطلب من عثمان . فلما دخل عليه قال له : يا أبا ذر ، ما لأهل الشام يشكون ذر بك (لسانك الشديد) .

قال أبو ذر : لا ينبغي أن يقال : مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال : يا أبا ذر ، على أن أقضي ما علي ، ولخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد . فطلب الأذن له بالخروج من المدينة فأذن له الخليفة وزوده ببضعة وعشرين من الأبل . وأعطاه مملوكين ، فذهب أبو ذر إلى الربذه – إحدى ضواحي المدينة – وسكنها حتى توفي بعد عامين في سنة ٣٢ هجرية .

والذي يعنينا في شأن أبي ذر أمران أولهما : أن دعوته هذه ظلت قائمة يتردد صداها هنا وهناك في أنحاء الدولة وحيث أجتمع الفقر والغنى ، فكانت من بين العوامل التي ألبت الفقراء ضد أمراء الأقاليم الذين أحاطوا أنفسهم ببعض مظاهر الترف والبذخ ، ثم ساهمت بقدر في تحريك النفوس ضد الخليفة نفسه عندما رأوه يمنح الأعطيات الجزيلة لأفراد معدودين . وثانيهما : أن هذه الدعوة لم تكن تقليدا من أبي ذر لغيرة أو اقتباسا من أفكار فارسية أوحى بها إليه عبد الله بن سبأ بل هي دعوه قائمه على تفكير وفهم ووعي إسلامي ؟ إذ ما الذي يمنع أحد أعلام الصحابة وعلمائهم الذين أشربوا روح الإسلام منذ

بدء دعوته – مثل أبي ذر – أن يجتهد فيكون رأيا كهذا من تلقاء نفسه ، ويسوق لـــه مــن أدله قرآنية تؤكد ما ذهب إليه ؟

ولكن من عبد الله بن سبأ هذا ، وما وصلته بما نحن فيه الآن ؟

أما عنه فيذكرون أنه كان يهوديا من حمير ، وكانت أمه أمة سوداء ، ولذلك ســـمي " ابن السوداء " ، وقد أسلم في عهد عثمان ، ولكن أحاطت بإسلامه الشكوك القوية ، حتى لقد قال أحد الباحثين المحدثين : ان إسلام ابن سبأ كان بايعاز جمعيه سرية تريد بـــهذا أحـــد أمرين ، أما تفريق المسلمين في الدين أو تفريقهم في السياسة لأن الدعوة التي قـــام بـــها مشتركة بين الأمرين " الوصاية والرجعة " ، ومن مقتضى الوصايا وجوب الخلافة لعلـــي دون غيرة ، والوثوب على عثمان لنزع الخلافة منه ومن مقتضى الرجعة الاعتقـــاد بـــأن النبي (ﷺ) سيرجع كما سيرجع المسيح عيسى عليه السلام .

وأما عن صلته بهذه الفتنة فهي أقوى ما تكون وأخطر ، وأشد تأثيرا فـــي حوادثـــها وتطوراتها . فقد بدأ ابن سبأ بالبصرة وأخذ يبث فيها دعوته الخبيثة بين طوائف النـــاس ، فمن أقواله التي تمثل أساس دعوته : " أنه كان لكل نبي وصي ، وعلي وصـــي محمـــد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله (ﷺ) وقوله " إن عثمان أخذها – أي الخلافـــة – بغير حق فأنهضوا في هذا الأمر وابدئوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما خاض فى حق الأئمة ، فكان أول من طعن على أبى بكر وعمـــر وانتقصهما ولكن عليا – كرم الله وجهه – تبرأ منه ورماه بالكذب على الله ورسوله ، فقال فيه " مالى ولهذا الحميت الأسود الذي يكذب على الله ورسوله ؟ " وتمادى ابن ســـبأ فـــى ضلاله وذهب إلى أبعد من ذلك إذ قال :العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ، ويكـــذب أن محمد يرجع ، ويخدع الناس حين يستشهد على ذلك بقول الله تعالى " إن الذي فرض عليك القران لرادك إلى معاد ".

وأسرع والى البصرة بطرده منها حين علما بأمره ، فذهب إلى الكوفة حيـــث أســـتأنف فيها نشاطه المخرب ، ولم يلبث والى الكوفة حتى طرده منها ، فخرج إلى الشام ولكن بعد

أن سمم جو العراق بما بث فيه من أفكار بعيدة الخطر شديدة الأثر فى نفوس كثير من أهله الذين لم يدخل الأيمان فى قلوبهم وإن كانوا فى عداد المسلمين .

وفى الشام لم يستطيع ابن سبأ أن يصنع شيئا. لماذا ؟ لأنه كان يوجد بالشام رجله القوى وأميره الذكى البعيد النظر الذي يقدر ويحذر الخطر حتى قبل أن يقع ، إنه معاوية بن سفيان ، فواصل ابن سبأ رحلته مع الشيطان إلى مصر حيث وجد أرضا خصبة لتقبل أكاذيبه ، فأخذ يؤلب العامة على الخليفة ويوغر صدورهم عليه ، وقد سهل عليه مهمته بمصر غياب واليها - عبد الله بن سعد بن أبى سرح - عنها حيث انشغل بحروب مع الروم واهل النوبة ، وقد يكون لاشتداد ابن أبى سرح فى تحصيل الخراج وزيادته على المفروض من المصريين دخل كبير فى نقمتهم عليه وكراهيتهم له .

كما استعان ابن سبأ فى ترويج بضاعته تلك برجلين من قريش انضما إليه وهما : محمد بن أبى بكر ومحمد بن حذيفة .فأما عن أبى حذيفة فإنه كان حانقا على عثمان لأنه لم يسند إليه ولاية بعض أمور المسلمين ، على الرغم من أن عثمان هو الذي تكفل بتربيتهم بعد وفاة أبيه أبو حذيفة ، ولكن لماذا رفض الخليفة تعيين هذا الرجل في أحد مناصب الدولة ؟ يقول الرواة : لأنه لم يكن أهلا للولاية فى نظر الخليفة الذي علم أن ربيبه هذا قد شرب الخمر ، وقد صارحه عثمان بقوله : لو كنت رضا لوليتك ، ولكنك لست هناك . وأما بالنسبة لمحمد بن أبي بكر فللصلة الوثيقة التي تربطه بعلي ابن أبى طالب الذي تزوج بأمة " أسماء بنت عميس " بعد وفاة أبى بكر ، فتربى محمد فى بيت على زوج أمة ، وهكذا كان حماس ابن أبى بكر لعلى هو سبب تأييده لابن سبأ وتعاونه معه ضد الخليفة .

واتسعت بذلك الجبهة المناوئة للخليفة ، وأن ظل نشاطهم حتى ذلك الوقت (عام ٣٤هـ) يتخذ طابع السرية . ويتمثل فى مكاتبات متبادلة بين الناقمين هنا وهناك تتضمن النقد للخليفة وعمالة فى سائر الأمصار ، وتتحدث عن تصرفات معينة اعتبروها مخالفة ، ثم ازدادت حدة النقد شيئا فشيئا وأخذ صداه يتردد بين الناس حتى وصل إلى أسماع الخليفة

نفسه ، فانتدب أربعة من كبار الصحابة لبحث هذه المسائل والتحري عن أسباب شكوى أهل الأمصار ، والوقوف على حقائق الأمور هناك فأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ،ومحمد بن مسلمة إلى الكوفة . وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر . وقد عاد الثلاثة الأولون إلى العاصمة دون أن يجدوا هناك ما يبرر تلك الشكايات أما عمار فقد بقى بمصر حيث بعث واليها ابن أبي سرح إلى عثمان : أن عمارا قد استماله قوم بمصر ، وانقطعوا إليه ، منهم عبد الله ابن السوداء ، وكنانة بن بشر ، وغيرها .

وأراد الخليفة أن يتأكد من صحة تلك النتيجة التي توصل إليها مبعوثوه الثلاثة وأن يبرئ ساحته أمام ربه وأمام رعيته من أي ظلم أو إساءة لحقت أحدا من الناس ، فأصدر منشورا وزع في الأمصار يطلب من كل ذي حق أو شكوى أن يحضر إلى مكة في موسم الحج لتقديم شكواه إلى الخليفة ليقتص ممن ظلمه وينتصف له وتوافد الناس على مكة في عام ٣٤ هجرية للحج ، وانتهى الناس من مناسكهم وأخذوا يعودون إلى أمصارهم دون أن يتقدم أحد بشكوى أو مظلمة .

على أن الأمر لم يكن أمر شكاوي فردية أو مظالم شخصية يتقدم صاحبها إلى الخليفة فينتصر له ويريح عليه حقه وينتهي الأمر ، وتعود النفوس إلى صفائها والقلوب إلى اطمئنانها ، فتسير أمور الأمة على الوجه الذي يرتضيه جمهور المسلمين : لا ، بل كان الأمر أخطر من ذلك بكثير جدا فقد وصل إلى المدينة فريق من الحاقدين على عثمان من الكوفة والبصرة ومصر ، وقد أجمعوا أمر بيتوا له بليل ، وقد شرحوا هذا الأمر وبينوا خطتهم بقولهم :

نريد أن نذكر للخليفة أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج ، حتى نقدم فنحيط به فنخلعه ، فإن أبا قتلناه . وكانت أياها .

وعلى الرغم من أن الخليفة قد تمكن من معرفة نوايا هؤلاء الثائرين علية ، والوقوف على حقيقة أمرهم مخلصين اختلطا بهم وعرفا أخبارهم ، ثم أحاط الخليفة بها علما ،

وعلى الرغم من أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أشاروا عليه بأن يقتلهم ويريح الأمة من خطرهم ويدفن الفتنه في مهدها محتجين بقول النبي " من دعا إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه " . على الرغم من ذلك فقد لان عثمان - كعادته - لهم ، ولم يطع القوم ويحزم أمره في شأنهم ، بل قال نعفوا ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدي كفرا .

أما هذه الأشياء التي زرعوها في قلوب الناس ، وظنوا أن الخليفة لن يستطيع الجواب عنها فيلزموه بها ، فقد حاورهم بشأنها فأقنعهم بسلامة تصرفاته فيها فرضوا عن أكثرها وسكتوا عن القليل منها ، وكانت كما يلي :

قالوا : أتم الصلاة في السفر ، وكانت لا تتم في عهد النبي وصاحبيه .

قال : ألا وإني قدمت بلدا وفيه أهلي فأقمت وأتممت .. فرضوا .

قالوا :انه عين ارضا محدده ترعى فيها أبل الصدقة ،وان النبي وصاحبيه لم يفعلوا ذلك

قال : حتى لا تختلط بها ابل الناس فلا تزاحمها في مرعاها ، وانه ليس له من الأبل إلا راحلتان لحجة مع انه قد ولي الخلافة وهو أكثر العرب بعيرا وشاه فرضوا منه بذلك الجواب.

قالوا : انه جعل القرآن الكريم في مصحف واحد ، وأمر بتحريق ما عداه من المصاحف.

قال : ألا وأن القرآن واحد جاء من عند واحد وانما هو في ذلك تابع وليس مبتدعا.. فرضوا بجوابه هذا .

قالوا : انه رد الحكم بن أبي العاص عم الخليفة إلى مكة ، وكان النبي(ﷺ) قد أبعده إلى الطائف لأنه كان من أقصى المشركين على الرسول في مكة قبل الهجرة ، وقد استمر مبتعدا في خلافتي أبي بكر وعمر ، فكيف يعيده عثمان ؟

قال : إنما شفعت لدى رسول الله(ﷺ) في شأن الحكم فقبل شـــفاعتي لكنـــه(ﷺ) انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل عودة الحكم و أبى الصديق والفاروق أن يأخذ بخبر الواحـــد فلما وليت أعدته . فرضوا بهذا الجواب .

قالوا : انه ولى صغار السن من أهله على الخصوص ؟ قال لقد أمر النبي زيد بـــن حارثه ، ومن بعده أمر ابنه أسامة على جيش فيه من كبار الصحابة كثيرون ، حتى تكلـــم الناس في ذلك يومئذ فقبلوا منه جوابه هكذا .

قالوا : انه أعطى والي مصر عبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح – وكان أخا عثمـان من الرضاعة – خمس الخمس الخاص ببيت المال .

قال : لقد فعل مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما كذلك فقد استرد الخليفة هـذا المال من أبن أبي سرح بعد أن علم بكراهية الجند لهذه المنحة فرضى منه الناس ذلك .

قالوا : إن الخليفة يحب أهل بيته ويعطيهم المال الجزيل .

قال : أني أحبهم ولكني لا أميل معهم على جور ، وأحمل عليهم الحقوق كما إنـــي لا أعطيهم إلا من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد مـــن النـــاس ، وقـــال الخليفة ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبه من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، فهل حينمـــا كـــبرت ســـني ، وودعت الذي لي في أهلي قلتم ذلك ؟ وسكت الناس ، وان لم يكونوا قد رضوا عن ظـــهور كثير من أقارب الخليفة في مناصب الدولة المختلفة أو سائر الأمصار .

وأخيرا قالوا : إن الخليفة قد سمح لكبار الصحابة بالتحول إلي الأمصار حيث اشتروا وامتلكوا الأموال والعقار في العراق والشام ومصر على حين كان سلفه عمر يحذر عليـــهم الانتقال من العاصمة خشية أفتتان الناس بهم وانصرافهم إلى الاشتغال بالأموال والتجارة ، وهذا ما يتفق وطبيعة الخليفة في عدم التشدد والحزم مع الناس ولذلك فإنه رد عليهم قائلا :

إن هذه الأرضيين شاركهم فيها المهاجرين والأنصار أيام افتتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوه أهله .. وسكت القوم أيضا دون أن يتفقوا معه في الرأي حول هذه المسألة .

هذه الملاحظات أو الاعتراضات على سياسة عثمان وأسلوبه في إدارة شؤون الأمة وعلى الأخص فيما يتعلق بتوليته مناصب الدولة ذوي قرباه ، ومنحهم ألا عطيات الكبيرة ، كانت تمثل من غير شك أسباب للضيق بخلافته وقد اتخذها الثائرون عليه مادة لتأليب الناس ضده وأوغروا بها صدورهم .

وإذا كانت هذه المحاورة قد انتهت – شكلا – بسكوت الناس ، فقد أدرك الخليفة إنها مواقف لها ما بعدها ، وينبغي له أن يعمل على تدارك الأمر قبل أن يستفحل ، ولذلك بعث إلى عماله على الأقاليم أن يوافوه في الحج ليتدارس معهم الموقف .

• اجتماع الخليفة بأمراء الأمصار :~

يقول الطبري وغيره : وبعث عثمان إلى عمال الأمصار فقدموا عليه " عبد الله ابن عامر ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص " . فقال عثمان : ويحكم ما هذه الشكايه ؟ وما هذه الإذاعة ؟ اني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يعصّب هذا إلا بي – يعني ينسب إلي .

فقالوا : ألم تبعث رسلك إليهم ؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء – أي لم يشك أحد – ألا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا ، وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شئ ، وما هي إلا أذاعه لا يحمل الأخذ بها . ولا الانتهاء إليها .

قال : فأشيرا علي . فقال سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع يصنع في السر ، فيلقى به غير ذي المعرفة ، فيختبر به ، فيحدث به في مجالسهم . قال : فما دواء ذلك ؟ قال : طلب هؤلاء القوم ، ثم قتل هؤلاء الذين يخرجوا هذا من عندهم . وقال عبد الله بن

سعد : خذ من الناس الذي عليهم بعد أن أعطيتهم الذي لهم ، فإنه خير منك تدعهم . وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير . قال عثمان : فما ترى يا عمرو ؟ قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم . وزدتهم على ما كان يصنع ، فأرى أن تلزم طريق صاحبيك ، في موضع الشدة ، فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين . إن الشدة تنبغي لمن لا يألوا الناس شرا ، واللين لمن يخلف النار بالنصح ، وقد فرشتها جميعاً باللين .

وهكذا أجمع المتكلمون على المبادرة بأخذ هؤلاء المحركين للفتنه المحرضين عليها بالشدة والضرب على أيديهم قبل استفحال خطرهم وتزايد شغبهم ، وكان الذي ينبغي أن يأخذ الخليفة بهذا الرأي ، ويعمل بما أشاروا عليه به ، ولكن طبيعة عثمان لا تفارقة وسجيته أبداً كما هي حتى وهو يواجه خطرا يتهدد نفسه والأمه ونظامها القائم ، فلم يستجب لمشورتهم التي طلبها منهم ، وإنما أوصاهم بقوله كفكوهم الناس ، وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم ، وإذا تعوطيت حقوق الله – أي مست – فلا تدهنوا فيها .

والسؤال الآن : هل صدق هؤلاء الأمراء الاستماع إلى توجيهات الخليفة وتنفيذها ؟ ولا نظن أن الجواب هو " نعم " إذ لم يمنعوا الناس من الخروج على الخليفة بسوء تصرفهم ، ولم يؤدوا إليهم حقوقهم حين لم يبصروهم عاقبة جنوحهم واتباعهم زعماء السوء والفتنة ، كما أنهم تهاونوا في صيانة حقوق الله إذ تركوا لهؤلاء الخارجين على الخليفة [illegible] شيئاً ولم [illegible] أمرهم [illegible] فاستشرى [illegible] وكان من أمرهم ما كان .

وعاد كل أمير إلى ولايته ، وأدرك معاوية حرج موقف الخليفة ودقته في المدينة لانصراف كثيرين من أهلها عنه ، فعادا سريعاً إلى العاصمة ، ولقد عرض معاوية على عثمان أن يذهب معه إلى الشام فيقيم بين أهلها وكلهم سامع له مطيعا فلا خطر عليه هناك فأبى الخليفة أن يبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء فعرض عليه معاوية عندئذ أن يرسل إليه جندا من أهل الشام يقيمون معه في المدينة للدفاع عنه وحمايته من

الخطر المحتمل ، ومرة أخـــرى ، أبـــى الخليفـــة أن يضـــايق أهـــل المدينـــة بســـكنى غيرهم معهم .

ونتساءل هنا أيضا : ألم يكن من الحكمة السياسية وبعد النظر قبول أحـــد هذيـــن العرضين تفاديا للخطر وسدا لباب الفتنة وقضاء على الشر في كل ذلك ، فخلقـــة الرقيـــق ولينه وإيثاره العافية ونفوره من المجابهة والعنف ، كما أن إيمانه وطهارة نفسه وعزوفـــة عن الدنيا . كل ذلك هيأ له أن المسلمين لن يبلغ بهم الأمر حد العدوان على خليفتهم الـــذي بايعوا مختارين غير مكروهين ، فكانت ثقته فوق الاحتمالات التي أبصر معاوية نذرها في الأفق . وهكذا تهيأت الظروف وتمهدت الأمور ليحل بالأمة ما حل من هول عظيم وليقـــع الخليفة ما وقع من تجاوز لحرمته وعدوان عليه ، وهو ما نسميه بالمرحلة الأخـــيرة فـــى خلافة عثمان رضى الله عنه .

- **حصـــار الخليفة واستشهـــاده** : ~

فى منتصف العام الخامس والثلاثين للهجرة كاتب أهل الأمصار الثلاثة – مصـــر والبصرة والكوفة – بعضهم . وتواعدوا على الخروج إلى المدينة ، على أن يكون هـــدف خروجهم هو الحج .

وفى شوال من العام ذاته خرج من المصريين ستمائة – وقيل ألف – رجل بقيـــادة الغافقى بن حرب العكى ، وكان بينهم ابن السوداء قطب هذه الفتنة دون منازع ، كما خرج أهل البصرة فى مثل هذا العدد ، وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي . كذلك خرج مـــن الكوفيين ما يقارب عدد رفاقهم البصريين ، يقودهم عمرو ابن الأصم ، وعلى الرغم مـــن أن خطتهم التي اتفقوا عليها كانت :

أن يطالبوا الخليفة بتغيير ولاة بلادهم ، فإن رفض طالبوا بعزل نفسه من منصبـــة ، فإن أبى حققوا غرضهم بالقوة .على الرغم من ذلك فإنهم لم يتفقوا على شخصية الخليفـــة الجديد ، بل أضمر كل فريق فى نفسه وأخفى عن الرفاق الآخرين نيته ، فإن المصرييـــن كانوا يحبون استخلاف على ، بينما يريد البصريون خلافة طلحة ابن عبيد الله ، على حين

رغب أهل الكوفة فى تولية الزبير بن العوام ؛ بل يذكر الطبري ان كل فرقة كانت تعتقد أن الفوز بهذا الأمر من نصيبها ، وأن رجلها هو الخليفة القادم .

وتقدم أهل مصر إلى الخليفة يطلبون تغيير واليهم ابن أبى سرح بآخر وتلافيا لخطر الفتنة استجاب عثمان لطلبهم وعين – بناء على طلبهم – محمد بن أبى بكر أمير على مصر ، فعاد المصريين إلى بلادهم يذكر كثير من المؤرخين – منهم الطبري – أنه بينما كان وفد مصر عائدا إليها وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر ، رأوا راكبا يقترب منهم اشتدوا عليه فى إظهار حقيقة أمره ثم فتشوه فإذا هو يحمل كتابا مختوم بخاتم الخليفة عثمان ، وهذا الكتاب موجه إلى والى مصر عبد الله ابن سعد بن أبى السرح يأمره فيه الخليفة بالقبض على رجال هذا الوفد حين عودتهم إلى مصر والتنكيل بهم وقتلهم جميعا .

وكانت هذه المفاجأة كافية لإثارة الغيظ وخيبة الأمل فى نفوسهم فرجعوا إلى المدينة ، ولم يكن رفاقهم العراقيون قد عادوا لأن الفصل الأخير من المؤامرة لم يتم بعد ودخل المصريين على الخليفة وأطلعوه على الكتاب ، فقال لهم : إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين – أن يشهدان عليه بذلك – ، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت ، ثم قال لهم – مبرئا نفسه وموضحا لهم أنه يمكن أن يكون هذا الكتاب مزورا – وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم . فطلبوا منه أن يسلمهم مروان بن الحكم الذي قام عندهم الدليل على أنه كاتب هذه الرسالة لكي يحققوا معه فى الأمر ، فأبى الخليفة الاستجابة لطلبهم خوف الفتك به ، وأصر هؤلاء على طلبهم وأصر الخليفة على رفضه ، فتفاقمت الأزمة وكان الحصار حول بيت عثمان ومنعه من الخروج حتى للصلاة بالناس .

ويغرى الباحث فى أمر هذه الفتنة بتصديق قصة هذا الكتاب المزور . تلك الرسالة التي بعثها الخليفة إلى أهل الأمصار يستمدهم قبل أن تكون النهاية ، قال عثمان فى رسالته : " بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله عز وجل بعث محمدا بالحق بشيرا ونذيرا ، فبلغ عن الله ما أمره به . ثم مضى وقد قضى الذي عليه لله عنه ، وخلف فينا كتابه ،

فيه حلاله وحرامه ، وبيان الأمور التي قدر فأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا ، فكان الخليفة أبو بكر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه ، ثم أدخلت فى الشورى عن غير علم ولا مسألة عن الأمة ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على ، على غير طلب منى ولا محبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون ، تابعا غير مستتبع ، متبعا غير مبتدع ، مقتديا غير متكلف . فلما انتهت الأمور ، وانتكث الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا تره فيما مضى إلا إمضاء الكتاب : فطلبوا أمرا وأعلنوا غيره ، بغير حجة ولا غيرها فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم من سنين وأنا أرى وأسمع ، فازدادوا على الله عز وجل جرأة ، حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمه وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أمر من غزانا إلا ما يظهرون . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق .

وما إن وصلت رسالة الاستغاثة هذه حتى أسرعت النجدات إلى العاصمة لتفك أسر الخليفة المحصور ،فبعث معاوية جيشا على رأسه حبيب بن مسلمة الفهرى ،وبعث ابن أبى سرح فرقة بقيادة معاوية بن حديج السكونى ،وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمر والتميمى

أما المدينة فقد خف للدفاع عن الخليفة ومنع الثوار من الوصول إليه وإلى أهل بيته خيرة الشباب من الصحابة أمثال الحسن والحسين أبني على وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم من الرجال وأخذت المؤن والمياه تسرب خلسة إلى داخل الدار ، وطال الحصار حتى تجاوز العشرين يوما ، وازداد التوتر فى المدينة وأحكم الثوار قبضتهم عليها .

فقد انتهى موسم الحج ، واقتربت النجدات من المدينة ، وأصبح الموقف هكذا صعبا على الثوار ، ورأوا أنه لابد لهم من التعجيل بتنفيذ أمرهم قبل أن يفلت الزمام من أيديهم وتباغتهم الجيوش القادمة لنجدة الخليفة ، فأرادوا أن يقتحموا دار الخليفة ولكن فشلوا بسبب المقاومة الباسلة من أبناء المهاجرين والأنصار ، فعمدوا إلى إحراقها ، وتسور بعضهم دارا مجاورة ، وانقض عليه الثائرون وهو يقرأ فى كتاب الله هادئا ساكنا وأحجم محمد بن أبى بكر عن مس الخليفة بأذى ، لكن الغافقى بن حرب أسرع فضربه بحديدة

كانت معه ، ثم انقض عليه أحدهم بسيفه فأرادت زوجة نائلة أن تحميه بنفسها فقطع السيف إصبعها ، ثم وضربة مجرم آخر فأجهز عليه رضى الله عنه ثم نهب هؤلاء القتلة بيت الخليفة وبيت المال .

وقعت تلك المأساة فى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة عام ٣٥هـ (٦٥٥م) ولم يصرح أولئك القتلة الظالمون بدفن أمير المؤمنين عثمان إلا خلسة ، فحمل جسده الطاهرة إلى مثواه الأخير ليلا ، ولم يشترك فى جنازته إلا نفر قليل .

على هذا النحو المؤسف والمؤلم انتهت حياة ثالث الراشدين عثمان بن عفان بعد أن جاوز الثمانين عاما ، وهى لاشك حياة حافلة لواحد من مشاهير الصحابة وأوائل السابقين إلى الإسلام المجاهدين فى سبيل الله حق الجهاد بالنفس والمال وجليل التضحيات والعمل ، وهى بالمقياس المصنف حياة لم يشوه من جلالها إلا تلك النهاية المأساوية التي لا تزال تدمى قلب كل مسلم ، والتي لا يزال أثرها قائما فى المجتمع الإسلامي أبدا ، فلقد كان استشهاده رضى الله عنه ختاما للمرحلة الأولى من أخطر وأعظم فتنة تعرض لها المسلمون ، وبداية للمرحلة الثانية من الفتنة الكبرى التي واجهتها الأمة واكتوت بشوورها مع مطلع العام السادس والثلاثين من الهجرة .

وإذا كان لابد من كلمة تقال حول هذه النهاية المفجعة لأحد أعلام الإسلام ، فلا جدال فى أن هؤلاء الثوار قد اقترفوا إثما عظيما وقتلوا نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق فهم يحملون أوزارهم كاملة ، بل إنهم ليحملون أوزار جرائم وآثار أخرى ترتبت على فعلتهم المنكرة هذه ، فهم شركاء فى قتل السادة من أصحاب رسول الله(ﷺ) : طلحة والزبير وعلى ، وعشرات الألوف من المسلمين الذين ذهبت أرواحهم فى معارك الفتنة الطاحنة وأحداثها الدامية التي تتابعت إبان خلافه رابع الراشدين على بن أبى طالب والتي نبدأ حديثها بالتفصيل .

((۞ الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ۞))

« ٣٥ - ٤٠هـ / ٦٥٥ - ٦٦١م »

أرى أنه ينبغي لنا قبل أن نتابع حديث الفتنة في عهد علي بن أبـــي طـــالب . أن نتوقف قليلاً عن هذا الحديث لتهدأ نفوسنا وتستريح صدورنا . ولنكن وقفتنا هـــذه فرصـــة نتعرف خلالها على شخصية الخليفة الرابع ، فنقول إنه .

• **نسبـــه** : ~

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وأمة فاطمة بنت أسد بنت هاشم ، فهو هاشمي من جهة أبوه وأمة ، بل كانت أمة من الســـابقات إلـــى الإسلام .

• **مولـــده** : ~

وقد ولد رضى الله عنه قبل الهجرة بثلاث وعشرون سنة . كما صرح ابن إسحاق - وقيل بإحدى وعشرين سنة . ونشأ في بيت النبوة وتربى تحت رعاية النبي عليه الســـلام ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال . وحدث أن أصابت قريشا أزمـــة شـــديدة ، فاقترح محمد على عمه العباس بن عبد المطلب - الذي كان من أغنياء بني هاشـــم - أن يشتركا في تخفيف العبء عن أبي طالب بأن يتكفل كل منها بتربية واحد من بنيه ، فكـــان جعفر بن أبي طالب من نصيب عمه العباس ، وكان علي من نصيب النبي ، فانتقل إلـــى بيته صبيا صغيرا.

• **إسلامـــه** : ~

فلما بعث النبي . كان من الطبيعي أن يكون علي أول من أسلم من الذكور ، ويـــروى المؤرخون في هذه المناسبة أن عليا رأى النبي وزوجه خديجة رضى الله عنـــها يصليـــان فيركعان ويسجدان ويقرآن بعض ما أوحاه الله يومئذ إلى محمد من القرآن ، ولم يكن رآها يفعلان شيئا من ذلك من قبل ، فدهش ، وسألهما : لمن هذا الركوع والســـجود ؟ فأجابـــه النبي بما معناه : نسجد لله الذي بعثني نبيا ، وأمرني أن أدعو الناس إليه . ودعـــاه إلـــى

عبادة الله لا شريك له ، وترك الأصنام ، ثم أسمعه بعض آيات القرآن ، فوقع ذلك من قلبه موقع القبول ، ولم يلبث حتى أسلم ، وهو فى العاشرة ، وقيل فى الثامنة من عمره .

• **جهـــاده فى الإسلام** :~

وقد كان لنشأة على فى بيت النبوة الشريف وإسلامه فى تلك المرحلة المبكـــرة مـــن حياته أثرهما البارز فى سجله الرائع مع الإسلام ، ومن أشهر موافقة فى هذا المقام افتداؤه الرسول بنفسه يوم هجرته إلى المدينة ، بقبوله النوم على فراشه ليلة الهجرة ، تلك الليلـــة التي تجمع فيها شباب قريش عند منزل النبي لقتله ، ولو أن هؤلاء الشباب اقتحموا المنزل واندفعوا بسيوفهم إليه وقتلوه قبل أن يتبينوه لذهب رضى الله عنه شهيدا كريما .

وكان النبي قد أمره أن يمكث فى مكة حتى يؤدى عنه أمانة الودائع التي كانت لديـــه عليه السلام . ثم يلحقه إلى المدينة بأهل بيته ، ففعل ، وقد أخاه النبي فى المدينة ثم زوجـة بابنته فاطمة الزهراء . فأنجبت له الحسن والحسين وزينب رضى الله عنهم أجمعين ، فهو ابن عمه ، وأخوه ، وصهره .

ولقد شهد على غزوات النبي كلها إلا غزوة تبوك حيث اســتفحله رســول الله علـــى المدينة ، وكان رضى الله عنه مضرب المثل فـــى الشــجاعة والإقــدام ، وتواتــر لــدى المؤرخين حينئذ بطولته وجرأته فى الحرب والنضال ، ولا سيما يوم فتح خيبر ، ولقد كان يختاره رسول الله لحمل لواء المسلمين فى مواطن كثيرة من أجل ذلك .

ومن جانب آخر فإن عليا كان أحد كتاب الوحي للنبي ، وقــد تــم حفــظ القــران وعرضه على رسول الله قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى وكذلك فقد روى لـــه الصحابـــة وكبار التابعين أكثر من خمسمائة حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مـــن كبـــار علماء الصحابة بالكتاب والسنة ولذلك فقد توفى النبي عليه السلام وهو راضٍ عنه تمامـــا ، فكان على أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة .

ولئن كان على – مع حسن بلائه وعظيم جهاده فى الإسلام – قد تأخر ترتيبـــه بيـــن الخلفاء الراشدين حتى كان رابعهم فإن أبا بكر وعمر وعثمان قد عرفوا له فضله ومكانتـــه

فى الإسلام ، فكان كل منهم يستشيره فى مهام الأمور قبل إبرامها وكانت مشورته دائمـــا نعم الرأي لما كان يتمتع به من عقل راجح وفكر صائب ورأي سديد ، وعلم وافر بكتـــاب الله وسنه نبيه ، وفقه محيط بأمور الدين ، وقد مر بك عديد من الأمثلة على ذلـــك ، كمـــا ذكرنا لك أنه من الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب لاختيار أحدهم خليفة بعده . وعلـى الجملة فهو كما وصفه السيوطى فى كتابة "*تاريخ الخلفاء*" : أحد السابقين إلى الإســـلام ، وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهودين والزهاد المذكورين ، والخطباء المعروفيـن وأحد من جمع القران وعرضه على النبي عليه الصلاة والسلام .

• **بيعة على بالخلافة** : ~

لحظة استشهاد عثمان رضى الله عنه أصبح المسلمون بدون خليفـــة ، وأصبحـــت دولتهم بغير رئيس يتحمل مسئوليتها. ويدبر شئونها ، ويرعى مصالح أبنائـــها ، الأجـدر بمواجهة هذا الموقف والأقوى على تحمل تبعاته والقيام بمسئولياته الجسام ، ولـــم يطـل تفكيرهم . فلقد كان منطقيا أن تتجه أنظارهم مباشرة إلى أولئك الباقين من الســـتة الذيـن رشحهم عمر للخلافة وهم : على وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص ، ثم يضاف إليـــهم عبد الله بن عمر بن الخطاب . ولقد تذكر أهل المدينة – بما فيهم الثوار – إن الاختيار كان قد انحصر – بعد وفاة عمر – بين عثمان وعلى . ولقد مات عثمان ، بقى علي ، فهو إذن الرجل الذي عنه يبحثون فليذهبوا إليه ، وليعرضوا عليه الخلافـــة ، وليكونـــوا مطمئنيـن لحسن اختيارهم له ، لماذا ؟

لأنه الشخصية التي يتمتع بالمزايا التالية :

فهو أول الرجال إسلاما ، وأسبقهم صحبة للنبي ، ابن عمه ، وصهره وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة بعده. فأجمعوا أمرهم وانطلقـــوا إلى على وطلبوا منه أن يتولى خلافة المسلمين . فبماذا أجابهم ؟

هنا تكثر الروايات التي أوردها الطبري وغيره من المؤرخين ، وهي روايات تتراوح بين المعقول والمقبول والذي لا تجد النفس ميلا إليه . ونحن هنا إنما نذكر ما نرتاح إلى الاقتناع بأنه الصواب من بين ذلك كله فنقول :

يروى الطبري عن أبي بشير العابدى قال : كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضى الله عنه ، واجتمع المهاجرون والأنصار ، فيهم طلحة والزبير فأتوا عليا ، فقالوا يا أبا حسن . هلم نبايعك . فقال لا حاجة لى فى أمركم ، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا والله . فقالوا : ما نختار غيرك . قال فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان مرارا ، ثم أتوا فى أخر ذلك ، فقالوا له : إنه لا يصلح الناس إلا بأمره ، وقد طال الأمر فقال لهم : إنكم قد اختلفتم إلى وأتيتم ، وإني قائل لكم قولا إن قبلتموه قبلت أمركم ، وإلا فلا حاجة لي فيه . قالوا : ما قلت من شئ قبلناه إن شاء الله . فجاء فصعد المنبر فاجمع الناس إليه فقال : إني قد كنت كارها لأمركم ، فأبيتم إلا أن أكون عليكم : ألا وإنه ليس لي أمر دونكم إلا أن مفاتيح ما لكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن أخذ منه درهما دونكم رضيتم ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم أشهد عليكم ، ثم بايعهم على ذلك .

وينتقل الطبري أيضا عن روايتين تؤكدان اجتماع أهل المدينة على اختيار على للخلافة ، فيقول فى الأولى : لما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان رضى الله عنه ... اجتمع أهل المدينة ، فقال لهم أهل مصر . أنتم أهل الشورى ، وانتم تعقدون الأمانة ، وأمركم عابر – أى جائز – على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ، ونحن لكم تبع . فقال الجمهور : على بن أبى طالب نحن به راضون .

ويقول فى الثانية : فقالوا – أى المصريون – لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد أجلناكم يومين ، فو الله لئن لم تفرغوا – يعنى من اختيار الخليفة الجديد – لنقتلن غدا عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيرا . فغشى الناس عليا ، فقالوا :

نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام . وما ابتلينا به من ذوى القربى ، فقال على : دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وله ألوان ، لا تقوم له القلوب ولا

تثبت عليه العقول . فقالوا : ننشدك الله ألا ترى ما نرى : ألا ترى الإسلام : ألا ترى الفتنة . ألا تخاف الله . فقال : قد أجبتكم لما أرى ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، إلا أنى أسمعكم وأطعكم لمن وليتموه أمركم . ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد .. فلما أصبحوا من يوم الجمعة حضر الناس المسجد ، وجاء على حتى صعد المنبر ، فقال : يا أيها الناس ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد . أحد . قالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس وبايع الناس كلهم .

ويقول ابن عبد ربه فى كتابه " العقد الفريد " لما قتل عثمان بن عفان أقبل الناس يهرعون إلى على بن أبى طالب ، فتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فقال : ليس ذلك الحكم . إنما ذلك لأهل بدر أين طلحة والزبير وسعد فأقبلوا وبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس ...

وعلى هذا النحو تمت البيعة لعلى بالخلافة فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وهو اليوم الخامس لاستشهاد عثمان حيث ظلت المدينة تحت أمره الغافقى بن حرب هذه الأيام الخمسة .

لكنه يحلو لكثير من الباحثين أن يبدنوا القول ويعيدوه فى مناقشة هذه البيعة ، ويرون – فيما يشبه اليقين – أنها لم تتم على الإجماع التام لجماعة المسلمين ، وأن بعض الصحابة – كطلحة والزبير – بايعوا مكرهين وبعضهم الآخرين –كزيد بن ثابت والنعمان بن بشير – قد امتنعوا عن البيعة لأسباب ظاهرها كراهتهم لخلافة على ولكنها فى واقع الأمر تسيء إليهم إساءة بالغة إن صحت هذه الأسباب ، وتقدمهم إلينا –وهم الصحابة الأكرمون – على هيئة جماعة من المنتفعين بحكم عثمان ، وأن ولاية على سوف تحجب هذه المنفعة ، وحاشا أن تكون هذه حقيقة أصحاب رسول الله فيما يتعلق بتفكيرهم فى مصلحة المسلمين العامة .

وإنه لواجب على من يتصدى لإبداء رأى أو تقرير حكم فى مسألة بالغة الدقة والحساسية كهذه أن يلم بجميع خيوطهم ، ويتأتى فى درسها وتفهمها ، ثم يأخذ فى حساباته

تاريخ هؤلاء الناس والأخلاق التي يصدون عنها ويحتكمون إليها في تصرفاتهم وهل صح أن واحدا منهم فضل نفسه أو حفنة من المال يحصل عليها على مصلحة الأمة حتى يصح أنه رفض مبايعة على لأنه لن يستفيد من حكمه شخصيا ؟

وعندي إن مبعث هذا الرأي القائل بأن بيعة على لم يتوفر لها ذلك الإجماع التام من الأمة ، هو : هذا التوتر الذي ساد المدينة قبيل مقتل عثمان وبعده ، حتى اختلطت الأمور على الناس ، واختلفت تفسيراتهم للحوادث والمواقف التي كانت يومئذ حتى رأينا سيلا من الروايات المختلفة والمتناقضة حول الموقف الواحد ، وعلى أية حال فنحن لا نستطيع الاقتناع بأن الجمهور الأعظم من أهل المدينة يجمع على اختيار على ، ويقف في مواجهتهم معارضين ذلك : طلحه والزبير وسعد ابن عمر وغيرهم من كبار رجال الإسلام ، وهم العارفون بفضل على والعالمون بحقيقة شخصيته ودرجة أهليته لتولي قيادة سفينة الإسلام في تلك الظروف العصيبة التي لا يقدر على مواجهتها ومعالجتها بالصرامة والحكمة المناسبتين إلا شخص مثل علي بن أبي طالب .

وهكذا نحن نطمئن تماما إلى القول بأن بيعة علي لا تكاد تختلف عن بيعة الثلاثة الراشدين من قبلة ، وأن جمهور الأمة في العاصمة وفي مقدمته المهاجرين والأنصار قد أجمعوا على اختياره بمحض إرادتهم ، وأن رائدهم في هذا الاختيار إنما مصلحة الأمة – وهم لاشك أخير الناس بهذه المصلحة لأنهم أهل العقد والحل الذين تنعقد بهم الأمور إلا ترى إلى قول الثائرين لهم : " انتم أهل الشورى ، وانتم تعقدون الأمانة ، وأمركم عابر – أي جائز – على الأمه ، فانظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع " ، وإنها لذلك كله بيعة ملزمة لأهل الأمصار جميعا وأنه لا مجال للخوض في الشاميين الذين يقودهم معاوية لحاجة في نفسه سوف نتعرض لها . ولا نظن أحدا يذهب إلى القول بأنه كان ينبغي على المسلمين أن ينتظروا حتى تأتي بيعة معاوية وأهل الشام لكي تتم بيعة علي ، فإذا لم تأتي هذه البيعة وهي لم تأتي فعلا – فلا صحة لما أجمع عليه المسلمون ووافقهم عليه أهل سائر الأمصار .

• **خطبـة البيـعة** : ~

يذكر الطبري إن أول خطبة خطبها علي حين استخلف حمد الله وأثنى علية فقـال : ان الله عز وجل انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعـوا الشـر . ، فرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضـل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين . ، والمسلم من سـلم الناس من لسانة ويده إلا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب .بادروا أمـر العامـة ، وخص أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم وان من خلفكم الساعة تحدوكم . تخففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أخراهم . واتقوا الله في عبادة وبلادة : إنكم مسؤولون حتى عن البقـاع والبهائم ، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشـر فأدعوه " واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض " .

ولا شك في أن الموقف يومئذ كان يحتاج إلى مثل تلك الخطبة ا لتي بدأت بالتذكير بكتاب الله الذي أنزله لهداية الناس ، والدعوة إلى عمل الخير ، واجتناب الشر ، والـتزام الفرائض ، والتنبيه إلى حرمات الله وأهمها حرمة المسلم – ولعله بذلك يحدد موقفـه مـن انتهاك حرمة المسلم ويبين رأيه في العدوان علية سواء كان الخليفة أو غـيرة – وبيـان مكمن القوة في المسلمين ، والحض على العمل الصالح – والجهاد خاصة – لنيل ثواب الله والالتزام بتقوى الله وطاعته ، .....الخ .

• **القصـاص** : ~

ثم بدأ علي في مباشرة مسؤولياته والاضطلاع بمهام منصبه ، وكان عليه في هـذا الصدد أن يعالج مسألتين ملحتين عويصتين ، فأما الأولى فهي القصاص من قتلـة سـلفه عثمان ، وهؤلاء القتلة ما يزالون في المدينة غادين رائحين لا يتصورون – وهم ما برحوا القوى العسكرية الكبرى – أن ينال الخليفة منهم الآن شيئا ، ولكن جميع من لم يشترك فـي الثورة على عثمان قد غضبوا لمقتلة ويريدون أن يتخذ الخليفـة الجديـد موقفـا صارمـا وسريعا من هؤلاء الثائرين . فكيف تصرف الخليفة في هذه المسألة ؟

في الرواية التي أقدمها لك عن الطبري تجد الجواب عن هذا التساؤل ، قال : واجتمع إلى علي بعدما ما دخل طلحه والزبير في عدة من الصحابة وقالوا : يا علي ، انا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم . فقال لهم : يا أخوتاه ، إني لست أجهل بما تعملون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . هل هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسمونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه ان شاء الله ..حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا .

أى أن رأيه كان يقضي بالانتظار حتى تستقر الأمور وتهدأ النفوس ويملك الخليفة نمام المبادرة في يده وتتم سيطرته على الأوضاع وتكون سلطة الخلافة فوق قوة هؤلاء الثائرين ، وحينئذ فإن القصاص نافذ فيمن شاركوا في قتل عثمان . وهو رأي وافقه عليه كما ترى زعماء الناس على مضض لأنه لا حيلة لهم ولا للخليفة يومئذ إلا في الانتظار .

- عزل الولاة :

أما المسألة الثانية فهي : عزل ولاة الأمصار الذين كان أغلبهم سبب شكوى الناس وتزمرهم في عهد عثمان ، أو إبقائهم لبعض الوقت ريثما يحكم الخليفة قبضته على أزمة الأمور ، وتعود البلاد إلى حالتها الطبيعية . وفي هذا الصدد لعلنا نتذكر ما قلناه في الصفحات السابقة من أن عليا كان يرى كغيرة من الناس – ان ولاة عثمان وتصرفاتهم هي التي أدت إلى كل ما حدث ، وانه تقدم إلى عثمان ينصحه بأن يكون حازما معهم حتى تهدأ الأمور ويعود الناس إلى أمصارهم قبل أن يتفاقم الخطر وتزداد الأمور تعقيدا . ولذلك فانه ما كادت البيعة تتم لعلي حتى بادر إلى تعيين ولاه جدد بالأقاليم المختلفة وعزل ولاة عثمان جميعا ، فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف والى الكوفة عمارة بن شهاب ، وجعل على اليمن عبيد الله بن العباس ، وعلى مصر سعد بن قيس بن عبادة وسهل بن حنيف على الشام ..

ويكاد يتفق المؤرخون وسائر الكتاب على أن هذه الخطوة من علي لم تكن في موضعها الصحيح ، ويذكرون ان فريقا من عقلاء الصحابة بينهم عبد الله بن العباس والمغيرة بن شعبة – قد نصحوه بالا يعجل بهذا الأمر حتى تستقر الأوضاع وتتم له السيطرة على مقاليد الأمور ، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لوالي الشام معاوية بن أبي سفيان الذي كان يومئذ قوه هائلة يحسب حسابها قبل التعرض له بالعزل من جهة أخرى فإذا علمنا أن معاوية ومن خلفه أهل الشام جميعا قد رفض القبول بما جرى لعثمان وكان ما ترتب عليه من إجراءات ، فإن الأمر كان يحتاج إلى لون آخر من المعالجة تعتمد على السياسة والمرونة غير ذلك الذي صنعة علي .

ولسنا بذلك ننفي ان عليا كان سياسيا ، ولكن صلابته في الحق وتشدده فيه أقوى من سياسته ، ومن مبادئه ألا يسكت ساعة عمن يكون غير راض عنه ، ويرى مصانعتهم وملاينتهم خروجا على قواعد الصدق الإخلاص ، ولهذا فقط بادر بعزلهم جميعا لأنه لم يكن راضيا عنهم ، وقد تمكن الولاة الجدد من الوصول إلى أمصارهم مباشرة عملهم إلا سهل بن حنيف ، فقد منعه جند معاوية من دخول الشام ، يقول الطبري : فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أمير ، قالوا : على أي شيء ؟ قال: على الشام ، قالوا : ان كان عثمان بعثك فأهلا بك ، وان كان قد بعثك غيرة فأرجع . قال : أو ما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا : بلا ، فأرجع إلى علي وعمارة بن شهاب الذي لم يتمكن من دخول الكوفة حين لقيه في الطريق إليها : طليحه بن خويلد الأسدي – وكان من المطالبين بدم عثمان – فقال له أرجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم " أبي موسى بدلا ، وان أبيت ضربت عنقك ، فرجع عماره الى علي وأخبره ما لقي . غير ان أبا موسى الأشعري كتب إلى الخليفة بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ، وبين له – تفصيلا – أهوائهم فمنهم الكاره الذي كان ، ومنهم الراضي بالذي قد كان ، وفريق ثالث بين هؤلاء وأولائك . فأصبح علي وهو على بينه من أمر الكوفة.

• **بين علي ومعاوية :**

وكتب علي إلى معاوية يطلب منه البيعة له ، فرد معاوية رسوله دون جواب ، حتى إذا كان شهر صفر - بعد أكثر من شهرين من مقتل عثمان بعث معاوية إلى الخليفة برسالة مكتوب فيها " من معاوية إلى علي " وهي جمله تعني إن معاوية لا يعترف بخلافة علي ولا يقر له بالطاعة ، فسأل علي رسوله معاوية عن حقيقة الأمر فقال الرسول : أني تركت ورائي قوما لا يرضون إلا بالقود قال : ممن ؟ قال الرسول : من خيط نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، وقد ألبثوه منبر دمشق . فقال علي : من يطلبون دم عثمان ؟ الله أني أبرأ من دم عثمان .

وكتب معاوية إلى علي يقول متهما إياه في التحريض على عثمان حتى قتل : " لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رحمة الله عليهم ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع عليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين " .

ويقول ابن حزم - في كتابه الملل والنحل : على أن معاوية لم يكن بالذي ينكر فضل علي واستحقاقه الخلافة ، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القصاص من قتلة عثمان على البيعة أولا ، ورأى نفسه أحق بطلب عثمان والكلام فيه (نيابة) عن ولد عثمان دون الحكم بن أبي العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك ، ولما كان قرابته من عثمان ، فهو المطالب ضمنا بالأخذ بثأره .

وهكذا تبنى معاوية نداء القصاص من قتلة عثمان شرطا لازما يسبق تقديم البيعة لعلي ، وقد أصر معاوية على هذا الشرط وهو يعلم تمام العلم أن الظروف الراهنة لن تمكن الخليفة من تنفيذ هذا الشرط لأنه لا طاقة بهؤلاء القتلة الآن ، حيث كان هؤلاء من أكثر القبائل الذين تمثل عشائرهم أغلب اتباع علي ومعظم جنده ، فلقد بعث معاوية مع أبي مسلم الخولاني - وكان من كبار التابعين الشاميين - إلى علي بن أبي طالب جاء فيه : "

وأخرى أنت بها ظنين – أي متهم – أيواؤك قتلة عثمان ، فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك ، فطلب إليه على أن يلقاه في المسجد غدا ، فدخل عليه أبو مسلم فإذا بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبثوا السلاح ، وهم ينادون كلنا قتلة عثمان ، فقال أبو مسلم لعلي أني لأرى قوما ما لك معهم أمر .

وأوضح بعد ذلك كله أن تمسك معاوية – بشرطة هذا لا يعني إلا الإصرار على رفض البيعة التي قدمها المسلمون جميعا لعلي عدا معاوية وأهل الشام ، وهذا يعني بالضرورة أن يعمل الخليفة على إدخال أهل الشام فيما دخل فيه المسلمون من البيعة حتى ولو أدى الأمر إلى القتال ، وكان هذا هو ما استقر عليه رأي علي ووافقه عليه معظم رجاله ، فأخذ يعد عدته ويتجهز للزحف نحو الشام لقتال هؤلاء الخارجين عليه وعلى إجماع الأمة وفيما هو كذلك إذا بأخبار جديدة تصله من مكة ؟ هذا ما نفصله فيما يلي من القول :

● **وقعة الجمل :~**

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في طريقها من مكة إلى المدينة عندما بلغها نبأ مقتل عثمان ، واجتماع أهل المدينة على مبايعة علي خليفة للمسلمين ، فقررت ألا تعود الى المدينة معلنة بذلك سخطها الشديد ورفضها القوي لما جرى ، وعادت إلى مكة وهي تردد : " قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه " وعلى الرغم من أن هناك روايات تتحدث عن عدم موافقة أم المؤمنين عائشة على سياسة عثمان في المرحلة الأخيرة من خلافته – فإن قتله رضي الله عنه – على تلك الصورة الأليمة كان يثير في نفس كل مسلم فيضا من مشاعر الأسى والحزن ، وأم المؤمنين – وقد كانت تعلم مكانة عثمان بين كبار الصحابة ومنزلته الأثيرة لدى النبي (ﷺ) جديرة بأن تهتز نفسها ألما وحزنا ويمتلئ صدرها غضبا من ذلك الذي وقع لعثمان ..

أما لماذا تقف موقف الرفض من خلافة علي ، وتتبنى نداء المطالبة بدم عثمان مع المطالبين فربما يكون ذلك راجعا إلى أنها ظنت أن أهل المدينة – ومنهم علي – قد تهاونوا في الدفاع عن الخليفة المقتول وحمايته حتى وقع ما وقع .

وما لبث طلحة والزبير أن استأذنا عليا في الخروج إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما ، فوصلاها وانضما إلى أم المؤمنين في ندائها ، وأعلنا أنهما قد بايعا علي بن أبي طالب مكرهين ، وما قد ابتعدا عنه فهما في حل من بيعته الآن ، وقد كان بنوا أميه خرجوا من المدينة عقب مقتل عثمان ولحقوا بمكة ، وفيهم مروان بن الحكم ، فتزعم هؤلاء جميعا المطالبين بدم الخليفة الشهيد ، والانتقام من قتلته أينما كانوا .

واقترحت أم المؤمنين على القوم أن يخرجوا إلى المدينة ، ولكن طلحة والزبير قد أقنعاها بأن البصرة أصلح لهم – في سبيل تحقيق هدفهم – من المدينة حيث كل من فيها أنصار الخليفة الجديد . وأخذ القوم طريقهم نحو البصرة مطالبين بالثأر من قتلة عثمان ، وخارجين عن طاعة الخليفة علي لأنهم لا يقرون ببيعته التي أكره بعضهم عليها ، وقد كان المفروض – وهم مجتمعون على هذا الرأي – أنهم متفقون على من سيتولى الأمر بعد علي لو أنهم استطاعوا تحقيق غرضهم من الخروج عليه لكن الأمر لم يكن كذلك مطلقا ، فقد روى الطبري : أن مروان بن الحكم أذن للصلاة حين فصل القوم من مكة ثم جاء حتى وقف عليهما – طلحه والزبير – فقال : أيكم أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير ، على أبي عبد الله . وقال محمد بن طلحه : على أبي محمد فأرسلت عائشة رضي الله عنها إلى مروان ، فقالت : مالك ؟ أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصل ابن أختي ، فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير حتى قدم البصرة ، فكان معاذ بن عبد الله يقول : والله لو ظفرنا لافتتنا ما خلى الزبير بين طلحه والأمر ، ولا خلى طلحه بين الزبير والأمر ..

كانت أنباء هذا الزحف هي التي وصلت أمير المؤمنين من مكة ، فرأى أن يسارع ليوقف زحفهم ويتدارك أمرهم قبل أن يستفحل ، وذلك حتى يستطيع مواجهة معاوية بجهة

واحدة خالية من الشروخ التي تضعف قوته وتوهن عزم جنده . وهكذا أجل زحفــه نحــو الشام حتى ينتهي من أمر طلحه والزبير وأم المؤمنين وأنصارهم لكنه لم يتمكن من اللحاق بهم قبل وصولهم إلى البصرة ، التي تمكنوا من السيطرة عليها وإخراج والبيــها عثمــان بن حنيف منها بعد جلدة وإيذائه ، فأنضم إليهم الكثير من أهل البصرة في المطالبــة بــدم عثمان وتفاقم الأمر حيث أصبحوا ثلاثين ألفــا أفعمــت صدورهــم بــالغيظ مــن قتلــة أمير المؤمنين ، وأفلح زعمائهم : طلحه والزبير في إقناعهم بأن الخليفة الجديد قــد كــان من المحرضين على عثمان ، وأنه يضم هؤلاء القتلة إلى صفوف جنده الذين بلغ عددهــم يومئذ عشرين ألفا من الرجال يرى أكثرهم أنهم علـــى الحــق مــع أمــير المؤمنيــن ، ويرى بعضهم – وهم الثائرون على عثمان – أن استمرار هـــذا الاضطــراب والشــقاق بين أبناء الأمة هو الذي سيضيع معالم جريمتهم وينسي الناس أمرهــــم ، وهكــذا التقــى المسلمون وجها لوجه وتحفزوا لقتال بعضهم بعضا .

ولم يعدم المسلمون في هذا الموقف العصيب وجود رجال زوي عزم ورأي ســديد قاموا بدور محمود في بذل النصح للفريقين وإحلال الصلح بينهما محل السيف فقد نجــح القعقاع بن عمرو التميمي في إقناع وطلحه والزبير بضرورة الوصول إلى حــل ســلمي تحقن به دماء المسلمين وتعود به الأمة إلى وحدتها وجماعتها ، يوم الجمل : خرج الزبـير على فرسه وعليه سلاح ، فقيل لعلي : هذا الزبير ، قال : أما أنه أحرى الرجلين إن نكـر الله أن يذكره وخرج طلحه ، فخرج إليهما علي ، ودنى منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم ، فذكرهم بالله ورسوله (ﷺ) وبالبيعه التي بذلاها له ، وتبرأ أمامهما من دم عثمان ولعــن قاتليه ، فرضي الزبير وأقسم ألا يقاتله أبدا ، وسكت طلحه ، وعاد كل منهما إلى عسـكرة واستبشرت جموع الناس هنا وهناك بذلك وأملوا أن يتم الصلح بين المسلمين .

وتجمع الروايات على أن الذي يتحمل وزر اشتراك الزبير في الحرب بعــد هــذا القسم إنما هو أبنه عبد الله ، الذي ما ان سمع من أبيه هذه المقالة حتى أستبد بــه الغيـظ وتكلم بكلام يثير الحمية في نفس أبيه ثم أتى بغلام له ليعتقه أبوه كفارة عن يمينــه وفــي

معسكر علي كان قتلة عثمان أتعس الناس وأشقاهم بتلك المبادرات السلمية من القعقاع ومن علي ، لأنه لو تم هذا الصلح فسيكون على حساب دمائهم ، فباتوا ليلتهم يتشـــاورون فـــي الأمر وانتهى رأيهم إلى العمل على إفساد تلك المساعي وإشعال نيران الحرب .

وبدأت المفاوضات بين رؤساء الفريقين لإتمام الصلح ، فتسلل أتباع ابن سبأ فـــي الظلام وهاجما جند البصرة الذين تمكنوا من ردهم على أعقابهم إلى معسكرهم فكانت جليه سمعها علي فسأل عنها ، فقيل له كذبا ، إن جند البصرة قد باغتوهم ، فلم يصبح الناس إلا وقد استعرت بينهم نار الحرب الطاحنة ، واشتعلت الفتنه جحيما في يوم مشهود عرف فـي التاريخ بيوم الجمل ، حيث خرجت فيه أم المؤمنين عائشة في هودج قد جلل بالحديد يحيط به جموع من خيرة جند البصرة ، دافعوا عن أم المؤمنين في بسالة نادرة ، فمنعوا كل من أراد الوصول إليها من جند علي ، فلما رأى أمير المؤمنين كثرة عدد القتلى حول الجمـــل أرسل إلية من عقره ، ثم اشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل بين الرجال ، حتى انجلـــت هذه الموقعة المشئومة ، عن خسارة هائلة للمسلمين تقدر بعشرة آلاف رجل ، بينهم طلحـه والزبير كما تمخضت عن هزيمة رجالهما ، وعودة البصرة مره أخرى إلى طاعة علي أما السيدة عائشة فقد أكرمها أمير المؤمنين وعاملها بما هي جديرة به من التوقير والإجـلال ، وزارها في البيت الذي نزلت فيه بالبصرة عقب انتهاء الحرب ، وأمر لها براحلة وزودهـا بكل ما تحتاج إليه في سفرها إلى مكة التي قررت أن تعود إليها . ثم ودعها لدى ســـفرها في غرة شهر رجب من سنة ٣٦ هجرية .

وكان موقف أمير المؤمنين هذا من السيدة عائشة – رضي الله عنها – طبيعيا جـدا لا غرابة فيه ولا مبعث للدهشة منه ، فعلى الرغم من اختلافها معه لكنها قبل ذلـــك زوج رسول الله ﷺ وأم المؤمنين جميعا ، ثم ان التقـــاليد الإســـلامية والعربيـــة تنـهي عـن قتال النساء أو التعرض لهن بالأذى ، فما بالنا إذا كانت هذه السيدة هي أم المؤمنين عائشة ذات المكانة الرفيعة في الإسلام .. ؟

ومما لا شك فيه أن مسؤولية هذه الحرب عامة في الفريقين يتحملها كلاهما بما كان منه من تصرفات جانبها الصواب ، وتفسيرات لمواقف الطرف الآخر كانت نتيجتها تلك الموقعة التي سهلت على المسلمين أمر الاقتتال وحمل السلاح في وجوه بعضهم ، ففتحت الباب أمام شر مستطير وكانت بداية لمعارك قادمة اصطلى بنارها عشرات الألوف من المسلمين الذين ذهبت أرواحهم في صفين ، والنهروان ، ومصر ، وغيرها .

• **الموقف بعد الجمل** :~

على الرغم من أن موقعة الجمل هذه كانت بداية مشئومة افتتحت بها خلافة علي فإن الموقف عقبها كان على النحو التالي : انتظم له أمر العراق بمصرية الكوفة والبصرة ، ومصر ، واليمن ، والبحرين ، وعمان ، واليمامة ، وفارس ، وخراسان ، والحجاز ، أي أن معظم أنحاء الدولة كان معه طائعا له ، فأما الشام والجزيرة وثغورها فكانت لمعاوية الذي رفض البيعة ، ورفع شعار المطالبة بدم عثمان ، وعمل – بكل حيلة لديه – على إذكاء الإحساس بأن عليا شارك في قتل عثمان ، فتابعه على ذلك أهل الشام جميعا وبايعوه على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فكانوا دائما طوع بنانه ورهن إشارته ، وقد اشتد ساعد معاوية بعدما اتفق مع عمروا بن العاص على أن يسيرا يدا واحدة في المطالبة بدم عثمان ، وكتب بينهما بذلك كتابا ببيت المقدس تعاهدا فيه على التناصر والتناصح والإخلاص في الأمر ، فإذا فتحت مصر لهما فإن ولايتها لعمروا حياته كلها لا تنزع منه أبدا .

أما أمير المؤمنين فقد أتخذ ثلاثة قرارات سياسية إدارية في سبيل تنظيم شئون الدولة وتأكيد سلطانه عليها ، وكذلك تمهيدا وإعدادا للقاء لابد منه بينه وبين خصمه المتربص في الشام معاوية بن أبي سفيان .

فكان القرار الأول هو اتخاذ مدينة الكوفة – بالعراق – عاصمة لخلافته بدلا من المدينة التي ودعت منذ ذلك الحين صفتها وأهميتها السياسية كمقر لرئاسة الدولة الإسلامية ، على أن هذا القرار الذي أتخذه الخليفة الرابع ونفذه يؤكد أن معظم مؤيدي علي كانوا

يتمركزون في العراق ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الكوفة أقرب الى الشام حيث يوشك الصدام أن يقع بينه وبين أهله الذين أطاعوا معاوية ورفضوا بيعته بالخلافة .

وتمثل القرار الثاني في تولية عبد الله بن عباس إمارة البصرة على أن يلي أمر الخراج فيها زياد بن أبي سفيان – وهو أخو معاوية لأبية – ، ولا ريب في أن أمير المؤمنين قد حالفه التوفيق في هذا القرار ، فقد كانت البصرة – في ذلك العصر – مدينة هامة من الناحيتين السياسية والعسكرية فهي إذن جديرة بأن يليها والي كفء يتمتع بسداد الرأي والبصيرة والحكمة والعلم كابن عباس ، فإذا ما كان معاونه هو زياد بن أبي سفيان – الذي كان أحد دهاة العرب المعدودين – فلابد من الاعتراف بحنكة أمير المؤمنين وحسن تأتيه للأمور .

أما القرار الثالث فمتصل بمصر ، ومصر كولاية إسلامية تتمتع بأهمية بالغة قدرها الخلفاء والأمراء المسلمون منذ فتحها عمروا بن العاص وقد كانت موضع اهتمام علي الشديد ، فأختار لها أكفأ رجاله وأعقلهم وأرجحهم رأيا وبعثة واليا عليها ، هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، وزوده بكتاب موجه إلى أهلها نرى أن نثبته هنا كنموذج لسياسة الخلفاء الراشدين في مخاطبة الأمة ومعالجة أمور الدولة ، يقول هذا الكتاب :

"بسم الله الرحمن الرحيم": من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين إلى المسلمين . سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإن الله عز وجل – بحسن صنعه وتقديره وتدبيره – اختار الإسلام دينا لنفسه وملائكته ورسله ، وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده ، وخص به من انتخب من خلقه ن فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الأمة ، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمدا (ﷺ) ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة ، لكيما يهتدوا ، وجمعهم لكيما يتفرقوا ، وزكاهم لكيما يتطهروا ، ورفعهم لكيما يجوروا ، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته . ثم إن المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملا بالكتاب والسنة ، وأحسنا السيرة ، ولم يعدوا السنة ، ثم توفاهما الله

عز وجل ، رضي الله عنهما ثم ولى بعدهما وال فأحث أحداثا ، فوجدت الأمة علية مقـــالا فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ، ثم جاءوني فبايعوني فاســتهدى الله عــز وجــل بالــهدى ، واستعينه على التقوى ، ألا وغن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رســـوله ﷺ ، والقيــام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته ، والنصح لكم بالغيب والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وقد بعثت إليكم قيس بن سعد ابن عباده أميرا ، فوازروه وكانفوه ، وأعينوه على الحــق ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم ، والشدة على مريبكم ، والرفق بعوامكم وخواصكـــم ، وهو ممن أرضى هديه .

وأرجو صلاحه ونصيحته . أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا ذاكيا ، وثوابا جزيلا ، ورحمة واسعة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد استفتح قيس ولايته على مصر بخطاب قصير قال فيه – بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله – : " الحمد لله الذي جاء بالحق ، وأمات الباطل ، وكبت الظــالمين ، أيها الناس إنا قد بايعنا خير ما نعلم بعد محمد نبينا (ﷺ) فقوموا أيها الناس فبايعوا علـــى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ﷺ)، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك ، فلا بيعة لنا عليكم " فقام الناس فبايعوا ، واستقامت له مصر .

● **التمهيد لصفيـن** :~

وكان فى قدوم قيس إلى مصر ، خطر كبير على معاوية الذى ما برح يعد العـدة ، ويجهز نفسه وأهل الشام لمنازلة على فى معركة سوف تكون هائلة وقاسية ، فكان معاويـة يخشى إن هو توجه للقاء على ناحية العراق أن يطبق عليه من الخلف – من ناحية مصــر – المصريون بقيادة أميرهم قيس بن سعد .

ولذلك فقد اجتهد معاوية فى أن يضم قيسا إلى صفه بكل ما وسعته الحيلة ، فيكسبه – وهو الذي يعدل عنه مائة ألف رجل – ويكسب مصر معه ، فيؤمن ظـــهره إذا قــامت الحرب ، ولم تفلح إغراءات معاوية فى تحقيق هذا الهدف الثمين . وظل قيس على ولاتـــه

التام وإخلاصه الكامل لأمير المؤمنين ، ويئس معاوية تماما من ضمه إلى جانبه عندما وصلته الرسالة التالية من قيس :

" بسم الله الرحمن الرحيم : من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبى سفيان ،أما بعد ، فإن العجب من إعترارك بي ، وطمعك فى ، واستسقاطك رأيي ، أتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة (يقصد بذاك عليا) وتأمرني بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأما قولك : أني مالئ عليك مصر خيلا ورجلا ، فو الله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك : إنك لذو جد ، والسلام " .

وإذ قد فشل معاوية فى مسعاه هذا ، عول على أن يفسد ما بين قيس وعلى فأشاع بين أهل الشام : أن قيس بن سعد من شيعته ، وأن نصيحته تأتيه من مصر وأنه يحسن معاملة العثمانيين فيها ، فنقلت هذه الإشاعة إلى أمير المؤمنين فى الكوفة عن طريق جواسيسه الموجودين فى الشام ، فلم يصدق على ذلك ، ولكن محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر بن أبى طالب ، ألحا عليه فى اختيار قيس ، بأن يطلب منه محاربة العثمانيين من أهل مصر الذين إعتزلوا بمدينة خربتا ، فكتب إليه الخليفة بذلك ، فأبى قيس بن سعد أن يقاتلهم ، وأبى على إلا قتالهم ، فكتب إليه قيس " إن كنت تتهمنى فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيرى " فعزله ، وولى مكانه محمد ابن أبى بكر ، الذي لم يستطع الاحتفاظ بولايته طويلا ، فتمكن معاوية وحليفه عمرو ابن العاص من انتزاعها منه وقتله فى عام ٣٨هجرية . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل قيس ابن سعد على إخلاصه لعلى واشترك معه فى موقعة صفين بعد أن تصافيا وتأكد الخليفة من أنها كانت حيلة من معاوية للتفريق بينهما .

ثم وجه أمير المؤمنين أحد كبار الصحابة وهو جرير بن عبد الله البجلى رسولا إلى معاوية وبعث معه بكتاب إليه يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ، ونكث طلحة والزبير ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته ، فلما

قدم عليه جرير ماطله واستنظره ، حتى يرى بنفسه التفاف أهل الشام حول معاوية ، والحماس الذي تمتلئ به صدورهم شوقا إلى الأخذ بثأر عثمان من قتلته الذين سكت عنهم على وأصبحوا من جنده ، وقد أدخل معاوية وعمر وبن العاص فى روعهم أن عليا قد حرض على قتل عثمان وأوى إليه قتلته ، فهو المطالب بهذا الثأر أو على الأقل بتسليم هؤلاء القتلة إلى معاوية ليقتلهم قصاصا .

رأى جرير كل ذلك ثم عاد إلى الكوفة ليخبر أمير المؤمنين به دون أن يحمل من معاوية ردا على كتابه ، غير أنه أكد لعلى إصرار معاوية وجنده على قتاله ، ولم يكن أمام على إلا أن يتجهز ويعد عدته للخروج للقاء خصمه الذي يتربص به فى الشام ، والذي يظل يهيئ الناس ويجمع الأنصار ضده ويوغر صدورهم عليه ، بل ويحاول تشكيك أصحاب على فيه ، ويصطنع الحيل لتفريق جبهته ، ويتخذ من معركة الجمل دليلا ومدخلا إلى ذلك كله ، فيقول عمرو بن العاص فى ذلك : إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، وفلوا حدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلى ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل .

• موقعة صفين :~

خرج أمير المؤمنين إلى الشام فى تسعين ألفا من الجند ، فى أواخر شوال من سنة ٣٦هجرية وذلك للقاء معاوية بعد أن أعذر إليه وكاتبه وطلب بيعته فلم يستجب له ، وخرج معاوية قاصدا العراق فى خمسة وثمانين ألفا من أهل الشام للقاء على وجيشه ، فالتقى الجمعان فى صفين على نهر الفرات ، ولم يقتتلا فى أول الأمر بل تبودلت البعوث والرسل بين على ومعاوية ، غير أنها لم تفلح فى إصلاح ذات بينهما ولم تؤدإلى تخفيف حدة التوتر الذى نشأ عن وقوف الجيشين المتأهبين أحدهما في مواجهي الأخر ، فكانت مناوشات ومبارزات فردية لم تصل إلى حد الحرب الجماعية الشاملة ، فلما كان شهر المحرم من سنة ٣٧هجرية توقف الفريقان تماما عن تلك المناوشات ، وكانت محاولات أخرى لحل هذا النزاع الخطير لكنها لم تكن أحسن حالا من سابقتها ، فازداد التوتر بين الفريقين واشتد

الخطب على الناس حينما انتهى المحرم حيث بدأت معركة صفين الرهيبة فى اليوم الأول من شهر صفر سنة ٣٧هجرية .

دارت رحى الحرب بين الفريقين شديدة طاحنة ستة أيام كاملة حاول فيها كلاهما أن يحقق الفوز لنفسه ويجعل الدائرة على خصمه دون أن يتمكن أحدهما من الوصول إلى هذا الهدف ، وعلى الرغم من اشتراك أمير المؤمنين بنفسه فى الحرب ، ويقين جنده بأنهم معه على الحق يقاتلون خارجا عن طاعة أمير المؤمنين ، فإن استماتة أهل الشام وعزيمتهم قد مكنتهم من ملاقات العراقيين شدة وقوة بقوة ، وفى اليوم السابع حمى وطيس المعركة ، واقتتل الناس قتالا لم يعرفه المسلمون من قبل ضراوة وعنفا ، زاد منهما قتل الصحابي الجليل عمار بن ياسر ، الذي روى أن النبي ﷺ كان قد بشره بأنه ستقتله الفئة الباغية ، وذلك عندما اشترك مع المسلمين فى بناء مسجد المدينة فكان وحده يحمل لبنتين بينما يحمل بقية الصحابة لبنة ...

فقتل عمار إذا أشتغل حماس جند علي لأنهم رأوا فى مقتله وهو منهم دليلا قويا على سلامة موقفهم وسلامة موقفهم أمير المؤمنين الذي يقاتلون لنصرته ، وبالتالي فإن خصمهم معتد يجب رده إلى الحق أو القضاء عليه إن أبى . كما أن كثرين من أهل الشام الذين كانوا يعلمون بحديث النبي لعمار قد تبين لهم أنهم بذلك ليسوا على الحق والصواب بل إنهم الفئة الباغية ، فامتنعوا عن مباشرة القتال ، فأسرع معاوية بعلاج الموقف الخطير الذى يتعرض له جيشه ، فهتف بهؤلاء الممتنعين عن القتال قائلا " ما لكم تخاذلتم ؟ إنما قتل عمار من أرسله إلينا ، وإنما دفعناه عن أنفسنا " .

وقاد الأشتر – وهو من أبرز جنود علي وأعظمهم بلاء فى صفين – حملة صادقة على جيش معاوية ، حتى استطاع هو ومجموعته الاقتراب من قبة معاوية ، الذي أوشك أن يترك ميدان المعركة لكن حياءه قد منعه من ذلك فتوقف ، وهو يرى ببصيرته أن خصمه يوشك أن يتم له النصر العظيم فى هذه الموقعة الهائلة ، حينئذ هتف بصاحبه عمرو بن العاص أن يعمل على إنقاذ الموقف ، فأشار عليه برفع المصاحف على أسنة

الرماح وأن ينادى الناس بتحكيم كتاب الله بين الفريقين . وكان ذلك فتوقف القتال . جاء في كتاب " الإمامة والسياسة " لابن قتيبة قوله : وما كف القتال ، أيام صفين إلا لما أمر معاوية جماعته أن ينادوا في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة ، يقولون : " يا أبا الحسن ما الذى يعود إليك إن قتلتنا ؟ الله الله في البقية الباقية ، كتاب الله بيننا وبينكم " . ولا ريب في أن هذه خطة أبدعها عمرو فخدع بها معظم جند على الذي حاول جاهدا يبين لهم كيف خدعوا بها ، حين أوشك النصر أن يتم لهم ، لكنهم كانوا بئس الجند ساعتئذ فلم يستمعوا لقائدهم الذى قاتلوا من أجل الحق الذى يمثله ، فقالوا في صراحة " أجب يا على إلى كتاب الله عز وجل .. " فأجبر أمير المؤمنين على وقف القتال وقبل بالتحكيم كارها له تماما ، وقد قضت فكرة التحكيم بان يختار كل فريق رجلا يمثلهم فاختار أصحاب على أبا موسى الأشعرى ، ولم يكن ذلك رغبة أمير المؤمنين الذي رشح لهذه المهمة عبد الله بن عباس ، غير انه أكره كذلك على الموافقة على أبى موسى واختار أصحاب معاوية عمرو ابن العاص ممثلا لها ، ثم كتب عقد التحكيم ، على أن يكون القضاء والحكم في دوامة الجندل في رمضان من نفس العام ٣٧هجرية .

وهكذا انتهت موقعة صفين التى ذهب ضحيتها بسبعين ألفا من الرجال بينهم مئات من الصحابة ، وفيهم القراء والعلماء ، فكان مصاب الإسلام فيهم عظيما.

وهى بذلك تضاف إلى سابقتها – وقعة الجمل – حيث أخطأ المسلمون فيها بمحاربة بعضهم بعضا وإزهاق أرواحهم بأيديهم ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وإذ قد انتهت موقعة صفين على هذا النحو من المهادنة ووقف القتال تماما بين الفريقين فلقد كان موقف معاوية مختلفا عن موقف على ، ذلك إن أهل الشام قد رضوا عن صاحبهم وازدادوا به تعلقا ، فأصبحوا فريقين : شيعة على الذين ظلوا على الولاء له : والخوارج الذين رفضوا فكرة التحكيم ، وطلبوا من أمير المؤمنين عدم التقيد به والعودة إلى قتال معاوية ، فلما أبى على ذلك خرجوا عليه ولم يرجعوا معه إلى الكوفة ورفعوا لواء المعارضة له ولمعاوية لكنهم – كما سترى بعد – كانوا شوكة دامية في جنب على

وأصحابه ، حالوا بينه وبين التفرغ لمواجهة خصمه القوى فى الشام معاوية الذي بسبب الهدنة أعاد تنظيم صفوفه والتجهيز لما سوف تأتى به الأيام .

• **التحكيم** :~

قدم الطبري قصة التحكيم هكذا : إن عليا بعث أربعمائة رجل ، عليهم شريح بن هانئ الحارثى ، وبعث معاوية عبد الله بن عباس ، وهو يصلى بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الأشعرى معهم . وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام ، حتى توافوا بدومة الجندل ... وشهد جماعتهم تلك عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ... والمغيرة بن شعبة الثقفي ... والتقى الحكمان ، فأخذ عمرو بن العاص يقدم أبا موسى فى الكلام ، يقول : إنك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن منى فتكلم وأتكلم ، فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى كل شيء ، قصد – بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع على . قال : فنظر فى أمرهما وما اجتمعا عليه . فأراده عمرو على معاوية فأبى وأرادوه على ابنه فابى وأراد أبو موسى عمرا على عبد الله بن عمر فأبى عليه ، فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟ قال : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : فإن الرأي ما رأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال : يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق ، فتكلم أبو موسى فقال : إن رأيي ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . فقال عمرو : صدق وبر ، يا أبا موسى تقدم فتكلم . فتقدم أبا موسى ليتكلم فقال له ابن عباس : ويحك . والله إني لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه ليتكلم ، بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلم أنت بعده ، ولا امن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت فى الناس خالفك . فقال له : إنا قد اتفقنا .

فتقدم أبا موسى فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا فى هذه الأمة فلم نرى أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه ، وهو أن خلعت عليا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذه المرة فيولوا منهم من أحبوا

عليهم ، وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ، ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ما سمعتهم وخلع صاحبه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولى عثمان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه .

وكما كان رفع المصاحف والمطالبة بتحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين خديعة من عمرو انطلت على العراقيين ، فقد كانت هذه النتيجة – للتحكيم – بواسطة حيلة من عمرو أيضا – ولكن بذكاء كبير فيها – انطلت على أبي موسى في سهولة واضحة ، وقد صدم أبو موسى فيه بهذا الغدر من عمر فسبة وشتمه ، فرد علية عمرو فكثر السب والشتم بين الفريقين ، ثم انفضوا ، وعاد أهل الشام إلى معاوية – وقد اعتقدوا أنهم كسبوا الجولة فسلموا علي بالخلافة . ورجع أصحاب علي إلى الكوفة وهم أشد استمساكا به وتأييدا له وتفانيا في طاعته ، فلم تزدهم نتيجة التحكيم إلا قربا من علي وإيمانا بأحقيته بخلافة المسلمين وهؤلاء جميعا هم شيعته .

• **الخوارج :~**

وأما الفريق الآخر ممن كانوا من جند علي بصفين وانشقوا عليه بعد قبوله بالتحكيم وهم الخوارج ، أصبحوا الفريق الثالث الذي لا يعترف إلا بعلي وبمعاوية ، فلما جاءت نتيجة التحكيم طلبهم أمير المؤمنين بالعودة إلى صفوف جنده لكي يقاتلوا معاوية وأهل الشام جميعا ، فكان جوابهم له فاحشا إذ قالوا فيه : انك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء أن الله لا يحب الخائنين . فدعا عليهم علي ثم قال لهم : أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه ، وجهادي في سبيل الله ، أشهد على نفسي بالكفر ، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . ثم تركهم وانصرف عنهم .

• **موقعة النهروان** :~

ثم استنفر على الصحابة بالزحف إلى الشام مرة أخرى لقتال معاوية وجنده وإذا بهؤلاء الخوارج قد خرجوا على كل من عاداهم وحادوا عن الإسلام ، فعاثوا في الأرض ، واستحلوا ما حرم الله فقتلوا وسفكوا دماء بعض المسلمين ومثلوا بهم ، فكان لابد من الخلاص منهم قبل التوجه إلى الشام ، فأوفد إليهم علي رسولا ينهاهم عن هذا الفساد فقتلوه ، فتوجه إليهم بنفسه على رأس أربعة آلاف من رجاله ، وطالبهم أولا بتسليم قتلة عبد الله بن خباب صاحب النبي وامرأته حتى يقتص منهم ، فجاءوه بأنهم جميعا قتلوه ، وبأنهم يستحلون دماءكم أيضا ، ثم جرت محاورة بين علي وهؤلاء الخوارج كان من نتيجتها أن عاد الى رشده ثمانية آلاف رجل منهم وبقى على انشقاقه أربعة آلاف رجل ، فدخلوا في معركة خاسرة ضد أمير المؤمنين الذي تمكن مع رجاله من القضاء على تلك الفئة الباغية ولم يبقى منهم سوى بضعة أفراد ، كما أن القتلى من جند علي لم يزد عن سبعة أو ثمانية رجال ، وتعرف هذه الموقعة التي كانت في عام ٣٨ هجرية بموقعة النهروان الى الجنوب الشرقي من بغداد . على أن هؤلاء الرجال الذين نجوا من القتل يوم النهروان من الخوارج قدر لهم أن يتفرقوا في جهات شتى ليجدوا فيها بعض من يستمع إليهم فكانوا نواه لعديد من فرق الخوارج التي انتشرت هنا وهناك وظلت موجودة ردحا من الزمن ، وليس هنا مجال الحديث عن تاريخ الخوارج وفرقهم وآرائهم المختلفة .

• **المرحلة الأخيرة من خلافة علي** :~

إذا كانت خلافة علي بن أبي طالب قد أحاطت بها مشكلات وحاصرتها المتاعب وأنهكتها الحروب ، فإن الفترة التي أعقبت النهروان لا ريب كانت أعقد فترات هذه الخلافة وأشقها على الإطلاق ، وكانت كل الشواهد قاطعة الدلالة على أن أمر علي إلى انتهاء ، في الوقت الذي كان خصمة معاوية يجني ثمرات اجتماع الشاميين علية والتفافهم حولة ، ومن جهة أخرى تقر عينه بتطور الخلاف بين علي وأصحابه مما أتاح له أن يعمل على اقتطاع أجزاء كبرى من أقاليم الدولة التي كانت تابعة لعلي كمصر والحجاز واليمن

مما يستتبع بالضرورة أضعاف قوة أمير المؤمنين وازدياد قوة معاوية واتساع رقعة سيطرته الفعلية .

ذلك انه عقب انتهاء علي من أمر الخوارج في النهروان كان عليه أن يتوجه برجاله نحو الشام لحرب معاوية ، لكن ذلك لم يتم لماذا ؟ لقد خذله رجالة وتقاعسوا عن الخروج معه وتسللوا منسحبين من معسكرة في الكوفة فلم يبقى فيه إلا بعض كبار الناس ، فكانت إصابة علي في رجاله على هذا النحو أشد وأنكى .

قال الطبري : كان علي لما فرغ من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم ، قالوا : يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قصدا (يعني قطعا منكسرة) ، فأرجع إلى مصرنا (الكوفة) فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا ، عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا فأقبل حتى نزل النخيلة ، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وإن يقلوا زيادة نسائهم وأولادهم حتى يسيروا إلى عدوهم ، فأقاموا فيه أياما فثم تسللوا من معسكرهم ، فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك العسكر خاليا ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة وأنكسر علية رأيه في المسير .

كما يروي ابن سعد في كتابة " الطبقات الكبرى " عن محمد بن الحنفية بن على بن أبي طالب قوله : كان أبي يريد أن يغزوا معاوية وأهل الشام ، فجعل يعقد لوائه ، ثم يحلف لا يحله حتى يسير ، فيأبى علية الناس ، وينتشر رأيهم ، ويجبنون فيحله ، ويكفن عن يمينه ، فعل ذلك أربع مرات .

ونشط معاوية في شن الغارات على الولايات التي تخضع لسلطان علي ، حتى اقتصرت سيطرته على العراق وفارس دون غيرهما ، ولا يأبه رجال علي لما يصيب سلطان من ضعف وانتقاص فلا يتحركون ولا ينهضون للدفاع عنه وحمايته .

وهكذا أوقع به أصحابه وقعدوا به عن مواجهة خصمه معاوية الذي كـان رجالـة أطوع له من بنانه ، فكان علي يتمنى لو يقايض عشرة من جنده بواحد فقـط مـن جنـد معاوية ويعقد مقارنه بين رجاله وبين معاوية برجاله فيقول – بعد اسـتيلاء عمـرو بـن العاص على مصر وقتل محمد بن أبي بكر :

أو ليس عجيبا أن معاوية بدعوة الجفاه الضغام فيتبعونه بغير عطاء ، ويجيبونه في السنة مرتين وثلاث إلى أي وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولوا النهي وبقية الناس علـى معاوية ، وطائفة منكم على العطاء – يأخذون العطـاء – فتفرقـون عنـي وتعصونني وتخلفون علي .

وإذا موقف علي حرجا بتقلص سلطانه وتخاذل رجاله ، فلقد تحرج موقف معاويـة كذلك إذ انتهز الروم فرصة هذا النزاع الداخلي بين المسلمين ، وحاولوا الانقضاض علـى الحدود الإسلامية المتاخمة لهم في شمال الشام وغيرها ، فكان معاوية يهادنهم ويبذل لـهم إتاوة تكفيه شرهم إلى حين ، ولقي معاوية في هذا الصدد عنتا عظيما حتى كـانت سـنة أربعين للهجرة ، وفيها راسل معاوية عليا في شأن إنهاء حالة الحرب بينهما على أن يكون لعلي العراق . ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبة في سلطانة بجيش ولا غـارة ولا غزوة ، فقبل علي ذلك وتراضيا عليه . وأقام كل منهما على ما بيده من أقطار الدولة.

- **استشهاد علي كرم الله وجهة :~**

ولم يمر وقت طويل على عقد هذه المعاهدة حتى اجتمع ثلاثة رجال من الخـوارج هم عبد الرحمن بن الملجم ، والبراك بن عبد الله ، وعمر بن بكر . فتذاكروا أمر النـاس وأحوالهم وعابوا على ولاتهم سياستهم ، ثم تباكوا على قتلى النهروان وترحموا عليـهم ، وقالوا – بعضهم لبعض – ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا . إخواننا الذين كانوا دعاة النـاس لعبادة ربهم (هكذا يفتري هؤلاء الخوارج على ا لله كذبا) ، والذين كانوا لا يخافون فـي الله لومة لائم ، فلوا قتلنا أئمة الضلالة ، فأرحنا منهم ا لبلاد وثأرنا بهم أخواننا . فقال ابـن ملجم : أما أكفيكم علي بن أبي طالب ، وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبي

سفيان ، وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتوثقوا بالله على ذلك ، واتفقوا على أن يوم التنفيذ هو السابع عشر من رمضان هذا العام (٤٠ هجرية) .

فأما ابن ملجم فقد وافقت ضربته عليا بسيفه قضاء الله فلم يلبث حتى لحق بربه حين فاجئه وضربه لحظة خروجه منزلة لصلاة الفجر في المسجد الجامع على حين أخطأ البرك وعمرو صاحبيهما فلم يقتلا ، وهكذا قضي رضى الله عنه شهيدا بعد أن امتدت خلافته أربعة سنين وتسعة أشهر كاملة . وكانت سنه يوم وفاته ٦٣عاما .

ومن المفارقات العجيبة أن يكون مقتل هذا الرجل العظيم صاحب المجد الأول في الإسلام ذا أثر مباشر في التمهيد للاستقرار واستتاب الأمور في العالم الإسلامي بعد فترة ثقيلة من الفتن ، العامة التي أورثت أحقادا وخلفت ثارات وملأت نفوس الناس موجدة وغلا كبيرا . ولكن كيف كان ذلك ؟

● **خلافة الحسن بن علي «٤٠-٤١ هجرية» : ~**

بايع الناس الحسن بن على بالخلافة عقب وفاة علي وكان رجل سلم يتمنى لو تمكن من حقن دماء المسلمين ، فكره الحسن أن يقاتل معاوية ووضح اتجاهه إلى مسالمة خصم أبية لما كان يدركه من حقيقة أهل العراق الذين كانوا سبب ما لحق أباه في نزاعه مع معاوية ، فكان يعتقد صادقا ان هؤلاء الناس لا يتحقق بهم نصر ، ولا يوثق لهم بعهد ، ولا يعتز بهم قائد أو أمير . ولهذا كله ما لبث الحسن حتى تبادل ومعاوية الرسل في شأن تسليم الأمر ومبايعته بالخلافة على شروط حددها عند اجتماعهما بالكوفة في ربيع الأول من عام ٤١ هجرية الذي سمي بعام الجماعة لاجتماع المسلمين على خليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان بعد عهد طويل من الفرقة والتمزق أصيب فيه المسلمون بأشد البلاء . ولكنهم ما لبثوا حتى عادوا إلى الاعتصام بحبل الله المتين واستأنفوا مسيرة الفتح الإسلامي في عهد معاوية .

الفصـــل الـرابع

((الدولة الأمــــوية « ٤١ـ ١٣٢هـ | ٦٦١ـ ٧٤٩م))

• **النسب الأمــوى :~**

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،وكان أمية هذا ســيدا من سادات قريش فى الجاهلية . وذكر بعض المؤرخين أن العلاقة بين بنى هاشـم وبنـى أمية لم تكن على ما يرام قبل ظهور الإسلام ،ولما صارت النبوة فى بنى هاشــم أعلـت رسالة النبى (ﷺ) من مكانتهم فرجحت بذلك كفتهم على كافة أبنـــاء عمـــهم بنـــى أميـة ،وأستمر العداء بين الفريقين فى الإسلام .

وفى حقيقة الأمر فإن العداوة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس لم تكـــن قديمـــة ولا دموية منذ ميلادها بل هى نشأت بعد ذلك لأسباب قبلية وأخرى سياسية با إننا نجد رجـــال بنى عبد شمس فى جملة المعتدلين فى عداوة النبى (ﷺ) .

وعندما كانت قريش تستعد للخروج لمعركة بدر الكبرى كان من أبطنهم فى ذلـــك الحارث بن عامر وأمية بن خلف وعتبة وشيبة أبناء ربيعة .

ولم يكن أبو سفيان بن حرب ألد أعداء الإسلام من قريش وكان فى أمره معتـــدلا من النبى (ﷺ) وأمة الإسلام بعد الهجرة وخاصة بعد هزيمة الأحزاب أيام الخنـــدق فـــإن الرجل أقتنع بأن لا قبل لقريش بمحمد (ﷺ) والإسلام .

ولم يكن لأبى سفيان أثر فى مفاوضات الحديبية ،ولكنه يعود إلـــى ظـــهور قبيـــل فتح مكة حيث خرج إلى الرسول (ﷺ) بتحديد صلح الحديبية بعد انقطاعه ولم يكن لأبـــى سفيان يد فى الانقطاع وعندما لم يوفق فى تجديد العهد ، ورأى عزيمـــة الرســـول (ﷺ) على دخول مكة .

قام بناء على نصيحة من على بن أبى طالب بالإجازة لنفسه بين الناس ورسول الله لم يرفض هذه الإجازة وإن لم يقرها فأصبحت سارية تشمله وتشمل قريش ومكة ،وكافـــا

الرسول (ﷺ) أبا سفيان على صنيعه بأن جعل له كرامة ظاهرية وهى قوله « ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

وكانت بداية الكراهية بين بنى أمية وعلى بن أبى طالب أثناء موقعة بدر وما بعدها بسبب ما قتل وجرح فى ذلك اليوم فقد قتل وحده أربعة من بنى عبد شمس ونستطيع أن نلمس حقدهم عليه ما حل بعمه حمزة بن عبد المطلب .

كانت الخلافة فى عهد أبو بكر الصديق وعمر والسنوات الأولى من حكم عثمان إمامة ورياسة شورية ،ولكنه منذ منتصف خلافة عثمان وعلى الأخص فى بلاد الشام عندما سخطت الأمة على عثمان وأرادت عزله استمسك بها وتشعر فى أثناء النزاع بين عثمان ومخالفيه بأن قومه بنى أمية كانوا من خلفه – ظاهريا- وعندما قتل وقام بالأمر على بن أبى طالب لم يكونوا مستعدين للتخلى عن ما بلغوه من القوة والجاه والمال منذ أيام عمر . وعندما أصر على بن أبى طالب على عزلهم بدأت المعركة والخصومة الحقيقية التى تحولت نتيجة لذلك إلى خصومة ونزاعا على سلطان ومال وجاه وتحولت الخلافة إلى ملك وراثى .

وانحصرت الخلافة فى فرعين لبنى أمية هما فرع حرب بنى أمية ،وفرع أبى العاص بن أمية ،وأكثر الخلفاء من الفرع الثانى ،أما الفرع الأول فليس منه إلا معاوية وابنه يزيد وحفيده معاوية الثانى .

* أولا الصعوبات التى واجهت الامويين فى سبيل توطيد سلطان خلافتهم :

١) الخوارج :~

عرفت الخوارج بهذه التسمية لخروجهم على الخليفة على بن أبى طالب ،وبعد أن كانوا من أتباعه بسنن قبوله التحكيم ، كما عرفوا أيضا باسم "المحكمة" بمعنى المحكمين لكتاب الله القائلين (لا حكم إلا لله) وأمروا عليهم خارجيا يدعى عبد الله بن وهب الراسبى . وأقاموا فترة بحوراء بينهما وبين الكوفة نصف فرسخ – فدعوا بالحروية ،على أن الاسم الذى شاع إطلاقه على هؤلاء جميعا هو الخوارج .

ولما ولى معاوية أبن أبى سفيان أمر الخلافة سنة ٤١هـ ،واجهه خطر الخوارج ومعارضتهم القوية ضده ،لاعتقادهم أن معاوية لم يحصل على الخلافة برضاء وإجماع المسلمين ،فعملوا على مناوأة سلطته فى كل من الجوفة والبصرة ،لذلك نجد معاوية يولى زياد بن أبيه الصرة سنة ٤٥هـ للقضاء على الخوارج بها ،فأخذهم بالشدة والعنف حتى ضعفت شوكتهم ،وفى سنة ٥٣هـ أضاف معاوية لزياد الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ،وهكذا أمن معاوية شر أهل العراق ،ثم ولى عبيد الله بن زياد البصرة فظل يتعقبهم حتى قضى على كثير منهم .

على إننا نجد أن الأسلوب الذى أتبعه ولاه الأمويين فى العراق وهو أسلوب الشدة أدى أخر الأمر إلى خروج أهل العراق إلى مكة وينضمون إلى عبد الله بن الزبير الذى نجح فى استمالتهم إليه ،وبعد أنتهاء الحرب بين عبد الله بن الزبير ويزيد بن معاوية ،لجئوا إلى عبد الله يتأكدون من مبادئه فلما أيقنوا أنه ليس على رأيهم تركوه ورحلوا من مكة إلى العراق وركزوا نشاطهم فى البصرة وألحقوا الهزيمة بالأمويين سنة ٦٥هـ ،ومن لجأ أهل البصرة إلى شخصية عسكرية يمكنها قيادتهم لمحاربة الخوارج فالتقوا بالمهلب بن أبى صفرة ،فنهض لقتالهم فى عشرين ألفا من قبيلة الأزد وأهل البصرة فمضى ناحية الشرق يتبعهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما سنة ٦٦هـ ،انتهى بمقتل زعيمهم ،وأخذ فى مطاردتهم حتى ولى مصعب بن الزبير ولاية العراق فتولى أمر الخوارج وأستمر فى مطاردتهم ،إلا أنه لم يجد ذلك معهم سبيلا فاستعان مرة أخرى بالمهلب بن أبى صفرة الذى ثبت لقتالهم .

عندما استقرت الأمور فى يدى عبد الملك بن مروان ،اسند ولاية العراق للحجاج بن يوسف الذى استمال إليه المهلب وعهد إليه بحرب الخوارج فى كل من كرمان وطبرستان .

على أن الخوارج ما لبثوا أن استعادوا قوتهم بقيادة قطرى بن الفجاءة ، فواصلوا زحفهم فى اتجاه البصرة حتى أصبحوا يهددون المدينة نفسها وعاد المهلب بن أبى صفرة

إلى محاربتهم تنفيذا للرغبة عبد الملك بن مروان ،الذى طلب من أخيه بشر بعد أن أسند إليه ولاية البصرة ،أن يمد المهلب بجيش من أهالى هذه المدينة ،واستطاع المهلب بمعاونة الإمداد التى وصلت إليه من العراق فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى أن يطرد الأزارقة الذين يقودهم قطرى بن الفجاءة ،من فارس وكرمان وأرغم قطرى على الرحيل إلى طبرستان ولم يزل يتعقبهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة . وكافأه الحجاج على ذلك وولاه خراسان فى سنة ٧٨هـ .

ضعف شأن الخوارج بقية عهد عبد الملك ،وفى عهد ولديه الوليد وسلمان ،فلما ولى عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩هـ ،وأتبع سياسة طيبة مع الخوارج ،وعندما علم بخروج شوذب اليشكرى ،لم يشأ أن يحاربه ،وكاتبه يستفسر عن سبب خروجه ،ودعاه إلى مناظرته ،فأرسل شوذب اثنين من اتباعه ،استطاع عمر أن يستميلهما إليه وشهدا له بالحق

عاد الخوارج إلى الثورة فى خلافة هشام ،فخرج بهلول بن بشر الشيبانى بالموصل وهدد الكوفة ،فتعقبه عمال بنى أمية ومن بينهم خالد بن عبد الله القسرى ،حتى قضوا على حركته وقتلوه .

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ،تجددت ثورة الخوارج ،بزعامة الضحاك بن قيس الشيبانى ،فأستولى على الكوفة وواسط ،وأضاف إليه الموصل ،عندما استدعاه أهلها فى سنة ١٢٧هـ .

كان مروان مشغولا آنذاك بالتمكين لنفسه ضد المناوئين له فى بلاد الشام ،فلما فرغ منهم ،توجه لقتال الضحاك ،والتقى به فى كفر توتا وهى من أعمال ماردين فى سنة ١٢٨هـ ،حيث دارت معركة – انتهت بمقتل الضحاك ،وتتبع مروان من نجا من أصحابه ،حتى قضى عليهم فى العام التالى .

ولم تتوقف مناوأة الخوارج للخلافة الأموية بمقتل الضحاك ، فقد تولى قيادتهم حمزة الخارجي وبدأ نشاطه من مكة ،وانتصر على عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والى مكة والمدينة الذى هرب إلى الشام ،فدخل أبو حمزة الخارجى المدينة سنة ١٣٠هـ

،ومنها سار إلى الشام ،ولما علم مروان بن محمد بأمر انتصار الخوارج ،وعزمهم المسير إلى الشام ،أرسل إليهم جيشا قابلهم في وادى القرى وانزل بهم الهزيمة وقتل أبو حمزة وكثيرا من اتباعه ،وتبعهم حتى اليمن . كانت ثورة أبو حمزة الخارجي على الخلافة الأموية هى آخر ثورة للخوارج ضد السلطة المركزية في حضرة الخلافة الأموية .

٢) **الشيعة** :~

فإنه منذ مقتل عثمان ،ابتدأت تظهر نواة حزب جديد يناصر عليا ،اقتصر دعوته في بادئ الأمر على أحقية على في الخلافة ثم ضعف شأن شيعة على في العراق بعد مقتله ،لكنهم مع ذلك جاهروا بتذمرهم من الصلح الذى عقده الحسن مع معاوية وتنازل بمقتضاه عن حقه في الخلافة وازداد حنقهم على معاوية حين أقر سب على بن أبى طالب على المنابر وبخاصة في الكوفة .

اشتدت معارضة الشيعة للأمويين منذ ولى الحسين بن على رياسة الشيعة بعد وفاة أخيه الحسن سنة ٥١هـ ،وكان يرى أنه أحق المرشحين بالخلافة إذا أصبح الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية – فلما ولى يزيد بن معاوية ،امتنع الحسين عن مبايعته – وكان إذ ذاك في المدينة فخرج منها قاصدا مكة ومعه نساؤة وأهل بيته ،وفي مكة تلقى رسائل من أهل الكوفة يدعونه فيها للقدوم عيهم ليتعرف جقيقة نواياهم ،قالوا : "أنه ليس علينا أمام ،فأقتل ،لعل الله يجمعنا بك على الحق .

توالت رسائل أهل الكوفة إلى الحسين ،تستحثه على القدوم ،فلما اطمأن إلى تأييدهم ،أرسل بان عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ،ومعه كتاب يقول فيه "بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ،فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم ،على مثل ما قدمت على به رسلكم ،أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله ، فلعمرى ما الأمام إلا العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والدائن بدين الحق .

توجه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ،واستطاع بعد وقت قصير أن يجمع عدة آلاف من أهلها على بيعة الحسين ،ولم يستطع النعمان أبن بشير وإليها معه شيئا . وعندما بلغت هذه الأنباء إلى يزيد بدمشق ،عزل وإليه عن الكوفة وجعل مكانه عبيد الله بن زياد .وكان أول ما فعله عبيد الله ،بعد أن أضيفت إليه الكوفة أن وجد فى طلب مسلم بن عقيل ،إلى أن وقع فى يديه فقتله وبعث برأسه إلى يزيد .

تأكد الحسين من تأييد أهل الكوفة ،خصوصا وقد وصل إليه كتاب من ابن عمه قبيل مصرعه يقول فيه : أن الرائد لا يكذب أهله ،وقد بايعنى من أهل الكوفه ثمانية عشر ألف رجل ،فأقدم فإن جميع الناس معك ولا رأى لهم فى آل معاوية . فخرج الحسين من مكة إلى الكوفة يريد اللحاق بمسلم بن عقيل ولم يكن يعلم بما جرى له ،ولم يكد يعلم عبيد الله بن زياد باقتراب الحسين من الكوفة حتى أرسل قوة صغيرة لمنعه وتصدى له الحر بن يزيد التعبى لكن الحر عدل عن قتال الحسين وأنضم إليه ،وعاود بن زياد فأرسل جيشا آخر ،بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص ،وانتهى الأمر بقتل الحسين واتباعه بمكان يقال له كربلاء فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ وأرسلت رأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق ،ولم ينج من هذه المعركة إلا خمسة هم أبنه على زين العابدين وكان مريضا فلم يحضر المعركة وأخته السيدة زينب وأبنه عمر أيضا ،وأبنته فاطمة وسكينة .

كانت حادثة كربلاء سيئة الأثر على المسلمين ،فقد ترتب عليها ظهور شعور عدائى فى العراق وفارس ضد بنى أمية استغله أحفاد العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ﷺ) فى العمل على تقويض دعائم الخلافة الأموية .

رأى الشيعة بالكوفة بعد مقتل الحسين أنهم بحاجة لتنظيم أنفسهم ،فاجتمع نفر منهم وتذاكروا دعوتهم للحسين وعدم أغاثتهم له حتى قتل بالقرب منهم فى كربلاء وتزعمهم رجل يدعى سليمان بن صرد الخزاعى وظلت حركة هؤلاء النفر من الشيعة سرية حتى توفى يزيد بن معاوية – فأخذوا فى إظهار دعوتهم فساروا ذات ليلة إلى قبر الحسين وهناك أقاموا يوما وليلة وصاحوا طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين ولذلك

عرفوا فى التاريخ بالتوابين ساروا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد حيث التقوا بجيش الشام ،فدارت بين الفريقين معركة فى عين الوردة ،من أرض الجزيرة سنة ٦٥هـ انتهت بهزيمة الشيعة وقتل زعيمهم سليمان ابن صرد وعدد غير قليل منهم ،ثم رحلت فلولهم إلى الكوفة حيث ظلوا مقيمين بها إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة المختار بن عبيد الثقفى .

اتفق رأى التوابين بعد عودتهم من الكوفة على أن يكون المختار زعيما لهم ،فأخذ يحرضهم على النهوض للأخذ بثأر الحسين فأنضم إليهم بعض العرب وعدد كبير من الموالى وكان أغلبهم من القرى – كما أخذ البيعة لنفسه من أهالى الكوفة وشرع ينتقم من قتلة الحسين ،فأعد جيشا بقيادة إبراهيم بن مالك بن الأشتر لمحاربة عبيد الله بن زياد – وهو يومئذ بالموصل – مع فريق كبير من جيش الشام فلما التقى الجيشان على باب الموصل أنهزم جيش الشام وقتل عبيد الله بن زياد وكثير من كبار رجال الدولة الأموية وبذلك أخذ المختار ثأر الحسين كاملا ،وأرسل أبن زياد إلى ابن الزبير فى مكة .

اتخذت الحركة التى قام بها المختار فى الكوفة صفة دينية بجانب مظهرها السياسى على أثر انضواء الشيعة تحت زعامتهم وانضمام الموالى إليه فكون المختار فرقة شيعية من اتباعه تعرف بالمختارية أو الكيسانية إلى كيان رئيس حرس المختار .

أراد عبد الله بن الزبير أن يقضى على خطر المختار الذى أستفحل أمره فى الكوفة ،فأرسل إليه جيشا بقيادة أخيه مصعب ابن الزبير فى سنة ٦٧هـ وانضم إليه المهلب أبى صفرة فى جموع الأزد وألتقى الطرفان فأوقع بالمختار الهزيمة وقتله هو واتباعه .وبقتله خلص العراق لابن الزبير . والجدير بالذكر أن عبد الملك ابن مروان يرى كل هذه الأمور تدور أمام ناظريه دون أن يحرك ساكنا فقد ترك الزبيريين والتوابين يقتل بعضهم البعض ، وبعد انتصار الزبيريين تفرغ لهم ،وفى الوقت نفسه أمن حدود الشام مع الروم ،وجه جهوده وعسكره للقضاء على ابن الزبير .

وهدأت حركة الشيعة بقية عهد عبد الملك وعهد ولدية الوليد وسليمان ،فلما ولى عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩هـ ،أمر بالكف عن سب على بن أبى طالب على المنابر

،وجعل بدلا من ذلك قوله تعالى : "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينـهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون .

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك ،خرج عليه زيد بن على زين العـابدين بن الحسين بن على ، وكان يرى أنه أهل للخلافة ،فأنتهز فرصة الخلاف بينه وبين هشـام بن عبد الملك ،الذى عايره بأنه ابن أمه ،فدعا لنفسه وأوهمـه أهـل الكوفـة بنصـرة ، على الرغم من أن بعض أقاربه حذروه من وعودهم ،ولما تكـاثر عـدد أنصـار زيـد بالكوفة دعاهم للخروج ،فلم يستجيب له إلا عدد قليل ،لم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبيـن هزيمته وقتله سنة ١٢٢هـ .

٣) ثـورة عبد الله بن الزبير :-

عندما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لأبنه يزيد،عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ،وقد حذره معاوية من هؤلاء النفـر وخاصة من ابن الزبير وقال له : « وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغـك مراوغـة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه أربـا أربا واحقن دمـاء قومـك مـا اسـتطعت .ولمـا ولـى يزيـد بـن معاويـة الخلافـة ((٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م)) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته .

ولما غادر الحسين بن على مكة قاصدا الكوفة ،وقتل فى اليوم العاشر من المحـرم سنة ٦١هـ بكربلاء ،خلا الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سنة ٦١هـ وبايعـه أهل تهامة والحجاز .

وقد اشتد السخط فى المدينة المنورة على خلافة يزيد ،فأعلنوا خلعه وولـوا علـى أنفسهم عبد الله بن حنظلة ،وهكذا أصبح المبايعون بالخلافة ثلاثة : يزيد بن معاويـة فـى دمشق ،وعبد الله بن الزبير فى مكة ،وعبد الله بن حنظلة فى المدينة .

لم ير يزيد إزاء موقف أهل المدينة العدائى من خلافته بدا من أن يلجأ إلى الشـــدة ،فأرسل إلى المدينة جيشا من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرى دارت بينه وبين أهـل المدينة معركة هائلة عند جهة الحرة – وهى موضع بظاهر المدينة – أسفرت عن هزيمتهم

ولما فرغ مسلم بن عقبة المرى من المدينة ،وأخذ البيعة من كبار أهلها لـيزيد إراد الخروج إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير الذى كان إذ ذاك قد أخذ البيعة لنفسه بالخلافة ،لكن مسلم بن عقبة توفى فى الطريق فخلفه الحصين بن نصير السكونى الذى سار علـــى رأس الجيش الأموى حتى بلغ مكة وحاصرها بجيشه ورمى الكعبة بـــالمنجنيق وحرقوهــا بالنار حتى أصابها تلف شديد ،أما أصحاب عبد الله فتحصنوا فى البيت الحـــرام .وبينمــا القتال دائر بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد .فوقفت الحرب بين الفريقيــن . ثــم ولــى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد ،إلا أن مدة خلافته لم تطل فقيل أنه ملك أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر .

ولم تلبث الدعوة لأبن الزبير أن انتشرت فى سائر الأنحاء ،وأمتد ســـلطانه إلـــى العراق واليمن ومصر ،بل أن عرب الشام أنفسهم انقسموا إلى فريقين أحدهما مؤيد لأبـــن الزبير ،بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى وقبيلة قيس ،والآخر مؤيد أمية وقبيلة كلب .

استطاع بنو أمية تدارك الأمر ،بعد وفاة معاوية بن يزيد فعقدوا مؤتمر فى الجابيــة قرب دمشق ،أسفر عن البيعة لمروان ابن الحكم خليفة للمسلمين وكان ذلك ســنة ٦٤هـــــ ،ولما بويع بالخلافة ،كان عليه أن يقضى على معارضة ابن الزبير . أما فى الشــــام فقــد انتصر على الضحاك بن قيس عامل عبد الله بن الزبير فى موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عــــامل ابـــن الزبير (عبد الرحمن بن عتبة بن حجرم) وتمت له البيعة من أهلها ،وعاد مروان إلى الشام ،بعد أن أستخلف على مصر ولده عبد العزيز . ثم أعد مروان حملتيـــن ،أحدهمـــا إلـــى الحجاز ،حيث عبد الله بن الزبير ،والأخرى إلى العراق حيث أخيه مصعب ،على أن حملة

الحجاز فشلت في دخول المدينة ،كما أن حملة العراق لم تقم بشئ يذكر فى حياة مـــروان لأن الموت عاجله سنة « ٦٥هـ/٦٨٥م » .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافـــة « ٦٥-٨٦هـــ/٦٨٥-٧٠٥م » وجـــه اهتمامه إلى القضاء على نفوذ ابن الزبير فى كل من بلاد العراق والحجاز . فتغلـــب أولا على أخيه مصعب بالكوفة وعهد إلى الحجاج بن يوسف الثقفى بالمسير إلى مكة على رأس حملة من جند الشام لإخماد حركة عبد الله بن الزبير ،فلما دخلها فى ذى القعدة مـــن ســـنة ٧٢هـــ ،شرع فى حصارها ونصب المجانيق على جبل أبى قبيس فى مكة ورمى الكعبـــة بها ،واعتصم ابن الزبير وأصحابه بالكعبة ،واستمر الحصار ستة اشهر فلما اشتد الأمـــر على أهلها ،خرجوا يطلبون الأمان من الحجاج فأمنهم ،وامتنع ابن الزبير ،وأصـــر علـــى مواصلة القتال ،حتى بعد أن أستسلم معظم أصحابه ومنهم ولداه حمزة وحبيب . وعندمـــا اشتدت مقاساة ابن الزبير ،توجه إلى أمه وكانت قد طعنت فى السن وكف بصرها -يسألها ماذا يفعل ، وقد أقترح الحجاج الأمان له ،لكنها حفزته على مواصلة القتال مادام يؤمن بعد الة قضيته ،فقال : يا أماه إنى أخاف أن قتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى "قالت" : « يا بنـــى أن الشاه لا تتألم للسلخ إذا ذبحت» .

وكانت نتيجة المعركة معروفة ،فقد أقتحم أهل الشام الحرم فى جمادى الآخرة مـــن سنة ٧٣هـــ ،وظل عبد الله بن الزبير يقاتلهم حتى قتل ،وأخذ الحجاج بيعة أهل مكة ،ثـــم أسندت إليه ولاية الحجاز ،وأضيفت إليه اليمن واليمامة .

* ثانيا - عوامل ضعف الدولة الاموية وانهيارها :-

فى الوقت الذى كانت فيه حدود الدولة الأموية تتسع وتصبح فى حاجة إلى حكومـــة قوية وخلفاء أشداء ،ضعف الخلفاء وانصرفوا عن شئون الحكم ،وهذا مما أدى إلى ضعـــف الدولة وبالتالى سقوطها .

ويمكن أجمال الأسباب التى أدت إلى ضعف الدولة الأموية ومن ثم سقوطها فيما يلى

١) تولية خلفاء بنى أمية العهد لأكثر من واحد :-

كان من الأمور التى أستحدثها خلفاء بنى أمية اختيارهم ولى العهد فـــى حياتـــهم ،فضلا عن توليتهم العهد لأكثر من واحد مما ساعد على إثارة الخلافات بين أفراد البيـــت الأموى نفسه ،والتى كان لها الأثر السئ فى بعثرة الجهد وتمزيق القـــوة ،حتـــى قيـــل أن الخلافة فى عهد بنى أمية تحولت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريـــث ،ذلـــك أن معاوية استطاع أثناء تقلده ولاية الشام (من قبل عمر بن الخطاب) أن يقف على كثير مـــن نظم الحكم عند الرومان ،الذين كانوا يأخذوا بنظام وراثة العرش .وبذلك خرج الأمويـيـــن فى حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذى ساد فى حكم الخلفاء الراشدين ،وبذلـــك أصبح معاوية أول من سن سنة التوريث فى محاولته للحصول على البيعة ليزيد ،وصارت هذه عادة يسير عليها الخلفاء بعده ،وكان لهذه السياسة أثرها فى ضعف الأمويين ،فإنه لـــم يكد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ،حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العـــهد وإحلال أحد أولاده مكانه . ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن هذا النزاع لم يقتصر على أفـــراد البيت الأموى ،بل تعداهم إلى القواد والعمال ،حتى إذا ولى الثانى الخلافة أنتقم من انصـــار الخليفة الذى قبله وأقصاهم عن مناصب الدولة ،مما أدى إلى عدم استقرار الأمـــــور فـــى الدولة الأموية فضلا عن إثارة النـــزاع .

كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعه لأثنين من أولاده "وأتبـــع عبد الملك بن مروان سنة أبيه ،فعمل على خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ،وتوليـــة أبنيه الوليد وسليمان ،لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة ،وسار الوليد مسيرة أبيه فى هذه السياسة التى أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت ،فقـــد عمـــل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لأبنه عبد العزيز فكتب الوليد إلى عماله ودعـــا الناس إلى ذلك فلم يجبه سوى الحجاج بن يوسف والى العراق ،وقتيبة بـــن مسلم والـــى خراسان ومحمد بن القاسم والى السند ،مما اثار روح الحقد والكراهية بين سليمان وبيـــن أخيه الوليد ،ولما ولى سليمان الخلافة بعد وفاة الوليد سنة «٩٦هـ/٧١٤م» ،أنتقـــم ممـــن

ساعدوا الوليد على خلعه ،فأنتقم من آل الحجاج شر انتقام نظرا لوفاته قبل أن يلي الخلافة ،وكذلك فعل مع قتيبة ،ومحمد بن القاسم .

٢) التعصب للعنصر العربي :~

ساوى الإسلام بين الناس على اختلاف الوانهم وأجناسهم قال تعالى : « **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،إن الله عليم خبير.** » ووجه الرسول (ﷺ) إلى المسلمين في خطبته في حجة الوداع تذكرة موعظة بهذه المساواة : « أيها الناس أنما المؤمنون أخوة ،إن ربكم واحد ،كلكم لآدم وآدم من تراب أن أكرمكم عند الله أتقاكم ،ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى .

غير أن بني أمية لم يحققوا مبدأ المساواة ،بل انحازوا إلى العرب وأساءوا معاملة الموالي (وهذه التسمية كانت تطلق على من دخل في الإسلام من غير العرب وألحق بالقبائل العربية) وحرموهم من العطاء ،ثم تعرضوا لاضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفي أثناء ولايته على العراق في خلافة عبد الملك بن مروان فلم يساويهم بالعرب في المعاملة بل أرغم حديثي العهد بالإسلام على دفع الجزية ،كما فرض الخراج على الأرض التي أسلم أهلها طواعية .

وكان الموالي يحاربون إلى جانب العرب من أجل الإسلام ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى أنفسهم فإذا كان الموالي في الجيش فأنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على الخيل . وهم وأن كانوا يتقاضون رزقا ويأخذون نصيبا في الغنيمة فأنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة فلم يكونوا مقيدين في الديوان (سجل المقاتلة) الذين تفرض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية ،فإنهم كانوا يسمعون "أهل القرى" تمييزا لهم عن "أهل القبائل" ومع أنهم كانوا مسلمين فأنهم لم تسقط عنهم الجزية .

كانت الدولة الأموية دولة عربية لحما ودما ،ومن ثم تعصب الأمويـــون للعـــرب والعربية وأخذوا ينظرون إلى الموالى نظرة الاحتقار والازدراء ،مما أيقـــظ الفتنـــة بيـــم المسلمين وبعث روح الشعوبية فى الإسلام ،رغم أنهم يؤلفون جزاء كبيرا من سكان الدولة الإسلامية ،فاندفعوا إلى إشارة النقمة وتأييد أى حركة تقاوم الدولة الأموية ،فأجمع هـــؤلاء أمرهم وثاروا على الأمويين فى عهد عبد الملك بن مروان فأرسل إليهم الحجاج بن يوسف الثقفى ليقضى على حركاتهم . ولما آلت الخلافة إلى سليمان ابن عبد الملك أحسن معاملـــة الموالى ،فاطمأنت نفوسهم فى عهده . كما منحهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الحقوق التى كان يتمتع بها المسلمون من العرب وحدهم وأعفاهم من دفع الجزية ،كما جعل لهم نصيبـــا من الأعطيات السنوية . ثم تبدلت الحال بعد وفاته ،فعاد الأمويين يفرقون فى المعاملة بيـــن العرب والموالى ،فأثارت هذه المعاملة حنق الموالى وسخطهم على الأمويين فأستغل دعـــاة العباسيين فرصة استياء الموالى من الحكم الأموى فعملوا على إغرائهم بالانضمام إليـــهم ،ذلك أنهم وعدوهم بالعمل على تحسين حالتهم ومساواتهم بالعري اجتماعيـــا واقتصاديـــا وسياسيا ووعدهم أيضا باتخاذ الكتاب والسنة أساسا للحكم .

٣) أحيـــاء العصبية القبلية :-

واجه الأمويين فى بلاد الشام ظهور العصبية القبلية ،بين أهالى هذه البـــلاد مـــن اليمنية والمضرية ،وكان الحكم الأموى يعتمد على اليمنيين ،فلما توفى يزيد ولحق به أبنـــه معاوية الثاني ،اشتد النزاع بين عرب الشام على من يتولى الخلافة ،ففى شمال الشام كانت قبيلة قيس متذمرة من الأمويين لاعتمادهم على اليمنيين ،فأصبحت بزعامة حاكم دمشـــق الذى خرج إلى مرج راهط ،وجاءته الإمدادات من ولاة حمص وقنسرين وفلسطين ،وهناك فى مرج راهط بايعت القيسية عبد الله لن الزبير ،أم القبائل اليمنيين فى بلاد الشام فتعصبوا لبنى أمية بما نالوا من الحظوة فى دولتهم ولأنهم أخوال يزيد بن معاوية وقد جاءوا جميعـــا إلى الجابية . (قرية من أعمال دمشق) وكانوا رغم اتفاقهم على أن تكون الخلافـــة لأحـــد الأمويين ،مختلفين فمنهم من يريد خالد بن يزيد ،وآخرون يعترضون على تولية لصغـــر

سنه ويفضلون عليه مروان بن الحكم ،ثم أجمعوا على مبايعة مروان بالخلافة على أن يخلفه بعد وفاته خالد بن يزيد وبعد خالد يلي الحكم عمرو بن سعيد بن العاص .

ولما تم أمر الخلافة لمروان بن الحكم سنة (٦٤هـ/٦٨٣م) ،خرج من الجابية في جموع اليمنية إلى مرج راهط حيث توافدت جموع القيسية ،وهناك دارت بين الفريقين موقعة كان النصر فيها حليف مروان وبذلك توطدت سلطته في بلاد الشام .

ولاشك أن موقعة مرج راهط كانت حربا بين القيسية واليمنية أكثر مما كانت نزاعا بين بنى أمية وأبن الزبير وظهرت العصبية القبلية فى الدولة الإسلامية بعد هذه الموقعة بمظهرها السياسى ،فأنقسم العرب فى كل قطر إلى يمنية ومضرية .

على أن تعصب الخلفاء لقبيلة دون أخرى ،لم يظهر بصورة واضحة إلا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز الذى قضى فترة خلافته فى إصلاح أمور الدولة حتى نال رضاء جميع رعاياه .

ولما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز واجه نزاعا بين مضر واليمن ،ذلك أن يزيد أبن المهلب بن أبى صفرة ، فر من السجن ولحق بالبصرة حيث أنضم إليه كثير من يمنية العراق ،وأشتد خطره وأصبح يهدد كيان الدولة ،فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشا كبيرا ،ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة يزيد بن المهلب وقتله ،وكان من نتائج هذه المعركة ،أن أنحاز يزيد بن عبد الملك إلى جانب القيسية ،وبذلك ضعف شأن العنصر اليمنى .

ولم يتبع هشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء القبائل المختلفة ، فلما رأى أن القيسية ،أشتد أمرها خشى من ازدياد نفوذها على الدولة ،فعمل على التخلص منهم والانحياز إلى اليمنية رغبة فى إعادة التوازن بينهما فعزل الولاة المضريين ،وأحل محلهم بعض اليمنيين فولى خالد بن عبد الله القسرى على العراق ،وولى أخاه أسدا على خراسان، ولم يلبث أن تحول عن اليمنيين إلى المضريين فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق،ونصر بن سيار خراسان . فأظهرت اليمنية استياءها من الأمويين بسبب مقتل زعيمهم خالد بن

عبد الله القرى أمير العراق من قبل قيام هشام بن عبد الملك ورأى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذى ولى الخلافة بعد هشام أن يلزم جانب المضريين ،فأثارت هذه السياسة عوامل السخط والغضب فى نفوس اليمنية ضد الوليد لأنه قتل زعيمهم وأقصاهم عن مناصب الدولة فتآمروا على التخلص منه طمعا فى استعادة نفوذهم ،وما لبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة (١٢٦هـ/٧٤٣م) وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك ،فأنحاز إلى اليمنيين وأخذ يولى العمال منهم ،غير أنه لم يستمر طويلا فى الحكم فقد توفى بعد ستة أشهر ،فآلت الخلافة من بعده ،إلى أخيه إبراهيم ،لكنه لم يحظ بالاحترام الذى لقيه ممن سبقه من الخلفاء وظل الأمر على هذه الحال إلى أن سار مروان بن محمد وإلى الجزيرة وأرمينية إلى الشام ،مطالبا بدم الوليد بن يزيد ،وانضمت إليه القيسية ليكيدوا لليمنية .

وما لبث أن تمكن من التغلب على جند إبراهيم ودخل الشام ،ثم بايعه أهلها وبذلك أصبح خليفة المسلمين سنة(١٢٧هـ/٧٤٤م) . وفى عهده ثارت روح العصبية فى جميع أنحاء الدولة الأموية وتقوض بناء البيت الأموى وأشرف على الزوال .

على أن مروان بن محمد ما لبث – بعد أن آلت إليه الخلافة أن تعصب للقيسية فأثارت اليمنية الاضطرابات والقلاقل كما خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك وانضمت إليه اليمنية ،وقد أضطر مروان إزاء الفتن والقلاقل التى اشتعلت فى بلاد الشام إلى الانتقال منها إلى إقليم الجزيرة شمال العراق .

وقد أتاحت هذه الاضطرابات الفرصة لظهور الدعوة العباسية وتثبيت أركانها ،إذ شغل مروان بن محمد عنها بإخماد الفتن ولم يفطن إلى حقيقة الأوضاع فى خراسان على الرغم من التقارير التى كانت تصل إليه من نصر بن سيار عن سوء الأحوال بها ،ولم يلبث أن باغته الرايات السود من خراسان وطاردته ،وقضت على جيشه ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن على العباسى ثم أخوه صالح ابن على الذى قتله سنة ١٣٢هـ.

ومن العوامل أيضا التى أدت إلى سقوط الدولة وانهيارها ، ما كان من انصراف بعض خلفاء بنى أمية كيزيد بن معاوية ،ويزيد أبن عبد الملك والوليد بن يزيد بن

عبد الملك إلى اللهو والمجون والخلاعة ،حتى ضعفت هيبة الخلافة لضعف أخلاقهم وسوء تصرفاتهم .

* ثالثا التوسع الإسلامي في عهد الدولة الأموية

- **اتجه التوسع في عهد الأمويين في اتجاهات ثلاث :-**

(أ) اتجاه ضد الروم في آسيا الصغرى ،بما في ذلك حصار القسطنطينية ،وغزو بعض جزر البحر المتوسط .

(ب) اتجاه نحو الشمال أفريقيا والأندلس .

(ج) اتجاه المشرق ،في بلاد ما وراء النهر ،وبلاد السند .

(أ) حروب المسلمين في بلاد الدولة الرومانية الشرقية :-

كانت الحدود بين الدولة العربية ،والدولة الرومانية الشرقية في صدر الإسلام غير مستقرة ،ويصعب تحديدها لأن الروم حين جلوا من الشام بعد الفتح العربي خرجوا كل البلاد التي تصلح مراكز لهجوم العرب ،وأصبحت منطقة خربة يصعب عبورها ،وكان يطلق على هذه المنطقة أسم الثغور ،وهي مواضع يقيم فيها الجند للمراقبة ،وكانت تخرج منها حملات سنوية لغزو بلاد الروم في الشتاء والصيف عرفت بالشواتي والصوائف .

كان معاوية بن أبي سفيان أول من وضع للدولة العربية سياسة خارجية تتبعها إزاء الدولة الرومانية الشرقية ،ومما حمله على توجيه نشاطه إلى هذه الدولة ،رغبته في أبعاد خطر الروم عن العرب ، ومن ثم بدأ في غزو أملاك الروم في البحر المتوسط بعد أن أصبح للدولة العربية أسطول بجانب قوتها البرية ، فغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ في خلافة عثمان بن عفان .

ظل معاوية منذ أو ولى الشام في عهد عمر بن الخطاب إلى أن توفى سنة ٦٠هـ يغزو أراضي الدولة الرومانية الشرقية ،وسار بنفسه في خلافة عثمان بن عفان سنة

٢٣هـ إلى القسطنطينية وحاصرها ثم أضطر إلى رفع الحصار عنها بسبب الأحداث الداخلية التى وقعت فى الدولة العربية هذا إلى مناعتها الطبيعية وتحصيناتها .

على أن معاوية وأن قد غزا القسطنطينية ووصل إلى أسوارها فى عهد أمارته فإنه لما ولى الخلافة ،لم يسر إليها بنفسه بل أعد سنة ٤٩هـ حملة برية وأخرى بحرية ،وأسند إلى أبنه يزيد قيادة الجيش فوصلت القوتان القسطنطينية وحاصرتاها حصارا شديدا .

لكن للمرة الثانية لم يستطع العرب الاستيلاء على هذه المدينة لحصانتها ،واضطر يزيد بعد أن دمرت معظم سفن الأسطول العربى إلى العودة .

ولما توفى معاوية سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م، اضطربت الأمور فى بعض ولايات الدولة العربية فى عهد أبنه يزيد ،ثم فى عهد مروان بن الحكم ،حاول الروم استغلال هذا الاضطراب لمصلحتهم فرأى عبد الملك بن مروان أن يعمل على مداراتهم . فجدد الهدنة مع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع ،وتم الاتفاق على أن يؤدى إليه الخليفة إتاوة معينة .

على أن الروم ما لبثوا أن حاولوا مرة أخرى الانتفاع من الاضطراب الذى ساد بعض ولايات الدولة العربية ،ومرة أخرى أضطر المسلمون أن يشتروا سلامة حدودهم بالمال ،فقد صالح عبد الملك ملك الروم على أن يؤدى له فى كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين .

فلما قضى عبد الملك على الفتن الداخلية عاد إلى الميدان الخارجى يرد بقوة عبث الروم بمناطق الحدود ،فأسترد عبد الملك ما استولى عليه الروم من ثغور المسلمين ،وأعاد إخضاع أرمينية ،ونظم سلسلة الشواتى والصوائف ،كما دعم حصون المسلمين وأكثر من حراسها وزودهم بالعتاد والسلاح ،وفى سنة ٨٤هـ أرسل جيشا بقيادة عبدالله عبد الملك فغزا الروم وفتح المصيصة .

ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ،وبلغه الاضطراب الذى ساد الدولة الرومانية الشرقية ،بسبب النزاع على العرش ،رأى أن ينتهز هذه الفرصة لغزوها والاستيلاء على حاضرتها ،فأعد حملة برية وأخرى بحرية لحصار القسطنطينية.

غير أن الموت عاجله سنة ٩٦هـ، وخلفه أخوه سليمان ابن عبد الملك ،فسير في سنة ٩٨هـ الحملة البرية إلى آسيا الصغرى بقيادة أخيه مسلمة ،كما عهد إلى عمر بن هبيرة قائد الأسطول بالإبحار إلى القسطنطينية .

ولما وصل المسلمون إلى عمورية أنضم إليهم رجل من الروم كان يطمع فى الملك "ليو الأزورى" ولما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية خرج ليو على صفوف المسلمين ،وأوهم أهل هذه المدينة أن فى استطاعته صد غارة العرب إذا أسندوا إليه قيادة الأمور فولوه العرش وخلعوا ملكهم .ولما ولى ليو عرش القسطنطينية ،حشد أكبر قوة للدفاع عنها ،ثم عمل على استدراج سفن المسلمين ،وفى ذات الوقت كان الجيش العربى يحاصر المدينة من ناحية البر .وظل يهاجمها حتى نفذت الأقوات وقدم الشتاء ،فهلك كثير من الجند ،وبينما هم على هذه الحال جاءهم خبر وفاة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/٧١٧م ،تولية عمر بن عبد العزيز ،فأوقف مسلمة الحرب ،وعاد من آسيا الصغرى مع من بقى من الجيش تنفيذا لأمر الخليفة .

(ب) فتوح المسلمين فى شمال إفريقيا والأندلس :-

☆ **شمال إفريقية :**

لما تم فتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب علي يد عمرو بن العاص ووطد نفوذ العرب بها . أراد المسلمون تأمين حدود وسلامة مصر ،وكان ذلك بفتح برقة وطرابلس ولذلك استأنف عمرو بن العاص فتوجه فى شمال أفريقيا ،بأنه سار بالخيل حتى قدم برقة وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ،وأنه بعد أن تم له النصر سار أيضا حتى نزل طرابلس الغرب سنة ٢٢هـ/٦٤٢م ، وكانت مدينة حصينة حاصرها شهرا حتى فتحها عنوة .

ثم استشار الخليفة عمر بن الخطاب واستأذنه فى فتح أفريقيا قائلا له : « أنا بلغنا طرابلس وبينها وبين أفريقيا تسعة أيام ،فغن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتح الله على يديه فعل "إلا أن الخليفة كتب إليه ينهاه عن ذلك .

هذا ،غير أنه لما عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر ،وأمر عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ،كان هذا يبعث المسلمين فى جرائد الخيل (أى جماعة الخيل) ،كما كانوا يفعلون فى أيام عمر فيصيبون من أطراف أفريقيا ويغنمون ،فكتب الوالى الجديد (عبد الله أبن سعد) فى ذلك إلى الخليفة عثمان وأخبره بقربها من حرز المسلمين واستأذنه فى غزوها فندب عثمان الناس لغزوها ،فلما أجتمع الناس أمر عليهم الحارث بن الحكم على ان يقدموا على عبد الله بن سعد فى مصر فيكون إليه الأمر .وعند قدوم هذه القوات العربية الجديدة إلى مصر بقيادة الحرث بن الحكم ،توجه بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقيا وكان مستقر سلطانها يومئذ فى مدينة يقال لها قرطاجنة وكان عليها ملك يقال جرجير ،استحلفه هرقل ملك الروك وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة ،والتحمت القوات العربية مع قوات جرجير ،وسرعان ما فر جيشه وبث عبد الله بن سعد السرايا وفرقها ،فأصابوا غنائم كثيرة ،فلما رأى ذلك رؤساء أهل أفريقيا طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ مالا على أن يخرج من بلادهم ،فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر ،ولم يول عليهم أحد ،ولم يتخذ بها قيروانا وكان سهم الفارس من هذه الغنائم فيما يحدث بعضهم ثلاثة آلاف دينار .

وعلى الرغم من أن العرب استولوا على بعض بلاد شمال أفريقيا فإن نفوذهم لم يكن موطدا فيها ،فكثير ما كان البربر يثورون عليهم كلما سنحت لهم الفرص وظل على ذلك إلى أن آلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان ،فأرسل سنة ٥٠هـ إلى عقبة بن نافع الفهرى ،الذى كان مقيما ببرقة عشرة آلاف جندى ليوطد سلطان العرب بالمغرب ففتح أفريقية وأسلم على يديه كثير من البربر ثم وقع أختياره على موضع القيروان (جنوب

تونس) ليقيم بها جند المسلمين وأهلهم فوضع أساس هذه المدينة ،وبنى المسلمون بـــها دار الأمارة والمسجد الجامع ودورا للقادة وأسرهم ومعسكرات للجنود .

وفى ذلك الوقت ،عزل معاوية بن أبى سفيان والى مصر وهو معاوية بن جديـــج سنة ٥٠هـ ،وولى عليها مسلمة بن مخلد الأنصارى ،كما ضم له المغرب أيضا ،فكان من جمع له بالمغرب كله ومصر وبرقة وأفريقية وطرابلس ،فعزل مسلمة ،عقبة بن نافع عـــن أفريقية وولى بدله مولى له يقال له أبو المهاجر .

وفى أوائل عهد يزيد أعيدت القيادة لعقبة بن نافع ،وظل أبو المـــهاجر تابعـا لـــه ،وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيرا فى فتوحاتهما حتى وصلا إلى المحيط الأطلســـى ،ويروى أن عقبة صعد هناك ربوة وهتف : « يا رب لولا هذا البحر لمضيـــت مجـاهدا فى سبيلك» .

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف ،فقد كره البربر عـــودة عقبـــة للقيـــادة ،فثاروا هم والروم عليه بزعامة كسيلة بن لمزم ،الذى كان يحقد على عقبة ،وكان عقبة قد أستخف به وأستصغر شأن كسيلة ،بعدما أحرز من انتصارات ،فتهاون به عقبة ،فـــأضمر كسيلة الغدر به ،فحدث أن عقبة كان عائدا من إحدى غزواته المظفرة ،فلما وصل إلى بـــلدة "طبنة" صرف جنده إلى القيروان وسار فى قلة يريد بلدة أسمها "تهوذه" وعرف الروم ذلـــك فراسلوا كسيلة به وأمدوا البربر بالسلاح والأموال ،ففاجأ هؤلاء عقبة وأصحابـــه ،ودارت معركة غير متكافئة من ناحية العدد والاستعداد وكان ذلك سنة ٦٣هـ وقد قتل فيها عقبـــة وأبو المهاجر وأكثر أصحابها ،وأسر من بقى ،وارتد كسيلة البربرى عن الإسلام وتبعـــن عدد من البربر ،وبقتل عقبة وأبى المهاجر وهزيمة وهزيمة جيشنا عـــاد السلطان مـــرة أخرى للروم فى الساحل ،ولكسيلة فى الداخل وانسحبت جيوش المسلمين من القيروان إلـــى برقة . وحاول عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يعيد سلطان المسلمين على هذه البقاع فأرسل جيشا بقيادة زهير بن قيس ،ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده وكثيرا من أفراده.

وساعد على هزيمة المسلمين وتقهقرهم فى ذلك الميدان اضطراب دمشق فى تلك الأيام بسبب الفتن التى تلت وفاة معاوية .وظل الحال على ذلك إلى أن أرسل إليهم عبد الملك بن مروان سنة ٧٤هـ جيشا عظيما بقيادة حسان بن النعمان الغسانى ،فأجتاح بلادهم وأستولى على مدينة القيروان ،على أن البربر لم يلبثوا أن دخلوا فى طاعة امرأة تسنى الكاهنة (وهى ملكة البربر) لأعتقادهم أنها أوتيت قوة خارقة للمادة ،واستطاعت بمساعدتهم إرغام العرب على الانسحاب من برقة وبسطت بذلك سيطرتها على إفريقيا ،وعندما أستقر الأمر لعبد الملك بن مروان ببلاد المشرق عدل على استعادة نفوذه فى بلاد المغرب ،فأنفذ جيشا لمساعدة حسان بن النعمان ولما علمت بذلك الكاهنة وجهت همتها إلى تحول دون تقدم العرب . فزحف حسان على رأسه قواته لمحاربتها ،فلقيته فى جيوش ضخمة على مقربة من قابس ،فقاتلهم حسان وهزمهم وهربت الكاهنة ،ولم يزل يطاردها حتى التقى بجيشها سنة ٨٢هـ ،فأوقع بها الهزيمة وقتلها ،وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة فى المغرب الأدنى واستقامت له البلاد ،فدون الدواوين ووضع الخراج على عجم أفريقيا وعلى من أقام معهم ،على النصرانية من البربر وعامتهم .

على أن حسان بن النعمان لم يتمتع بثمرة هذا النصر ،فسرعان ما حقد عليه عبد العزيز بن مروان والى مصر ،وأسند إلى موسى بن نصير سنة ٨٩هـ ،ولاية إفريقيا بدلا منه ،فسار إليها وأخذ يقاتل البربر وبسط نفوذ الأمويين وينشر الإسلام فى بلاد المغرب حتى بلغ طنجة فحاصرها وبعد أن تمكن من فتحها أسلم أهلها وقلد طارق بن زياد ولايتها وهكذا نجح موسى بن نصير فى إخضاع بلاد المغرب للإسلام .

- **فتح الأندلس** :-

كان يحكم سبتة من قبل القوط الغربيين حاكم ،يقال له يليان (جوليان) ،كما كان يحكم أسبانيا القوطية ملك عرف لذريق وسيمسه الطبرى الأدرينوق ،الذى انتزع العرش القوطى من الملك الشرعى غيطشة ،فلجأ ابنه إلى مساندة جوليان حاكم سبته ،فى استرداد عرشة المسلوب وفى ذلك الوقت استعان حاكم سبتة بموسى بن نصير (عامل الوليد بن

عبد الملك على إفريقية) ضد لذريق ، وذلك لما كان يضمره له من العداء ،فشجع المسلمين على غزو أسبانيا ووصف لهم محاسنها ووعدهم بالتعاون معهم لنجاح هذا العرض ،بـأن أخذ يعدلهم وسائل الإغارة على أسبانيا والقضاء على لذريق .

ورحب موسى بن نصير بدعوة جوليان ، واستشار الخليفة الوليد الذى تـردد أولا ،ثم وافقه على الغزو على ان يختبر هذه البلاد أولا بالسرايا ،حتى يتأكد أن جوليان لا يريد التغرير بالمسلمين فأرسل موسى بن نصير مولاه طريف بن مالك سنة(١١هـ/٧٠٩م) فى أربعمائة راجل ومائة فارس تحملهم أربع سفن من سفن جوليان فغزا بعض ثغـور بـلاد الأندلس الجنوبية ،وكان هذا الزحف يعبر بمثابة حملة استشافية كللت بالظفر . فأمن موسى إلى جوليان واستوثق فيه ، واشتد عزمه على فتح الأندلس ،فكان أن بعث مولى آخر لـه ،وذلك سنة ٩٢هـ/٧١٠م ،هو طارق بن زياد عامله على مدينة طنجة فـى سـبعة آلاف رجل من مسلمى المغرب ،أكثرهم من البربر ،وعبر المضيق على سفن أعدها له جوليـان حاكم سبتة ،ونزل بجيشه على جبل يعرف باسمه حتى الأن "جبل طارق" ،ولمـا تكـامل جموع بالجبل زحف بحذاء الساحل شمالا ،فأستولى على قرطاجنة الجزيرة ،ثم أتجه فرسـا إلى الجزيرة الخضراء ،وكان لذريق وقتئذ مشغولا بإخماد ثورة البشكنس فى شمال أسبانيا ،فترك هذه المعارك عندما عرف خبر غزو المسلمين لبلاده فأعد جيشا كثيفا قيل أنه بلـغ مائة ألف مقاتل وقاده بنفسه ،فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ،فأمده بخمسـة آلاف من المسلمين ،فكملت بهم عدة من معه اثنى عشر ألفا .

وفى ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ ،التقى الجيشان فى موضع يقـع علـى وادى لكـة بالقرب من شذونة ،واتصلت الحرب ثمانية أيام ،انتصر جيش طارق على العدو انتصـارا باهرا ،واختفى لذريق فلم يعثر على أثر له وتشتت جيشه .وتتبعت جيوش المسلمين أثـر فلول القوط ،تستولى على المدن والمعاقل حتى وصلت إلى طليطلة عاصمة البلاد فدخلتـها وكان ذلك سنة ٩٣هـ .

وأدرك موسى بن نصير أن الجبهة اتسعت أمام مولاه طارق وأراد كذلك أن يكون له شرف الاشتراك الفعلي في فتح هذه البلاد الخصبة ،فقاد جيشا كبيرا عبر به المضيق واتجه إلى مدينة حصينة اسمها قرمونة ففتحها ثم فتح إشبيلية عاصمة أسبانيا قبل غزو القوط لها ،وسار حيث التقى بطارق في طليطلة ،وقد كان اليهود أكبر عون للمسلمين في جميع هذه الفتوحات .

وأتجه القائدان (طارق ،موسى) بعد ذلك إلى الشمال ففتحا سرقسطة وبرشلونة ودانت لهما أقاليم أرغونة وقشتاله ،ثم اتجها إلى الشمال الشرقي حتى وصلا إلى جبال البرانس ،ولكنهما تركا المنطقة الجبلية الواقعة في الشمال الغربي (جليقية) تلك المنطقة التي آوى إليها القوط الفارون من زحف جيوش المسلمين .

وبينما هو يتأهب لاختراق هذه الجبال وصله رسول من الخليفة الوليد يستدعيه إليه في دمشق ،لأنه كان يخشى ازدياد نفوذه واستقلاله بتلك البلاد ،فاستجاب موسى لذلك ،بعد أن أستخلف على الأندلس أبنه عبد العزيز ،كما ولى أبنه عبد الله أفريقيا .

وهكذا تم فتح أسبانيا ،فامتدت حدود الدولة وازدهرت المدينة الإسلامية لتأثرها بالحضارة الأندلسية الزاهية .

(ج) الفتوح في بلاد المشرق :-

١) بلاد ما وراء النهر :

قد فتح العرب بلاد العراق والفرس في عهد أبي بكر وعمر . غير أن هذه الفتوح لم تكن مستقرة في الأطراف ،فكثيرا ما كانت تحاول الأمم المغلوبة استرداد سلطانها كلما سنحت لها الفرصة ،فخرج كثير من البلاد الفارسية على المسلمين في عهد عثمان بن عفان فسير لها جيوشا أخضعتها وأغارت على بلاد ما وراء النهر . وكان مقسما إلى عدة وحدات سياسية مثل : " سمرقند وبخارى وعلى رأس كل منهما ملك من الترك ،هم أشبه بمشايخ قبائل يحارب بعضهم البعض ،مما شجع المسلمين على غزوهم" .

ولما اضطربت الأمور بعد مقتل عثمان واشتدت الحروب الأهلية بين على ابن أبى طالب ومعاوية ،اضطربت الحالة فى خراسان ولم يستطع المسلمون إرسال جيش كبير إليها مما أضطر الحامية العربية التى كانت هناك إلى الانسحاب للمشاركة فى الحرب الأهلية وتركت حامية صغيرة . قد أدى انسحاب القوات العربية من خراسان ،أن يستقل عدد كبير من الأمراء المحليين ،امتنعوا عن دفع الجزية وبذلك أصبحت خراسان مستقلة عن الدولة الإسلامية .

ولكن لم يستقر حكم العرب فى بلخ أو فى بلاد ما وراء النهر فى هذه الفترة نظرا لبعدها ووعرة مسالكها ولكن أستقر حكمهم فى هذه المناطق النائية بعد ،فى زمن قتيبة بن مسلم الباهلى ، وبعد أن استقرت الأمور واستتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ، استعمل قيس بن الهيثم بن الصلت السلمى على خراسان وكان أهل بادغيس وهراة وبوشنج وبلخ قد نقضوا الصلح ،فسار قيس إلى بلخ معبدها وعاد أهلها يطلبون الصلح فوافق عليه قيس ،ولما علم أهل بادغيس وهراة بما نزل بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التى نزل عليها أهل بلخ فأجيبوا إلى طلبهم .

وولى معاوية أيضا زياد أبن أبيه بلاد العراق ومن بعد زياد تولى ابنه عبيد الله فكان لهما قياد هذه الجبهة ،وفى عهد عبيد الله وصل المسلمون فى غاراتهم إلى البخارى وسمرقند.

ولم تنشط فتوح ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ابن يوسف خراسان مع العراقيين فى سنة ٧٨هـ فى خلافة عبد الملك ابن مروان ،فولى خراسان المهلب بن أبى صفرة ،فغزا مغازى كثيرة وأفتتح خجندة ،وأدت إليه بلاد الصفد الإتاوة .

ولما توفى المهلب ولى الحجاج يزيد بن المهلب خراسان وأثناء ولايته اشتبك المسلمون بقيادة موسى بن عبد الله بن خازم ،وهو أحد المتمردين من العرب على الدولة الأموية مع اليهاطلة ،سكان إقليم تركستان ،وهم شعب من الشعوب التركية فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأبدى موسى هذا نشاطا حربيا لا مثيل له واستولى على ترمذ ،وهو

فى عدة يسيرة وقاتل الترك والعجم فهزمهم . ثم عزل الحجاج يزيدا بن المهلب ،وولى خراسان مكانه المفضل بن المهلب ،فوجه المهلب قائده عثمان بن مسعود لاستنزال موسى فاشتبك مع موسى فى موقعة بجزيرة بالترمذ تعرف بجزيرة عثمان ،الذى توفى فيها موسى سنة ٨٥هـ .

ولم تأخذ فتوحات العرب لبلاد ما وراء النهر مظهرها الجدى إلا منذ أن ولى الحجاج عل خراسان القائد العربى الكبير قتيبة ابن مسلم الباهلى فى سنى ٨٦هـ فى أول خلافة الوليد بن عبد الملك وفى أول ولايته وجه قتيبة من مرو أخاه صالحا فغزا بلاد فرغانة وافتتح كاسان وأورشت وخشكت مدينة فرغانة القديمة .

وفى سنة ٨٧هـ غزا قتيبة بيكند وهى أدنى مدن بخارى إلى النهر ،وأفتتحها عنوة ،ثم عاد إلى مرو . وفى سنة ٨٨هـ غزا قتيبة تومشكت وكرمينية . وتصدى له الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة فانتصر عليهم بعد قتال عنيف كاد يظهر فيه الترك على العرب . وفى سنة ٨٩هـ قتيبة بخارى ولكنها استعصت عليه ثم عاود عليها الكرة فى العام التالى ونجح فى الاستيلاء عليها ،وأسس بها جامعا بعد أن دمر بيت النار ،وعندئذ هابه أهل الصغد ،فصالحهم قتيبة على إتاوة يؤدونها إليه ،ومما ترتب عليه دخل كثير من سكان هذه البلاد فى الإسلام .

وفى سنة ٩٣هـ أستولى على خوارزم ،ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد وبفتحها وطد مركزة فى بلاد ما وراء النهر .

وفى العام التالى ،غزا الشاش وفرغانة ،ففتح كاشان ومدينة فرغانة وخجندة ،واشترك معه فى فتح هذه البلاد مقاتلة من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم .

ولم يكتف قتيبة بما أحرزه من انتصارات وبما فتحه من بلاد ما وراء النهر ،بل مضى قدما يتابع فتوحاته ،وبينما هو فى الطريق جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو بل ظل سيره حتى قرب من حدود الصين ،وإذ ذاك أرسل إلى ملكها

وفدا من عشرة رجال تتوافر فيهم البلاغة والعقل والصلاح والوسامة ،يعرض عليه شروط التسليم ،وبعد مفاوضات طويلة اضطر ملك الصين إلى أن يقدم الخضوع ويدفع الجزية .

وهكذا أصبح هذا الإقليم كله تحت سلطان الدولة العربية وسلك العرب فى معاملة أهل هذا الإقليم نفس السبيل التى سلكوها فى الأقاليم الأخرى التى فتحوها ،فشجعوا أهله على اعتناق الإسلام حتى أعتقله كثير من الترك ،أبتدأ العالم الإسلامى منذ ذلك الوقت يتصل بأواسط آسيا حيث كان يقيم العنصر التركى .

٢) فتح بلاد الهند :~

بلاد الهند كانت معروفة للعرب قبل الإسلام ،وكان العرب هم وساطة المقايضات التجارية بين الهند والعالم الخارجى .

ومنذ فتح المسلمون بلاد فارس تطلعوا إلى ما وراءها فامتدت فتوحاتهم إلى خراسان ثم أسلمتهم خراسان إلى بلاد السند . وعلى هذا بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة منذ عهد عمر بن الخطاب وكان الذى قام بذلك فى عهد عمر عاملة عثمان بن أبى العاص عامل البحرين وعمان . وكان قد أرسل جيشا بحريا ولذلك تعرض للوم عمر الذى كان يكره أن يركب المسلمون البحر ،إذ كتب إليه عمر يقول : يا أخا ثقيف ،حملت دودا على عود ،وإنى أحلف بالله لئن أصيبوا لأخذن من قومك مثلهم .

كذلك وجه المسلمون سياستهم إلى فتح بلاد الهند ،فأمر عثمان بن عفان ،عبد الله بن عامر واليه على البصرة ، أن يرسل إلى هذه البلاد رجلا يخبره بحالها ،فوجه إليها حكيم بن جبلة العبدى ، فلما عاد منها ،تقابل مع عثمان بن عفان ووصف له ما شاهده فيها ،إلا أن هذا الوصف لم يشجع الخليفة على غزوها .

ووقف مشروع فتح بلاد الهند عند هذا الحد ،فلم يقم أحد بغزوها ،إلا فى خلافة على بن أبى طالب حين طلب إليه الحارث ابن مرة أن يأذن له بالسير إليها ،فأذن له بذلك وتمكن بفضل الحملة التى تولى قيادتها من الانتصار فى بعض المواقع والحصول على كثير من الغنائم والأسرى ،ثم لم يلبث بعد ذلك أن قتل سنة ٤٢هـ/٦٦٢م .

ولما ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ،عهد إلى المهلب بن أبى صفـــرة ســنة ٤٤هـ/ ٦٦٤م بغزو بلاد السند ،فسار إليها وامتدت فتوحاته إلى الأراضى الواقعــة بيــن كابل والملتان .

ولم يتعد نفوذ العرب هذه البلاد حتى جاء الوليد بن عب الملك فعهد الحجاج بـــن يوسف الثقفى وإليه على بلاد المشرق إلى محمد بن القاسم بغزو بلاد الهند ،فسار إليها سنة ٨٩هـ/٧٠٧م) ولما وصل إلى ثغر الديبل (مدينة على الساحل الغربى للهند) ظل يحاصره حتى تمكن من الاستيلاء عليه ،ثم بنى به مسجدا وأخذ منذ ذلك الوقت يواصـــل فتوحاتـــه حتى بلغ مهر مهران الذى يعرف الآن بنهر السند .وهناك التقى بداهر ملك هـــذه البـــلاد فوقعت بينهما معركة كبيرة انتهت بهزيمة هذا الملك وقتله .

ولم تقف مجهودات محمد بن القاسم عند هذا الحد ،بل تابع فتوحه حتى وصل إلـــى الملتان "أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها" .فأستولى عليها وغنم منها مغانم كثيرة ،غير أنه ما لبث أن تعرض لحقد سليمان بن عبد الملك ،الذى كان يبغض الحجاج بن يوسف الثقفـى وولاته – فولى يزيد بن أبى كبشة السند ،وعزل محمد ابن القاسم الذى انتهت حياته بحبسه فى سجن "واسط" بعد وصوله إلى العراق ،ثم قتله .

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩-١٠١هـ) كتب إلى الملوك والأمـراء يدعوهم إلى الإسلام ،ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم وأنم يكون لهم ما للمسلمين وعليـهم ما عليهم وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم خلشة بن داهر والملوك وتســموا بأســماء العرب وغزا عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند .

وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) خرج المسلمون عن بلاد الهند ،ثم ولى الحكم بن عوانه الكلبى ،وقد كفر أهل الهند إلا أهل القصة ،فلم يرى المسلمون ملجـــأ يلجئون إليه فبنى من وراء البحيرة مما يلى الهند مدينة سماها "المحفوظة" وجعلها مـــأوى لهم ومعاذا ومصرها .

الفصـــل الخـامس

((حضـارة الدولة الأمـوية))

✿ أولا النظام السياسى ✿

١) الخـلافة :~

الخلافة نظام حكم إسلامى خالص ،يتميز عن سلطة القياصرة والأباطرة والأكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية .

والخلافة فى اللغة مصدر "خلف" يقال خلفة خلافة ،أى كان خليفته وبقى بعده ،والخليفة السلطان الأعظم والجمع خلائف وخلفاء . عرف الماوردى الخلافة بقوله : "رئاسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى والخلافة ترادف الأمانة .

أما ابن خلدون فقد عرف الخلافة بأنها " هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ،إذ أحوال الدنيا كلها ترجع عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الأخرة ،فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ؛فالخلافة إذن منصب رئاسة الدولة الإسلامية . وهى فى الإسلام أمر واجب شرعا وعقلا، فالمسلمون لابد لهم من حاكم منهم يرعى أمورهم ويتولى إدارة شئون دولتهم وهذا الواجب قد يكون موجعه العقل أو الشرع أو الاثنان معا . وهذا الرأى الأخير هو ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون .

فالمسلمون إذن لابد لهم من أمام أو خليفة يرعى مصالحهم ويتولى تطبيق الأحكام الشرعية وإقامة الحدود والدفاع عن ديار المسلمين ،ونشر الأمن والطمأنينة فى ربوعها وتنمية موارد بيت المال المسلمين وتنظيم الجيوش للجهاد فى سبيل الله ،وتقسيم الغنائم بين المسلمين ،وإقامة الجمع والأعياد ،ومساعدة المحتاجين ،ورعاية اليتامى والقاصرين .

ولما كان تنصيب الخليفة فى الإسلام أمر واجب ،فقد صار لزاما على المسلمين أطاعته ،طالما كان ملتزما بكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء ": يأيها الذين أمنوا أطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .

وبذلك تصبح منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول (ﷺ) من المؤمنين له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ،وله حق القيام على دينهم ،فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه وكذلك القيام على شئون دنياهم . فهو الحاكم الزمنى والحاكم الروحى وهذا يغاير ما كان فى الغرب فى العصور الوسطى ،حيث كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة أستمرارا لإمبراطورية وثنية سابقة أى لم تكن مستحدثة الوجود ،فى حين كانت الخلافة نظام مستحدث فى نظم الحضارة ،وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الإسلام ،وبسط سيادة العرب على بلاد فارس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية .

*** والخلافة نوعان : « اختيارية و قهرية » .**

(أ) __الاختيارية__ :-

هى التى تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها ورضاها ويشترط فيمن يكون مستحقا لها أن يكون جامعا للصفات المطلوبة ،كما ورد فى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى ،ومقدمة أبن خلدون منها :

- ***العلم*** : المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام .
- ***العدالة***: أن يكون الخليفة صاحب استقامة فى السيرة وأن يكون متجنبا للمعاصى.
- ***الكفاية***: أن يكون الخليفة قادرا على إقامة الحدود بصيرا بالحروب ،كفيلا بحمل الناس عليها ،وأن يكون صاحب رأى وتدبير .
- ***سلامة الحواس والأعضاء*** : مما يؤثر على الرأى والعقل .

وأما موضوع النسب القرشى : فقد ثار حوله جدل كبير حيث أشترط البعض أن يكون الخليفة قرشيا ،ولكن هذا الشرط لم يحز إجماع الناس ليصبح قاعدة مقررة خصوصا

ليس فى الإسلام تفضيل لعربى على عجمى من المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح ،فإذا كان الإسلام يمنع المفاضلة بين العربى والعجمى فمن المفروض أن يمنعها بين العربى والعربى ،أى لا يجوز تفضيل القرشى على غيره .

(ب) **القهرية** :~

هى التى نالها صاحبها بالغلبة والقوة وفى هذه الحالة يرى بعض الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها حتى لا تكون فتنة عامة وثورة جارفة تمزق العالم الإسلامى .

• **ألقاب الخليفة** :~

ومن ألقاب الخليفة الأخرى ((خليفة رسول الله)) (ﷺ) و(أمير المؤمنين)و (الإمام)

وكان أبو بكر الصديق أول من حمل لقب (خليفة رسول الله لأنه خلفه فى رئاسة الدولة الإسلامية ورعاية شئون المسلمين الدينية والدنيوية . ثم تلا الصديق عمر بن الخطاب.

وقال الطبرى فى هذا الصدد : «فكان يلقب بخليفة خليفة رسول الله "(ﷺ) ولكى لا تتكرر لفظة خليفة لمن يتولى أمور المسلمين بعد أبى بكر ،فقد رأى عمر أن يستبدل هذا اللقب بلقب أمير المؤمنين.

أما لفظ الأمام : فتتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة فى الصلاة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين . ولذا نرى الشيعة يستعملون هذا اللفظ لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوى الذين يرون أحقيتهم بالخلافة "قوة الهيبة مقدسة" .

• **الآراء التى ظهرت حول اختيار الخليفة** :~

بعد موت الرسول "(ﷺ) ،قام النزاع بين المسلمين على الخلافة ،واختلف الآراء فيمن تؤول إليه الخلافة .

(أ) المهاجرون والأنصار :-

فقد أشتد الخلاف بينهما على الخلافة ،وأخذ كل فريق يدلل على أحقيته بالخلافة ،فقد رأى المهاجرون أنهم كانوا أول من آمن بالرسول وصبر على أذى المشركين من أهل مكة ،في حين رأى الأنصار أنهم أحق من المهاجرين بالخلافة ،لأنهم هم الذين نصروا النبي وأصحابه وقت الشدة وآووهم في المدينة ودافعوا عنهم ضد أعدائهم المشركين . وكان ذلك في المناقشة الحرة التي جرت في سقيفة بني ساعده (وهو المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون بعد وفاة النبي (ﷺ) للبحث فيمن يخلف النبي (ﷺ) في حكمه على المسلمين ،والتي انتهت ببيعة أبي بكر .

(ب) الشيعة :-

وهم أنصار أهل البيت ،وتتلخص آراؤهم في أن الخلافة يجب ن تكون في آل البيت وفي سلالة علي وبذلك يرون أن تكون الخلافة لعلي ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة .

(ج) الخوارج :-

يعتقدون أن الخلافة ح شائع بين جميع المسلمين ،للأحرار والأرقاء علي السواء ،وقد خالفوا بهذا الرأى نظرية الشيعة التي تقول : بانحصار الخلافة في آل بيت النبي .

(د) المرجئة والمعتزلة :-

المرجئة : قالت « أن الإمامة يستحقها كل من قام بها إذا كان عالما بالكتاب والسنة ،وأنه لا تثبت الإمامة إلا بإجماع الأمة كلها .

والمعتزلة : يقول السعودى في هذا الصدد :« ذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ،وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعيد وأن اختيار تلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفذ فيها أحكامه سواء أكان قرشيا أو غيره من أهل مكة الإسلام وأهل العدالة والإيمان .

• **علامات الخلافة وشاراتها :-**

أولا : علامات الخلافة ثــلاث :-

☆ البردة والخاتم والقضيب

١) **البـــردة :-**

فهي بردة النبي (ﷺ) الذى أعطاها إلى كعب ابن زهير بن أبى ســلمى الشـاعر المشهور ،وكان كعب قد هجا النبى (ﷺ) وفر من وجه المسلمين ،ولما فتح المسلمين مكة ،جاء كعب تائبا إلى المدينة وسلم نفسه إلى النبى ومدحــه فأكرمــه النبــى وأراد بعــض الصحابة قتله فمنعهم ،وبالغ فى إكرامه فخلع عليه "بردته" فظلت البردة عند أهــل كعــب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان فى أثناء خلافته بأربعين ألف درهــم وتوارثــها الخلفاء الأمويون والعباسيون .

٢) **الخاتــم :-**

فقد أتخذه الخلفاء تسبها بالنبى (ﷺ) ،لأنه لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكســرى يدعوهما إلى الإسلام قيل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما .فأتخذ خاتما من فضة ،ونقش عليه «محمد رسول الله» ،وانتقل هذا الخاتم إلى أبى بكر ،ثم إلى عمر ،ثم إلـى عثمان ،ووقع من يد عثمان في بئر أريس . ولم يعثروا عليه بعد ذلك فــاصطنع عثمــان خاتما مثله .

وكان كل من ولى الخلافة بعده يصطنع له خاتما يختمون به الكتــب مــن أسـفل الكتابة ،أو فى أعلاها بالطين ،أو الداد . ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمعة بعد طيـها .وأول من فعل ذلك معاوية تجنبا التزوير . لأنه كتب مرة إلى زياد بن أبيه عاملة بالكوفـة أن يدفع لعمرو ابن الزبير مائة ألف درهم ،وسلم الكتاب إلى عمر ليحمل إلى زياد ،فجعـل عمرو المائة مائتين ،فدفعهما زياد له ،ولما رفع حسابه إلى معاوية ظهر التزوير ،فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها أو لفها .

ومازال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من أيام معاوية إلى أواسط دولة بنى العباس فأسقط ،لأن مباشرة الأعمال تحولت إلى الأمراء والوزراء والسلاطين وغيرهم .

٣) القضيب

وهو عود كان النبى (ﷺ) يأخذه بيده ،وهو فى تركاته ،ويعتبر ثالث علامات الخلافة وإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والقضيب وظل الأمر على ذلك فى بنى أمية وبنى العباس .

ثانيا : شارات الخلافة :-

وهى أيضا ثلاث : الخطبة ،والسكة (العملة)، والطراز .

١) الخطبة :-

من شارات الخلافة ،الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة ،وهى الخطبة وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم ،فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبى (ﷺ) والرضى عن الصحابة .فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال صار الولاة يتولون إمامة الصلاة فى ولايتهم ،فكانوا إذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء ،وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الإمام على وقف على منبرة البصرة وقال : «*اللهم انصر عليا على الحق*» واتصل العمل على ذلك فيما بعد .

وصار الدعاء للخليفة فى البلاد علامة على سلطانه عليهم ،ولما ضعف شأن الخلفاء فى بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الأمراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون أسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقبلون فى الدعاء لأنفسهم .

٢) السكة (العملة) :-

ومن شارات الخلافة أو هى شارات الملك على الإطلاق ،الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه أسم الخليفة أو السلطان ويقال لها السكة وهى لازمة للدولة .

٣) الطــراز :-

وهو من شارات الخلافة أيضا ،وهو قديم فى الدول من عهد الفرس والروم .وذلك أن يرسم الملوك أو السلاطين أسماءهم أو علامات تختص فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو ألا برسيم ،كأنها كتابة خطت فى نسيج ألحاما وسدى ،بخيط من الذهب ،مما يحكمه الصناع ،بحيث تصير الثياب المملوكية معلمة بذلك الطراز ،للدلالة على أنل لابسها من أهل الدولة ،كما هى الحال فى لباس أجناد هذه الأيام .

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم وأشكالهم ،أو صور أخرى تشير إلى الملك فلما أستقر المسلمون على عــــرش الأكاســـرة والقيــاصرة وعظمت دولتهم أحبوا الإقتداء بهم ،ولم يستحسنوا اتخاذ الصور لورود تحريمها فى بعض الأحاديث النبوية ، فاعتاضوا عنها بكتابة أسمائهم ،كلمات أخرى مجرى الفأل أو الدعاء.

« تدرج نظام الخلافة عبر العصور الإسلامية »

١) الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين :-

كانت الحكومة الرسول (ﷺ) حكومة دينية ،تعتمد إلى حد كبير على عقيدة النــاس التى تؤمن بأن النبى (ﷺ) إنما يصدر أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمــره . وكــانت هذه الحكومة تقوم على أساس إحلال الوحدة الدينية والقومية الإســلامية محــل العصبيــة والشعور القبلى فذابت الفوارق وسادت الأخوة ،وعم التراحم ،وانبثق مجتمع جديــد دفعــه الإيمان بالإسلام إلى حماية المفاهيم والقيم الدينية الجديدة التى نزل بها الديــن الإســلامى على رسوله الكريم .

ليس فى القرآن الكريم نص صريح يبين شكل أو كيفية انتخاب خليفــة المســلمين ،بل جعل الأمر شورى بين المسلمين لقوله تعالى فى سورة الشورى: «وأمرهــم شــورى بينهم» وكذلك ليس فى الحديث الشريف ما يؤكد أن النبى (ﷺ) قد أوصى بالخلافة لأحــد من بعده ،أو أنه عليه الصلاة والسلام قد وضع نظاما خاصا بانتخاب من يخلفه ،بل تــرك

الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من أرادوا أن يخلفه فى رئاسة الدولة الإسلامية فـــى أمور الدين والدنيا .وليأخذوا من نظم الحكم ما يتلاءم وأحوالهم ،لأن ظروف حياتهم ليست على حال واحدة بل تتبع سنة الله تعالى فى التغيير .

وكان أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين فـــى أول نشـــأة الإســـلام ،واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية وكثرت المناقشات وكان ذلك بسقيفة بنى ساعدة وأخذ كل فريق يدلل على أحقيته فى الخلافة ،فتصدى لعلاجها بعض زعماء المسلمين من أمثال : أبو بكر الصديق ،وعمر ابن الخطاب وأبو عبيدة الجراح ،وانتهى الأمر باستخلاف أبـــى بكر فنشأت مسألة الحكم عند المسلمين بعد وفاة الرسول (ﷺ) .

وقد حرص أبو بكر أن يعلن سياسته التى عزم على انتهاجها فى الحكـــم فـــألقى بمسجد (ﷺ) خطبة جامعة قصيرة تتجلى فيها الديموقراطية فى أعظم صورها على أثـــر أخذ البيعة العامة له اليوم التالى لاجتماع السقيفة . وبذلك تتمشى بيعة أبى بكر مع نظـــام الشورى ،إذ قد حصل اجتماع يضم أصحاب رسول الله (ﷺ) تبـــادلوا فيـــه الآراء التـــى أقيمت ورجحت كفة على كفة .

ولما شعر أبو بكر بدنو أجله حين أشتد عليه المرض ،رأى أن يعين خليفـــة لـــه ،خشية أن يتجدد الخلاف على من يتولى إمامة المسلمين ،لذلك عزم على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب لما تتوافر فيه الشروط ،إلا أنه لم ينفرد بهذا القـــرار دون مشورة أحد من أصحاب الرأى بالأمة ، فأستمع إليه بعض ذوى الرأى الراجـــح وســـألهم رأيهم فى عمر ،فأثنوا عليه ووافقوا على اختياره وكتب له عهدا بذلك ،وهنا نجـــد أن أبـــا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس ،كما أنه لم يختار أحدا من أبنائه أو أقربائه ،بـــل أختار شخصا اجمع الناس على احترامه لما أمتاز به من الصفات الطيبة وهنا تظهر قيمـــة وفاعلية الإجماع وهو شرط من شروط انعقاد الإمامة .

أما البيعة الثالثة وهى لعثمان بن عفان فكانت أقرب إلى الشورى لأنه جعل الأمـــر شورى بن ستة من أصحاب رسول الله (ﷺ) لهم الشرف والرئاسة وكانوا من السابقين إلى

الإسلام وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ،وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ،والزبير بن العوام .

ولما أجتمع المرشحون للخلافة بعد وفاة عمر تنفيذا لوصيته ،ظهرت بوادر التنافس على أنصار على وعثمان ،ثم وقع الاختيار على عثمان وسارع الناس إلى بيعته بمسجد الرسول (ﷺ) .

وكذلك بيعة على ،فقد بايعه أهل المدينة ،فصار خليفة بمقتضى هذه البيعة ،وإن لم يبايعه جمهور المسلمين ،فقد بايعه الأكثرية .

وهكذا ترى أن بيعة كل واحد من خلفاء المسلمين قد تمثلت فيها فكرة الشورى ،وإن لم تتم كلها بطريقة واحدة .كما أن أحدا من الخلفاء الراشدين لم يجعل الخلافة وراثية ،إذ أجمع الناي كلمتهم على انتخاب أبى بكر بعد وفاة النبى (ﷺ) ،ولم يقبلوا على انتخاب العباس عم النبى (ﷺ) أو أبن عمه على بابن أبى طالب ،وكذلك عهد أبو بكر إلى عمر ولم يعهد إلى أحد أبنائه ورفض عمر بن الخطاب أن يسند الخلافة إلى أبنه عبد الله من بعده ،وبذلك كانت خلافة الراشدين يتمثل فيها النظام السياسى الانتخابى لا الوراثى .

٢) الخلافة فى عهد الأمويين :-

على أن انتقال الخلافة إلى بنى أمية وتحول العاصمة من المدينة المنورة بالجزيرة العربية إلى دمشق ببلاد الشام أحدث تطورا كبيرا فى نظام الخلافة الإسلامية .ويرجع ذلك إلى أثر البيئة فى هذا التطور ،إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية ،كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربى فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية ،تأثر العرب بالبيئة التى عاشوا فيها وأصبح نظام الخلافة أشبه بالنظام الملكى أو القيصرى .

فقد كان معاوية يتمتع بكل مظاهر الأبهة التى يتمتع بها الملوك والقياصرة ،أتخذ سريرا للملك ،وأقام الشرطة لحراسته ،ولم يكن للخلفاء حرس خاص وكانت هذه من شارات الحكم عند الفرس القدماء .فقد نقل معاوية ابن أبى سفيان نظام الحكم فى الدولة

العربية من نظام يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ،إلى نظام الملك الذى يعتمد على الوراثة الذى يستند إلى السياسة أولا ثم إلى الدين ثانيا ،وكذلك حين عهد بالحكم من بعده إلى أبنه يزيد بحجة تجنب الفتن والاضطرابات وانقسام المسلمين ،واستعمل معاوية كل أنواع الحيل والدهاء للحصول على البيعة لأبنه من أناس كانوا لا يزالون متعلقين بنظام الشورى ،مما أدى إلى قيام كثير من الثورات ضد الدولة الأموية . ومع ذلك فقد كان الخليفة فى العهد الأموى يعين ولى عهده ويأخذ البيعة من وجهاء الناس وكبار القواد فى حضرته ،كما كانت تؤخذ البيعة من أهالى الأمصار بحضور الوالى نيابة عن الخليفة وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة والدهاء ،وبهذا العمل حرم معاوية المسلمين حقهم الطبيعى فى الشورى التى جاء بها القرآن الكريم وأيدتها الأحاديث النبوية . وبناء على ذلك ،فإن الخلافة الحقيقية الجامعة لكل الشروط المتمشية مع التقاليد العربية ،كانت على عصر الخلفاء الراشدين فقط أما خلافة بنى أمية فكانت ملكية وراثية ،وقد بالغ فى ذلك بعض الخلفاء الأمويين حتى اصبحوا يولون عهدهم إلى أثنين بل ثلاثة.

(٢) الـــوزارة :~

*** نشأتها وتطورها :~**

يرى الكتاب العرب أن لفظة وزير عربية ،وإنها تطلق على مشاورا لملك ومعاونه يبين المسعودى أن بنى أمية كانوا يرون أن « الوزير مستمد من المؤازرة ،وهى المعاونة ،وقد وردت لفظة وزير فى القرآن الكريم مرتين ،الأولى حين طلب سيدنا موسى عليه السلام من الله تعالى أن يمده برجا من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم قال تعالى : « **وأجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ،أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى**» والثانية استجاب الله عز وجل إلى هذا الدعاء فى قوله تعالى « **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا** » .

ويشير ابن خلدون إلى معرفة العرب بالوزارة عند غيرهم منذ صدر الإسلام فيقول : إن الرسول (ﷺ) كان يشاور أصحابه ،ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة

ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ،حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره " كما أستعملها أبا بكر في سقيفة بني ساعدة عندما خاطب الأمصار قائلا "نحن الأمراء وأنتم الوزراء" .

ويذكر الماوردى ثلاثة أوجه في اشتقاق هذه الكلمة ،أحدهما أنه (أى الوزير) مأخوذ من الوزر وهو الثقل ،لأنه يحمل عن الملك أثقاله (ى أعباء الحكومة) ،الثانى أنه مأخوذ من الوزر ،وهو الملجأ فسمي بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته ،والثالث أنه مأخوذ من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر . والوزارة فارسية الأصل ،وليست من مستحدثات الإسلام ،بل هى أقدم عهدا من ملوك آل ساسان ، فقد عرفت في بني إسرائيل .

تطور مفهوم الوزارة عبر العصور الإسلامية

١) مفهوم الوزارة في عهد الخلفاء الراشدين :-

إذا أريد بالوزارة استعانة الأمير أو السلطان بمن يشد من أزره أو يعاونه في الحكم ،فهى تتصل بصدر الإسلام ،ولكنها تعنى المشير والمؤازر (المعين) ولن تعن الموظف الذى أصبح يعرف بذلك في العصر العباسي . ويرجع ذلك لبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك . فقد كان الرسول (ﷺ) يشاور أصحابه في الأمور العامة والخاصة ويخص أبا بكر ببعض الأمور حتى أن العرب الذين اختلطوا مع الروم والفرس قبل الإسلام ،وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبى (ﷺ) . كذلك كان الحال عمر مع الخليفة أبا بكر وأيضا كان شأن عثمان وعلى مع الخليفة عمر . كما كان مروان بن الحكم بمثابة وزيرا لعثمان بن عفان . وكان هؤلاء الأعوان المقربون يعملون عمل الوزير ،ولكن لم يطلق عليهم هذا الاسم .

إذن لم تظهر الوزارة ،فى حيز العمل فى الإسلام ،إلا فى العصر العباسى أما قبل ذلك ،فلم يكن المنصب موجودا ،مع معرفة العرب بوجوده عند الساسانيين . وقـد أشـار السعودى إلى عدم وجود الوزارة عند الأمويين .

ويقول أبن خلكان عند كلامه على أول زير عباسى :« ولم يكن قبله من يعـرف بهذا الكلام» .

وجاء فى الفخرى : « والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولـة بنى العباس ،أما قبل ذلك فلم تكن مقننه القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد مـن الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر أستشار بذوى الحجة والآراء الصائبـة ،فكـل منـهم مجرى وزير .

٢) مفهوم الوزارة فى عهد الدولة الأموية :-

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ،وتحولت إلى ملك وراثى يقوم علـى السياسـة والدهاء ،أحتاج الخلفاء إلى من يستشيرونه ويستعينون به . فاختاروا بعـض ذوى الـرأى ليكونـوا معـهم بمثابـة الـوزراء ،وإن لـم يطلـق عليـهم هـذا اللقـب أثناء الدولة الأموية ،ويقول أبن طباطبا ،فى هذا الصدد كمل سبق ذكرنـا « كـان ذوى الآراء الصائبة يقومون مقام الوزراء وكان يسمى لواحد منهم كاتبا أو مشيرا» .

وكانت الإدارة الأموية تتجه نحو المركزية تدريجيا ،حتى أخذ الخليفة الأموى يميز كاتبا ممن حوله ويختصه بثقته لما كان وضع عبد الحميد الكاتب عند آخر خليفـة أمـوى وهو مروان بن محمد» .

٣) الكتابـة :-

كان من أكبر أعوان الخليفة بعد الـوزير "هو الكاتب" وقد كان السواد الأعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ،وكان الخليفة يختار كتابة من بين الذين يجيدون الخـط وممن يعبرون عن رأيه بابلغ العبارات وأفصحها ، وعرف من الكتاب فى صدر الإسـلام

من الصحابة : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ،وهؤلاء كتبوا للنبى (ﷺ) القرآن ،وحرروا الكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء ومن كتاب الرسول كذلك : عثمان بن عفان وسعيد بن العاص والمغيرة ابن شعبه ،وابتداء من ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من ذوى العلم والمعرفة الملمين بالكتابة .

ولما ولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له ،كما اتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم كاتبين له .

وفى عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ،وصار عبد الله بن أبى رافع لعلى بن أبى طالب ،وهو الذى قال له الخليفة : يا عبد الله ؟ ألق دواتك ،وأطل قلمك ،وخرج بين السطور وقرمط بين الحروف .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ،وتحولت إلى ملك وراثى أحتاج الخلفاء إلى من يتولى التدبير وإبداء الرأى فى الشئون العامة والخاصة ،فاصطنعوا أولى الرأى وقربوهم إليهم ،واصبح هؤلاء يقومون بعمل الوزراء دون أن يتلقبوا بهذا اللقب ،وإنما أطلق عليهم لفظ "كاتب" وتعددت اختصاصات هؤلاء الكتاب متعدد المهام التى أسندت إليهم ،ومع ذلك فلم يتلقب بعضهم بلقب الوزراء ،ومنهم أمثال زياد بن أبيه فى عهد معاوية بن أبى سفيان ،وروح ابن زنباغ الجذامى الذى كانت له مهام الوزير فى عهد الملك بن مروان ،وعبد الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب الخليفة مروان ابن محمد الذى قام مقام الوزير فى الدولة .

ولهذا أصبح الكتاب خمسة :-

كاتب الرسائل ،وكاتب الخراج ،وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ،وكاتب القاضى ،وأهم هؤلاء فى الرتبة : كاتب الرسائل ،وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ،وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين .

٤) الحجــابة :-

« الحجابة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين :-

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحدا من الدخول عليهم ،بــل كــانوا يخــاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب .فلما انتقل الحكم إلى بنى أمية اتخذ معاوية بن أبي سـفيان ومن جاء بعده من الخلفاء ،الحجاب ،بعد تآمر الخوارج على حياة على ومعاوية وعمـــرو بن العاص ،وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس ،وتلاقيا لازدحامــــهم علــى أبوابــهم ،وشغلهم على النظر ف مهام الدولة . وفي ذلك يقول ابن خلدون « وأمـــا مدافعـــة ذوى الحاجات عن أبوابهم ، فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه ،فلما انقلبت الخلافة إلى الملــك وجاءت رسوم السلطان وألقابه ،كان أول شئ بدئ به في الدولة شأن البـــاب وســده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم ،كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ،مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات ،فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في أيامنا . وكان يشغل منصبا ساميا في البلاط ،ومهنته إدخال الناس على الخليفة ،مراعيا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أى وقت شاءوا ،فقد قال عبد الملك بن مروان لمـــا ولـــى حاجبه : « قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصـــاحب البريد فأمر ما جاء به ،وصاحب الطعام لئلا يفسد ". وقال لأخيه عبد العزيز بن مـــــروان واليه على مصر : أنظر حاجبك فليكن حاجبك فليكن من خير أهلك ،فإنه وجهك ولســـانك ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن أو ترده .

ويعتبر معاوية أول من أرخى الستور من الخلفاء في الإســـلام وأتخـــذ الخلفـــاء الأمويين من بعده حجابا لهم تشبها بالملوك والأكاسر وحرصا على أنفســـهم مـــن خطـــر الاغتيالات السياسية ،فكان الحجاب يحجبون الخليفة عن العامة ويغلقون بابه دونهم .

((ثانيا النـــظام الإدارى))

(١) الإمارة على البلدان :-

كانت حكومة الرسول (ﷺ) فى المدينة المنورة بسيطة إذ جمع فى يده السلطتين الدينية والدنيوية ،فهو الحاكم والقاضى ،والقائد ،وتخضع إدارة الدولة الدولة فى العاصمة وما حولها لسلطته مباشرة . وأما سائر بلاد العرب فقد قسمت على عهد الرسول إلى مقاطعات كان يعين على كل منها واليا ،عهد إليه فى هذه المرحلة المبكرة فى قيام الدولة بتعليم العرب الإسلام وإقامة الصلاة .

وعين أيضا عاملا يتولى جمع الزكاة ،وأحيانا كان الوالى يكلف بمهمة القضاء فى ولايته أو يعهد الرسول إلى أحد أصحابه بالفصل فى الخصومات مثلما فعل مع معاذ بن جبل ،وعلى بن أبى طالب وبذلك وضع الرسول (ﷺ) نواة النظام الإدارى ،وقد أديرت الدولة فى عهد أبى بكر على هذا النحو الذى كانت عليه فى عهد الرسول (ﷺ) .

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية فى خلافة عمر بن الخطاب ،قسم عمر الدولة إلى أقسام إدارية كبيرة ،ليسهل حكمها والإشراف على مواردها وهى : ولاية الأهواز والبحرين ،وولاية سجستان وولاية طبرستان وولاية خراسان ،وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات :بلاد العراق قسمين أحدهما حاضرته الكوفة ،والآخر حاضرته البصرة ،وقسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما : قاعدته حمص ،والثانى دمشق . وجعل فلسطين قسما قائما بذاته وقسم أفريقية إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ،والسفلى وغرب مصر وصحراء ليبيا .

وبذلك كان عمر أول من وضع النظام الإدارى للدولة الإسلامية ونظم إدارتها . وكانت سياسته ترمى إلى تماسك بلاد العرب واندماج بعضها فى بعض لتكون أمة واحدة هى الأمة العربية . وكانت سياسته ترمى إلى عدم اختلاط العرب بأهالى البلاد التى فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم .

وكان عمر بن الخطاب يراقب عمالة فى سياستهم للرعية ،كما كان يحاسبهم حسابا عسيرا إذا بدا على الوالى شئ من ثراء لم يكن عيه قبل توليته .

كانت الدولة الإسلامية مقسمة إلى عدة ولايات أو أقاليم وكان كل إقليم يحكمه أمير أو واللا . وكان أمراء الأقاليم يسمون "عمالا" ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس طبق السلطة . على انه فيما بعد بعد أستعملت كلمة "والى" وهذا يشعر بالنفوذ والسلطان ،كما كانت الحال بالنسبة إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق من قبل عبد الملك بن مروان وأبنه يزيد من بعده . كذلك أطلقت عليه كلمة "أمير" وتطور اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التى يتمتع بها الولاة . وأصبحت كلمة عامل فى عهد بنى أمية تطلق على رئيس الناحية الإدارية كالدير الآن .

وكانت ولاية الأقاليم من المناصب الرفيعة فى الدولة الإسلامية وقد ذكر الماوردى الأمارة على البلدان على النحو الأتى :

إمارة عامة وإمارة خاصة .فالعامة على نوعين :إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ،وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار .

☆ الإمارة عن اختيار (الاستكفاء) :

تشمل سبعة أمور ،أوردها الماوردى : وهى أن يفوض الخليفة إمارة الإقليم أو الولاية على جميع أهله فيصير الأمير عام النظر ضمن النظر ضمن حدود إمارته . ويشتمل نظره عل ما يلى .

- تدبير الجيوش وترتيبها وتقدير أرزاقها .
- النظر فى الإحكام .
- جباية الخراج .
- حماية الدين ومراعاته من تغيير وتبديل .
- إقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين .
- الإمامة فى الصلاة يؤم بها أو يستخلف عليها .
- تسيير الحجيج .
- جهاد من يليه من الأعداء (إن كان هذا الإقليم ثغرا متاخما للعدو) .

* **الإمارة الخـاصة :~**

وفيها يكون الأمير (الوالى) مقصور المسئولية على تدبير الجيش وسياسة الرعيـة والبيعة . وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام وجباية الخراج ،والصدقات وإقامة الحدود وله أحيانا تسييرا الحجيج وإمامة الصلوات ويقول بعض الفقهاء أن القضاء أحق بالأمامـة لأن شرط العلم غير مشروط فيمن يتولى الإمارة الخاصة .

* **إمـارة الاستيلاء :~**

وهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلد من بلاد الخليفة فيقره الخليفة على حالتـه الراهنة حقنا للدماء واستصلاحا للأمور واستدعاء للطاعة .فيقلده الإمارة ويفـوض إليـه تدبير الأقاليم التى تغلب عليها سواء توافرت فيه الشروط المطلوبة أم لـم تتوافـر وذلـك حسما للمخالفة والمعاندة ولأمير الاستيلاء أن يستوزر وزير تفويض ولكن ليـس لأمـير الاستكفاء أن يفعل ذلك .

كانت إمارة العمال على إمارتهم فى العهد الأول عامة ،ولكن رؤى بعد ذلـك أن تخصص « فأمارة عمرو بن العاص على مصر كانت عامة ،فقد كان يقود الجيش ويقضى فى الخصومات ويجبى المال . ولكن بعد قليل عين عمر بن الخطاب شخصا أخر لجبايـة الخراج هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ،وذلك بعد أن أستقل الخراج الذى جباه عمرو . وبذا تخصصت إمارة عمرو بعد إن كانت عامة .وبعد قليل ولى على مصر قاضى يفصـل فى الخصومات ،فصارت سلطة الوالى مقصورة على قيادة الجيش وإمامة الصلاة .

☆ *أما فى عهد بنى أمية* : فقد بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها ،وكـانت مقسـمة إداريا إلى خمس ولايات كبيرة هى :

١) الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢) مصر مقسميها : السفلى والعليا .

٣) العراقان : العربى والعجمـى

٤) بلاد الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذر بيجان وبعض راضى آسيا الصغرى .

٥) إفريقية الشمالية – حتى غرب مصر وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردانية والبليار ومركزها القيروان .

وقد سار الخلفاء الأمويين على سياسة الخلفاء الراشدين فى اختيار الولاة من العرب . وبلغ من اهتمامهم باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب الكبير إلى أفراد من البيت المالك .

وكان سلطة الوالى فى عهد الأمويين مطلقة حتى على الأرواح ،مثل زياد بن أبيه ،والحجاج بن يوسف ،وموسى بن نصير .

(٢) الدواوين :-

الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ،وقد أطلق الديوان مجازا على المكان الذى يحفظ فيه السجل أو الدفتر ،وكان عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين من العرب فى الإسلام . سنة ٢٠هـ لكثرة أموال المسلمين نتيجة للفتوحات الإسلامية ولضرورة ضبطها وتنظيم توزيعها عليهم .

لذا دون عمر الدواوين وفرض العطاء "ديوان الجند" وجعل لكل واحد من المسلمين عطاء مراعيا فى ذلك السبق إلى الإسلام ونصرة الرسول (ﷺ) فى حروبه ،واستخدم الكتاب فى الدواوين ،فرتبوا طبقات الناس مبتدئين بالعباس عم الرسول (ﷺ) ،ثم بنى هاشم ثم بمن بعدهم .

وجرى الحال على ذلك مدة خلافته وخلافة عثمان الذى أدخل فى أيامه تعديلا يستحق الذكر .

وكذلك ديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد لبيت المال .

وجاء الأمويين فاتخذوا دمشق عاصمة لهم ،فتوسعت الأعمال تدريجيا ،وتعددت الحاجات بتطور الأحوال ، فادى هذا إلى أن تتطور الدواوين وتتعدد لتناسب الحاجة التى تتطلبها الدولة . فنشأت دواوين جديدة هى :

١) **ديـوان الخــراج** :-

وهو من أهم الدواوين ،ويتولى تنظيم الخراج وجبايته ،والنظر فى مشكلاته وهـو عماد المالية ،وكان فى حاضرة الخلافة ديوان مركزى للخراج يحتفظ به فـى السـجلات المدون فيها تقديرات الخراج على مناطق الدولة المختلفة وأنواع الأراضى بكـل منطقـة ،ويشرف فى نفس الوقت على الأموال التى ترد إلية من دواوين الخراج فى الولايات ،فقد كان لكل ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ديوان للخراج يتبع ديوان الخــراج الرئيسـى ببغداد ،وينقسم كل ديوان من هذه الدواوين إلى قسمين يشرف أحدهما على النفقات ويرسل ما تبقى إلى بيت المال بحاضرة الخلافة ويشرف الثانى على الموارد .

ورسم هذا الديوان أن يشمل على خراج الضياع والجوالى والزكاة ،ومـن لـوازم هذا الديوان معرفة الحساب والضرب والقسمة والأمانة والعدالة ليأخذ بحـق ولا يحيـف ولا يضيع .

٢) **ديوان بيت المــال** :-

كان هناك ديوانان لبيت المال ،أحدهما ديوان بيت المال العام وهو بمثابة خزانـة للدولة التى يثبت فى سجلاتها أصول الأموال العامة التى تحصل عليها الدولة مـن عيـن وغلال وغنائم وأعشار وأخماس ،وكان يدار عادة من قبل الوزير أو من بيده مقاليد الإدارة وتصريف أمور الدولة . وكان يقوم بيت المال هذا باستلام واردات الدولة ،كما كان يقـوم بتنفيذ أوامر الصرف على مرافقها المختلفة .

والآخر بيت المال الخاص (وهو خزانة الخليفة) وهو تحت سيطرة الخليفة مباشرة ،وكان يحمل إليه أنواعا معينة من الأموال منها : الأموال المختلفة التى يتركـها الخلفـاء لأبنائهم فى بيت المال . وقد اختص بيت المال هـذا باسـتلام واردات ضيـاع الخليفـة وأملاكه، وما كان يأمر بإيداعه فيه من واردات أخرى . ومن أموال الخــراج والضيـاع التابعة للخلافة والأموال المصادرة من الوزراء المعزولين والكتاب والعمال ويحمل إلـى بيت المال مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين .

ويتصرف الخليفة فى بيت المال هذا بالإنفاق منه لأغراضه الخاصة أو ما يأمر به « كنفقات موسم الحج » ومن يخرج من الغزوات الصائفة (أى الحملات التى توجه لحماية حدود الدولة) ونفقات الأبنية والمرمات واستقبال الرسل الواردين والفداء والأسرى .

وكان الخلفاء لهم مطلق الحرية فى التصرف فى أموال بيت المال الخاصة ،فقد كان بيت مال الخاصة خير سند لخزينة الدولة فى أوقات الأزمات ،فكان يستعان به لسداد بعض النفقات إذا قلت إيرادات بيت المال العام .

٣) ديوان الجند :-

وكان يجرى فيه تصريف أمور الجند وكانت تحفظ فيه "الجريدة السوداء" وهو سجل خاص بأسماء الجند واو صافهم وأنسابهم وأجناسهم ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه .

وكان هذا السجل يعتبر "الأصل" الذى كان يرجع إليه فى هذا الديوان. ويمكن القول بأن هذا الديوان كان هو استمرارا للديوان الذى أنشئ على عهد عمر بن الخطاب ،وتطور خلال العصر الأموى .

(٤) ديوان الخاتم :-

وهو الديوان الذى تحفظ فيه المكاتبات بعد أن تمر على دواوين أخرى ،وبه نواب مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها فى هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع وبخاتم صاحب الديوان .

كان معاوية بن أبى سفيان أول من أحدث ديوان الخاتم فى الدولة الإسلامية ويرجع سبب إنشائه ،منع وقوع خطأ أو تزوير فى الكتب التى يصدرها الخليفة ،فقد حدث أن معاوية أحال رجلا على زياد بن أبيه عامله على العراق ليصله بمائة ألف درهم فمضى ذلك الرجل وجعل المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر هذا العدّد فقال ما أحلته إلا بمائة ثم استعاد المائة ألف الأخرى من الرجل ،وصارت التوقيعات تصدر ومختومة لا يستطيع أحد تغييرها .

٥) ديـوان الرسائـل :-

وكان يسمى أحيانا "ديوان الإنشاء" ،وكان هذا الديوان يعتبر من الدواوين المهمـة في الدولة الإسلامية ، إذ يقوم بتحرير رسائل الخليفة وأوامره في الداخل وبمكاتباتـه مـع الخارج ويقول القلقشندى في هذا الصدد " أن الأمور السلطانية من المكاتبـات والولايـات تبدأ عنه وتنشأ منه ،ثم يبين أنه "أول ديوان وضع في الإسلام ،وذلك أن النبى (ﷺ) كـان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة . ويكتب إلى من قرب مـن ملـوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام .

وتوجد إشارات إلى كتاب مختصين بالرسائل منذ بـدء الدولـة الأمويـة ولكـن الجهشيارى لا يسمى هذا الديوان صراحة إلا عند حديثه عن عبد الملك ابن مروان وكـان يكتب فيه كتاب من العرب والموالى .

٦) ديـوان البريـد :-

وكانت مهمته الرئيسية والأولى نقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايـات أو بين الولايات ،وأيضا حفظ الأموال . والظاهر أنه كان ينقل بعض الحاجات والمواد للدولـة ،فالوليد أول من أستخدمه في نقل الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق .

وينسب إنشاؤه إلى معاوية ،وأنه استعان بخبرة الفرس والروم في ذلك .

٧) ديـوان النفقـات :-

وينظر في نفقات دار الخلافة وحاجاتها وصرف استحقاقات أفراد الحـاشية ولذلك سمى بديوان الحاشية . وكذلك محاسبة التجار الذين يتعاملون مع قصور الخليفـة لتوريـد الحاجات اللازمة لها كما كان يضم قسما يتولى الأنفاق على المبانى والمرمات التى يطلب الخليفة إجرائها .كما كان ينظر في "كل ما ينفق في جيش أو غيره" ، ويظهر أنـه كـان يتصل في عمله ببيت المال اتصالا وثيقا ،فكان على صاحب ديوان النفقـات أن يكـون مباشرا لديوان بيت المال ليدخره عنده التواقيع الثابتة الدالة على صحة مصروف النفقـات ،التى يستمدها الديوان من بيت المال العام .

وقد ذكر ديوان النفقات لأول مرة فى خلافة سليمان بن عبد الملك فيقول الجهشيارى فى هذا الصدد : « كان يكتب على النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق عبد الله بن عمرو بن الحارث.

٨) ديوان الصدقة :-

وينظر فى موارد الزكاة والصدقات وفى توزيعها بين مستحقيها ،كما جاء ذلك فى القرآن والسنة ،ويشير إليه الجهشيارى أول مرة فى خلافة هشام . وكان للصدقات ديوان فى حاضرة الخلافة وذلك لأن مال الصدقة لا ينبغى أن يجمع إلى مال الخراج ،وكذلك الحال فى سائر الولايات الإسلامية .

٩) ديوان المستغلات :-

ولعله كان ينظر فى إدارة أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وحوانيت وعمارات وكان لهذا الديوان علاقة بالصوافى وله أهمية فى الإشراف على إدارتها وفى الإنفاق على إصلاحها وتعميرها . وقد ورد ذكر لنشوء هذا الديوان فى العصر الأموى .

١٠) ديوان الطراز :-

ومهمته الإشراف على المصانع التى تنسج الملابس الرسمية والشارات والأعلام وقد أقتدى المسلمون بالأكاسرة والقياصرة ،ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها فى الإسلام ،فاستعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء .

كما يلاحظ أنه ،فى العهد الراشدى والعهد الأموى ساد نظام اللامركزية ،إذ كانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مرافقها الخاصة والباقى يحمل إلى بيت المال (الخزينة العامة) بالمدينة أو دمشق .

☆ تعريب الدواوين :-

وأهم ما قام به الأمويون هو تعريب الدواوين ،ويذكر الجهيشارى فى هذا الصدد : « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان ،أحدهما بالعربية ، لإحصاء الناس وأعطياتهم ،وهذا الذى كان عمر قد رسمة ،والآخر لوجوه الأموال بالفارسية ،وكان بالشام مثل ذلك ،أحدهما

بالرومية والآخر بالعربية فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان ،فتم تعريب دواوين العراق والشام فى خلافة عبد الملك .

وعربت دواوين مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك ،وتم التعريب حين عربت دواوين خراسان فى أواخر الدولة الأموية فى ولاية نصر بن سيار سنة ١٢٤هـ/٧٤١م .

(٣) الشـــرطة :~

هم جماعة من الجند ،يستعين بهم الخليفة أو الوالى فى اســتتباب الأمــن وحفـظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سـلامة الناس ،وقد عرفوا بالشرطة لأنهم اشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها .

وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل . ثم نظمت الشــرطة فى عهد على بن أبى طالب ،الذى أوجد هيئة حراسة المدينة تسمى بالشرطة وأطلق علــى رئيسها صاحب الشرطة .

ثم نظمها معاوية بن أبى سفيان فى الشام حيث ذكر اليعقوبى « كان معاويـــة أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين فى الإسلام .

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقـــوة والخلــق ،وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر ،تقوم على الأحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود ثم انفصلت عن القضاء ،وأصبح رئيسها مستقلا ينظر فى الجرائم .

وكانت الدولة تعتمد على الشرطة فى قمع المتمردين والقضــــاء علــى الثــورات والاضطرابات حيث كلف الخلفاء الأمويين رؤساء الشرطة بأعمال شتى فى بـــلاد الشـام وداخلها بدليل أن معاوية كلف الضحاك ابن قيــس صــاحب الشــرطة بـإيلاغ وصيتــه لأبنه يزيد وأخذ البيعة له . كما أن سليمان بن عبد الملك توصية البيعة لعمــر بــن عبـد العزيز لدى صاحب شرطته قائلا له : « اجمع إليك أخوتى وعمومتى وجميع أهل بيتـــى وعظماء أجناد الشام وأحملهم على البيعة لمن سعيت فى هذا الكتاب فمن أبا منهم أن يبـايع منهم فأضرب عنقه "ففعل" .

وهذا يدل على القوة والنفوذ الذى يتمتع به رئيس الشرطة آنذاك وفى خلافة مروان الثانى كان رئيس شرطته الأسود يساهم فى القضاء على الفتن .

⚘⚘ ((ثالثا النظام المالـــــى)) ⚘⚘

تعمل السياسة المالية لدل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها وقـد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها ،فأنشأت بيتا للمـــال يقـوم علـى صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية .

☆ أولا : موارد بيت المــــال :

تتكون موارد بيت المال من الغنائم ،الخراج ،الجزية ،الزكاة ، العشور .

(أ) الغنـــائم :~

ما حصل عليه المسلمون بالقتال عنوة من أموال منقولة كالخيال والسلاح والكـواع والمتاع التى تؤخذ من المشركين بالقتال . والغنائم لا تعد موارد مهمة لكونها أشياء منقولة لا تسد إلا الاستعمال الشخصى وموقتة وقليلة نسبيا .

وتقسم إلى خمسة أقسام كل خمس منها يرسل إلى بيت المال ليـوزع حسـب الآيـة الكريمة : « واعلموا إنما غنمتم من شئ فإن لله خمسة وللرسول ولـــذى القربـى واليتـامى والمساكين وابن السبيل . أما الأربعة الباقية فتوزع على المقاتلة للراجل سهم وللفارس سهمان

(ب) الفــــئ :~

هو المورد الثانى لبيت مال الدولة الإسلامية ،ويعرف ابن أدم الفئ "بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج بغير قتال ،ويعرفه الماوردى بقوله : « كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ... ويقسم أيضا خمسة أخماس . ويكون خمســها الأول مقسوما إلى خمسة أسهم كالغنيمة ، فالسهم الأول منها لرسول الله والأربعة الباقية لـــذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل عملا بقوله تعالى : « **ما أفاء الله على رسوله من هل القرى لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وأبن السبيل**» .

(ج) الخــراج :-

هو مقدار من المال أو المحصول المفروض على الأراضى التــى فتحـت عنـوة وتركت بيد أصحابها مثل أرض السواد أو التى صالح الإمام أهلها على أن يصبروا ذمـــة ويؤدوا إخراجا .

وكان هناك ثلاثة أنواع من الأراضى لا يفرض عليها الخراج وإنما يدفــع عنــها أصحابها عشــر ثمارها ومحصولاتها وتسمى الأرض العشرية وهى :

١) الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب ،فهذه كانت تترك لـــهم أو يدفعــون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج .

٢) الأرض التى استأنف المسلمون إحياءها ،فهذه يعتــبر أرض عشــر ولا يجــوز أن يوضع عليها خراج .

٣) الأرض التى ملكها المسلمون من المشركين قوة وقهرا إذا ما قسمها الخليفــة علــى الفاتحين "تصبح أرضا عشرية" .

ولا يجوز تحويل أرض الخراج إلى أرض عشرية ولا أرض العشر إلى أرض خراج

أما تقدير الخراج ،فيترك إلى رأى الأمام ،بعد أن يؤخذ فى الاعتبار جودة الأرض ومساحتها ،ويتوقف مقدار الخراج على خصب التربة ونوع المحصــول ،ونــوع السـقى (طبيعيا أو صناعيا) ،بالإضافة إلى البعد عن الأسواق ويراعى فى وضع الضريبة العــدل فيما بين أهلها وأهل الفئ ،من غير زيادة تجحف بأهل الخراج ولا نقصان يضر بأهل الفئ ،ويلزم معاملة أهل الخراج باللطف وارجائهم فى حالة عجزهم عن الدفــع .

ولقد حرص الخلفاء الراشدون والأمويين من بعدهم على جعــل عمــال الخــراج مستقلين عن الولاة والقواد ،فعينوا جباة الأموال يقومون بجباية إيرادات الولايـــة وإنفــاق المصروفات اللازمة لها ،ثم إرسال الباقى إلى بيت المال ،وقد أخذ ينظر الاعتبار النظــام الساسانى القديم فى النظام المالى فى العراق مع إدخال بعض التعديلات عليه .

فإنه حينما تم فتح العراق والشام على عهد عمر بن الخطاب شاور أهل الرأى فى قسمة الأرضيين على المسلمين ،وقد أستقر الرأى العام مؤيد لرأى عمر فى بقاء الأرض ملكا للمسلمين جميعا وأخذ الخراج عن الأراضى ،والجزية على الرؤوس .

(د) الجـزية :-

فهى مقدار من المال يفرض على الذمة وتسقط عنهم عند دخولهم فى الإسلام وقد فرضت على أهل الذمة ،مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتساوى الجماعتان لأن أهل الذمة هم رعايا الدولة أيضا ويتمتعون بحقوق واحدة فهم يدفعون الجزية مقابل حماية المسلمين لهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية ،والجزية تؤخذ من اليهود والنصارى والمجوس والصائبة . عدا نصارى تغلب وأهل نجران ،ويعفى منها الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين . فيؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء وعلى النحو الآتى :-

الأغنياء (٤٨) درهما ومتوسط الحال (٢٤) درهما والفقراء (١٢) درهما وأوصى عمر بأهل الذمة "أن لا يكلفوا فوق طاقتهم" .

ويقول الأوزاعى "كتب عمر فى أهل الذمة أن من لم يطق الجزية خففوا عنه ومن عجز أعينوه ،فأنا لا نريدهم لعام أو لعامين .

ومال الجزية مال فئ أى أنه مال حصل عليه المسلمون بالمسالمة لا بالحرب وهو ينفق بعد جمعه فى خير المسلمين حسبما يراه الخليفة . وكانت الجزية تعتبر من موارد الدخل الهامة التى تعتمد عليها الدولة فى تغطية مصروفاتها ،فقد كانت موارد الدخل الهامة فى إقليم فارس ،وقد ذكر ابن خردانبة أيضا "أن مقدار جزية أهل الذمة فى بغداد تبلغ مائة وثلاثون ألف درهم . ويذكر أيضا قدامة ابن جعفر : أن مقدار الجزية فى مدينة بغداد حوالى مائتى ألف درهم .

(هـ) الزكـاة :-

الزكاة أو الصدقة من الموارد المالية التى يرد ذكرها فى عهد الخلفاء فى العراق الصدقات وهى الحد المالى الواجب على المسلم شرعا ،فرضت على الأغنياء القادرين من المسلمين .

وتجبى الزكاة عادة من "الأموال المرصدة للنماء" ،أما بنفسها وأما بالعمل فيها ،ويبدو أن الصدقات كانت تابعة لديوان الخراج وكانت أموالها لا تعزل عنه وخصت بموظف بجبايتها ،فقد أشار أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيدى أن يختار بنفسه عمال الصدقات فى البلاد الإسلامية من أهل العفاف والصلاح لضمان العدل وكف الظلم فى جبايتها ،وكان بعض عمال الخراج يقومون بجمع أموال الزكاة وظل الحال على ذلك حتى ولى الرشيد الخلافة فأشار عليه أبو يوسف القاضى ألا يجمع بين الخراج والزكاة فى شخص واحد ،فنراه فى سنة (١٧١هـ) يعين أحد أتباعه وهو روح بن صالح الهمذانى على صدقات بنى تغلب .

ويقوم عمال (الخراج) بجباية زكاة الأموال الظاهرة كالمواشى والمنتجات الزراعية ،أما زكاة بقية الأموال كالذهب والفضة فكلن يترك أمر إخراج الزكاة عنها إلى الأفراد . ويقصد بذلك الأموال المدخرة الفائضة عن الحاجة أو الأموال التى تستخدم فى الأعمال التجارية الحرة كرأس المال .

ولا تعد الزكاة موردا ماليا للدولة بالمعنى الصحيح ،بل هى مال من الغنى ويعطى للفقير ،وتنفق منه الدولة على إصلاح مرافقها فهى من هذه الناحية ضريبة لإصلاح المجتمع فى حدود معينة .

← وي<u>شترط فى المال الخاضع للزكاة شرطان:</u>

«« <u>أولهما</u> : أن يبلغ النصاب ، <u>والثانى</u> : أن يحول عليه الحول فى حوزة صاحبه »»

وكانت الزكاة تجنى وفق نسب قررها الشرع ،على كل ما يملكه المسلم ،وكانت تؤخذ الزكاة على المواشى (كالأغنام والأبقار والجاموس والإبل) والمنتجات الزراعية ،أما زكاة الأموال الأخرى كالذهب والفضة وعروض التجارة فيترك لأصحابها ليخرجوا زكاتها . كانت أموال الزكاة والصدقات ،تقسم على الأشخاص المذكورين طبقا للآية الكريمة فى قوله تعالى : « **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها**

والمؤلفة قلوبهم ،وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » " سورة التوبة : آية ﴿٦٠﴾ " .

(و) العشـــور :~

يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وكـانت العشـور تأخذ فى الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار غـير المسـلمين حين ينقلـون بضائعهم من دار الحرب (أى ديارهم) إلى دار الإسلام (أرض المسـلمين) وهـى أشـبه بالمكوس أو الضرائب الجمركية فى الوقت الحاضر ،وكانت أحيانا تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف وتبعا لرأى الأمام ،كما له أن يدفع ذلك عنهم نهائيا. إذ رأى المصلحة فيـه بعد مشورة أولى العلم. والعشر يؤخذ مرة فى العام حتى لو تكرر قدوم التاجر خلال السنة

أما بالنسبة للتجار الذميين يردون إلى دار الإسلام ،فيؤخذ منـهم نصـف العشـر ،ويؤخذ من التجار المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتى درهم فأكثر .

وكانت العشور (المكوس) موردا هاما من موارد الدخل فى العصر العباسى ،ولهذا السبب كثرت أماكن جبايتها وتحصيل رسومها وأطلق عليها "مراصـد المكـس. وكـانت مراصد المكس منتشرة فى الأقاليم الفارسية المطلة على البحر ،والتى تجاور بلاد الـترك . والهند وفى خراسان وسجستان . وكانت هذه المكوس من أموال بيت المال الهامة . ولـم تكن نسبة "المكس" واحدة فى جميع ولايات الدولة. وكانت المكوس تجنى لصالح الخلافة .

☆ **ثانيا : النفقات (المصروفات) :**

عملت الدولة الإسلامية منذ قيامها على تحقيق التـوازن بيـن الـوارد (الداخلـى والمنصرف) وكان ينفق من إيرادات الدولة على الأمور الآتية .

١) رواتب القضاة والعمال وغيرهم من الموظفين ولا يصرف الولاة ولا القضاة شيئا من أموال الصدقات خلاف والى الصدقات ،فإن راتبه يصرف منها .

٢) أرزاق الجند (الجيش) وإعداد الكراع والسلاح وبناء الحصون .

٣) نفقات إصلاح موافق الدولة كتطهير الأنهار وحفر الترع وإنشاء المجارى التى تـأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة وإقامة الجسـور والقناطر والطرق ،وإصلاح السدود .

٤) العطايا والمنح المالية التى يعطيها الخلفاء والأمـراء للأطبـاء والأدبـاء والعلمـاء والشعراء والمهندسين وكبار رجال الدولة من الوزراء والقواد .

٥) النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يمـوت منهم .

((رابعـا النـظام القضائـى))

١) **القضـاء** :-

لم يكن هناك جهاز للقضاء فى عهد الرسول (ﷺ) إذ كان الرسول (ﷺ) يتولـى الفصل فى الخصومات بنفسه يحكم فيهم بما ينزله الله عليه من الوحى .

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية أذن الرسول (ﷺ) لبعض الصحابة بالقضاء بيـن الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد ،كما أذن للبعض الآخر بالإفتاء . وكان الخلفاء فى صـدر الإسلام يباشرون القضاء بأنفسهم ولا يجعلونه إلى من سواهم .

وفى عهد أبى بكر تولى عمر بن الخطاب ،أما فى عهد عمر ابن الخطاب فقد تـم تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة فى الفصل فى الخصومات والمنازعات بين المسلمين طبقا لأحكام القرآن والسنة والقياس .

وهكذا كان عمر بن الخطاب أول من عين القضاة فى الولايات الإسـلامية وقـد وضع لهم دستورا يسيرون عليه فى الأحكام ،فولى عمر بن الخطاب أبـا الـدرداء معـه بالمدينة ،وولى شريحا بالبصرة ،وولى أبا موسى الأشعرى بالكوفة .

وكان القضاء فى عهد الخلفاء الراشدين مستقلا مـهيب الجـانب وكـان يراعـى فى اختيار القاضى غزارة العلم والعدل والتقوى والورع . وظل الأمر هكذا فـى العـهد

الأموى فلم يتأثر بالسياسة أو ميول الدولة وكانت أحكام القضاة نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

وقد أدى أتساع رقعة الدولة الإسلامية وتناكر الخصوم إلى إدخال نظام السجلات لتدوين الأحكام التى يصدرها القضاة ،ومن ثم فقد وجدت السجلات وكان أول قاض سجلت أحكامه فى العصر الأموى هو سليم بن عتر قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ،إذا أختصم إليه جماعة فى الميراث فقضى بيم الورثة ولكنهم تناكروا ورجعوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند فكان بذلك أول سجل قضائى .

٢) **النظر فى المظالم** :~

كانت سلطة قاضى المظالم أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ،إذ كان يعرض عليه القضايا التى عجز القاضى عن تنفيذ حكمه فيها ،ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر ،عظيم الورع ،والمعروف أن الخلفاء الراشدين كانوا ينظرون فى شكاية من يأتيهم من المتظلمين ويعملون على إنصافهم ،لكنهم لم يحددوا لذلك زمانا ولا مكانا .

أما فى العصر الأموى ،فقد أفرد الخلفاء يوما خاصا للنظر فى أحوال المتظلمين وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ،فكان يستعين بقاضيه ابن إدريس الأزدى فيما أشكل عليه ،فكان ابن إدريس هو المباشر ،وعبد الملك هو الآمر ،وقد أفرد يوما يتفحص فيه قصص المتظلمين .

وكانت محكمة المظالم تعقد فى المسجد برئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عنهما ،الذى كان يعين يوما يقصده فيه المتظلمون . أما إذا كان هناك قاض متخصص للمظالم فيكون له النظر فى المظالم بخمس جماعات مختلفة لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم .

١) **الحماة والأعوان** :~

وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢) الحكـــام :-

ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام بما يَصدر من الأحكام لرد الحقوق إلـــى أصحابها والعلم بما يجرى بين الخصوم فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين ،وكـان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات إذا كانوا يستطيعون تطبيـــق الأحكـــام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

٣) الفقهـــاء :-

وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤) الكتـــاب :-

ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ،وإثبات حالتهم وما عليهم من الحقوق .

٥) الشهـود :-

ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم ،والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

وتعرض ظلامات الناس فى رقاع (عرائض) ،ينظـــم ترتيبـــها موظـــف خـــاص ،ويعرضها على الخليفة ليتدارسها مع مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضـــاة المحيطيـــن بمجلسه ، فإذا أستقر رأيه فيها لأصدر حكمه مثبتا إياه العريضة نفسها ،وما على الجهـــة المسئولة أيا كانت ،إلا تنفيذ حكم الخليفة فورا .

ومن هنا نرى سلطة ناظر المظالم ونفوذه يفوقان بكثير ما يتمتع به القاضى المقيـد فى إجراءات وأصول النظر فى الدعاوى ،حتى أن الماوردى يعدد لنا عشر صفات لنـــاظر المظالم يفوق فيها بسلطته سلطة القضاة .

(ج) الحسبـــة :

نشأة الحسبة فى عهد الرسول (ﷺ) ،استجابة لحكم الآية الكريمة « ولتكن منكم آمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،وأولئك هم المفلحون

» ،وقد تولى الرسول (ﷺ) الحسبة بنفسه ،وقلدها غيره ،ولتبعها من بعده الخلفاء ،ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام ،ونظاما من أنظمة الحكم التى جرى عليها الولاة والحكام.

وفى أحاديث الرسول (ﷺ) اهتمام واضح بالسوق ومعاملات البيع والشراء فيه : « من غشنا ليس منا » إنما يشمل غش البضاعة فى السوق ،وبيعها على غير حقيقتها .وقد عين الرسول (ﷺ) سعد بن سعيد على سوق مكة لمراقبتها ، كما استعمل عمر بن الخطاب على سوق المدينة .

بدأ مفهوم الحسبة فى الإسلام فى ارتباطهم بالقضاء فى عهد عمر بن الخطاب ،وعرفها الفقهاء بأنها "أمر بالمعروف إذا أظهر تركة ،ونهى عن المنكر إذا أظهر فعله .

وقد قام عمر بن الخطاب بهذه المهمة بنفسه فى بادئ الأمر ، فكان يشارف السوق ويراقب الموازين والمكاييل ،كما كان يستعمل الولاة ،ويدفعهم إلى القيام بها .

ثم صارت من واجب القاضى ،ثم أختص بها موظف عرف بالمحتسب فعلى الرغم من أن أول إشارة صريحة إلى "الحسبة" و "المحتسب" ترجع إلى أواخر النصف الأول من القرن الثانى الهجرى . فإن ذلك لا يعنى أن هذه المؤسسة قد ظهرت فجأة ،والثابت أن وظيفة "العامل فى السوق" و"العريف" قد وجدت فى صدر الإسلام . واستمرت طيلة العصر الأموى ،وهى التى مهدت دون شك لظهور وظيفة المحتسب .

واستمر أشراف الدولة على الأسواق طيلة العهد الأموى ، وقد أطلق فى هذا العهد على الموظف الذى يشرف على الأسواق اسم "العامل فى السوق" كما سبق ذكرنا ،وانحصرت وظيفته بمراقبة الأوزان والمكاييل .

ومن واجبات المحتسب ، أن يتفقد أحوال السوق باستمرار وكذلك الطرقات العامة ،وأن يلازمها فى أوقات الغفلة ،ويتخذ له عيونا يوصلون إليه الأخبار وأحوال السوق .

وكان عليه أيضا أن يتأكد من صحة المكاييل والمقاييس ،والأوزان المستعملة فـــى السوق ،لكى يجرى التعامل بها من غير غبن على الوجه الشرعى ولضمان ذلك ،فإنه كان يلزم التجار أن يتخذوا الأرطال من الحديد أو المعادن بعد أن يثبت عليها ختم المحتســب . ويضاف إلى ذلك ،فقد كان يقوم بواجبات أخرى فى مجال الخدمة الاجتماعية والصحيـــة ،فقد كان يطلب منه ملاحظة نظافة الأسواق والطرق ،ومنع كل ما من شأنه مضايقة المارة فيها كذلك إلزام أصحاب المبانى المتداعية بهدمها .

ثم توسعت دائرة اختصاصاته فجعل له المحافظة على الآداب العـــامة

← ومن شروط اختيار المحتسب :-

١) الإسلام
٢) العفة فى أموال الناس
٣) التورع عن قبول الرشوة
٤) القدرة على الأمر والنهى
٥) سلامة الجسم .
٦) العلم بأحكام الشرع .

انتهى بحمد الله وتوفيقه

☆ **المراجع المستخدمة :-**

١) دكتـور| أحمد عبد الحميد الشامى

⊕ تاريخ الدولة العربية الإسلامية

⊕ تاريخ الخلفاء الراشدون

٢) دكتورة | سميرة عماد محمد

⊕ دراسات فى تاريخ الدولة العربية الإسلامية .

منذ ما قبل الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية .

٣) دكتـور| محمد زيتون

⊕ الخلفاء الراشـــدين .